

الإسلام والأديان

دراسة مقارنة

د. مصطفى حليم

كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

دار ابن الجوزي

صفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية
٧	مقدمة الطبعة الأولى
١٥	تمهيد
٢٧	مدخل الدراسة

الفصل الأول منهجنا في البحث

٤٧	العودة إلى العقائد الدينية من جديد
٤٨	١- نظرية المعرفة ووسائل الإدراك الإنساني
٥١	٢- بعض عوامل انحراف الأديان وأشكاله
٥٧	٣- عقيدة التوحيد هي الأصل
٦٠	مناقشة منهج التطور في نشأة العقائد الدينية
٦٤	أولاً: أهمية مكانة الإنسان
٦٥	ثانياً: ضرورة الأسوة في اجتياز الحياة الدنيوية
٦٧	ثالثاً: العبادة (معناها ودورها)

الفصل الثاني البرهمية أو الهندوكية

٧١	تمهيد
٧٤	نماذج من انحدار العقائد من التوحيد إلى الشرك (البراهمة)
٧٥	نفي النبوات

صفحة	الموضوع
٧٨	الفيدا أو الويدا
٨٠	عبادة الحيوانات وبخاصة البقر
٨٣	التناسخ
٨٥	وحدة الوجود
٩٠	أوجه الشبه بين عقائد الهند والنصرانية
٩٣	أثر الهندوكية لدى بعض المسلمين

الفصل الثالث البوذية

١٠١	حياة بوذا
١٠٢	الترفانا
١٠٥	الترفانا في ميزان الإسلام
١٠٨	الترفانا وأثرها عند الصوفية
١١١	المذهب الأخلاقي في البوذية
١١٣	مآخذنا على المذهب البوذي في الأخلاق
١١٧	الفضائل الأخلاقية وطرق اكتسابها
١٢٠	نبذة عن السمات الأخلاقية في الإسلام
١٢٩	خاتمة

الفصل الرابع الزرادشتية «أو المجوسية»

١٣١	زرادشت بين الحقيقة والخيال
١٣٤	العقيدة بين زرادشت والأتباع

صفحة

الموضوع

- ١٣٦ منهج العامري في دراسة الزرادشتية
- ١٤٠ أثر الفرس في بعض عقائد الشيعة
- ١٤٢ مكانة الشيطان ودوره في الزرادشتية
- ١٤٥ المجوس ونفاة القدر (أو القدرية)
- ١٤٦ دور الفرس في الغزو الثقافي

الفصل الخامس

اليهودية

- ١٤٩ تمهيد
- ١٥٢ تاريخ بني إسرائيل
- ١٥٤ أهم الوقعات التاريخية لبني إسرائيل
- ١٦٠ مصادر العقائد والأفكار والخطط اليهودية
- ١٦٠ أولاً: العهد القديم
- ١٧٥ نقد موريس بوكاي للتوراة في ضوء المعارف الحديثة
- ١٨٥ ثانياً: التلمود
- ١٩٠ مسؤولية الماسونية عن الثورات الكبرى في العالم
- ١٩٤ بروتوكولات حكماء صهيون
- ١٩٦ البروتوكولات والحركات الصهيونية
- ٢٠٤ الألوهية
- ٢٠٦ الأنبياء

الفصل السادس النصرانية

٢١٣	تمهيد
٢١٤	الأمّة الإسلامية أمة دعوة
٢١٦	التعريف بالأناجيل
٢١٩	صلة الأناجيل بالتوراة
٢٢٥	كتاب طائفة البروتستانت (نسخة الملك جيمس)
٢٢٦	إنجيل متى
٢٢٧	إنجيل مرقس
٢٢٨	إنجيل لوقا
٢٣٢	إنجيل برنابا (أحد الأناجيل غير المعترف بها)
٢٣٣	العوامل الحقيقية وراء استبعاد إنجيل برنابا
٢٣٤	تعقيب
٢٣٩	القرآن الكريم كلام الله تعالى
٢٤١	حول عقيدة التثليث
٢٤٦	عقيدة التثليث فوق طوق العقل
٢٤٧	الصليب والتكفير عن خطيئة البشر
٢٤٩	تحقيق الحادثة
٢٥٢	المنكرون للصلب

الفصل السابع

النبوءات بمجيء الرسول ﷺ في الكتاب المقدس

صفحة

الموضوع

٢٦١ المدخل العقلي لصدق نبوءة محمد ﷺ
٢٦٣ المسلك النوعي
٢٦٣ المسلك الشخصي
٢٦٦ الثقافة في البيئة المكية
٢٦٨ اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث
٢٩٦ خلقه ﷺ

الفصل الثامن

مجمل البرهان على ظهور الإسلام

٢٧٣ أولاً: التوثيق العلمي للمصادر
٢٧٥ ثانياً: خلو الإسلام من الكهنوت
٢٧٦ ثالثاً: المنهج الاستدلالي للإسلام مستمد من مصادره
٢٧٨ رابعاً: المسلمون دينهم واحد
٢٧٩ خامساً: ازدهار العقيدة الإسلامية في ضوء الاكتشافات العلمية
٢٨١ سادساً: حقيقة النبوة ودلائل صدق نبينا محمد ﷺ
٢٨٢ (أ) إحدى بشارات الكتاب المقدس
٢٨٢ (ب) دوره ﷺ في تغيير العالم
٢٨٧ سابعاً
٢٨٧ المراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» رواه مسلم عن أبي هريرة.

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد،،،

فنحمد الله، بعد مرور نحو عشر سنوات -على إصدار الطبعة الأولى للكتاب- تغيرت أمور كثيرة، منها تفكك الاتحاد السوفيتي وتهافت الماركسية، فلسفيًا وسياسيًا واقتصاديًا، وعلى أثرها ظهر القطب الواحد للسيطرة على العالم وإخضاعه للعولمة، أو الأمركة، ويتصل بصميم موضوع الكتاب عودة الدين إلى مركز الصدارة، ثقافيًا وسياسيًا ومنقذًا للحضارة، وربما أصبح سببًا للصراع بين الحضارات كما يتنبأ هنتجتون المنظر الأمريكي.

كذلك صدرت مؤلفات وبحوث لا تكاد تُحصى بتسجيل هذا الحدث الذي فاجأ العلمانيين وجاء على غير توقع، فكان سببًا للارتباك، فحصره البعض في «الأصولية» ولو كان البعض قد أنصت للتفسير الديني للتاريخ والحضارات «كما فعل توينبي» لما اضطرت أمام هذه الظاهرة للتمحكك تعليلاً وتفسيراً لهول الصدمة التي جاءت كالثورة كما وصفتها كارين أرمسترونج، إذ تبين أن التفسيرات العلمانية للدين -التي احتلت المكانة الأولى في الثقافة الغربية لعشرات السنين- كانت غطاءً مؤقتًا لحقائق ثابتة، كالمياه الجوفية تحت سطح الأرض، ثم اندفعت بقوة لكي تقيم ميزان الاعتدال في الصراع الذي كان محتدمًا بين المنطق العقلاني والمنطق الروحي.

يقول الرئيس علي بيغوفيتش رحمه الله تعالى: إن العودة إلى الدين أصبحت ظاهرة عالمية في كل مكان قمع فيه الشيوعيون الدين على مدى خمسين إلى سبعين سنة ... نعم هناك أسلمة في البوسنة .. وهي صحوة إسلامية بقدر ما فيها من صحوة أرثوذكسية وكاثوليكية، ولكن الفرق هو أن عودة المسيحيين إلى دينهم لم تلتفت انتباه أوروبا المسيحية وهو أمر أفهمه ولا ألومها عليه، أما عودة المسلمين إلى دينهم فقد اعتبرته أمرًا مفرغًا.

وسنرى كيف استردت الكنيسة سلطتها في إدارة دفة الأمور السياسية، وكذلك كيف ظل اليهود طوال تاريخهم المليء بالهجرات والتشتت في أنحاء العالم يعملون لذلك اليوم الموعد - أي العودة إلى القدس - في سرية وصمت، ثم أعلنوا ذلك جهاراً عندما وجدوا أن العالم مهياً لقبول أهدافهم.

أما الإسلام فبعد أن كانت دولته عالمية في ظل الخلافة انحسر نفوذه السياسي العالمي؛ لأسباب ذاتية وقصور في الأمة الإسلامية، مع هجمات أعدائه التي لم تهدأ أبداً منذ بعثة الرسول ﷺ.

ويشتمل الكتاب في طبعته الثانية على مدخل للدراسة، وثمانية فصول، خصصنا لكل فصل دراسة ديانة من الأديان بإجمال، وهي على التوالي: البرهمية أو الهندوكية، البوذية، الزرادشتية أو المجوسية، اليهودية، النصرانية، وتناولنا في الفصل السابع الحديث عن إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ بطريقتين؛ أحدهما بما ورد في الكتاب المقدس، والثاني بالدليل العقلي المحض.

وجاء الفصل الأخير لإتمام الدراسة في قالب مقارنة مجملة لبيان ظهور الإسلام بالحجة والبرهان.

والله تعالى أسأل أن يحقق هذا الكتاب غرضه في الدعوة إلى الله ﷻ بالحكمة الموعظة الحسنة، وأن يرسخ الإيمان ويثبتته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ٧ ربيع الثاني سنة ١٤٢٢ هـ

٣٠ يونيو سنة ٢٠٠١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد،،

فإن هذه الصفحات تتضمن محاضرات في علم مقارنة الأديان، ألقيتها على طلاب الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة أثناء العامين ١٤٠٩ و١٤١٠ هـ، وقد التزمت فيها اختصار المادة العلمية مكتفيًا بالمسائل الرئيسية، مع الإحالة إلى المراجع والمصادر المختصة، والعناية بإجراء الموازنات بعد عرض الآراء المختلفة في تعريف الدين والترجيح بينها، مستندًا إلى الدراسة المستوعبة لأصولها وفروعها للدكتور محمد عبد الله دراز رحمته الله في كتابه «الدين».

وإزاء سيل الكتب التي تصدرها المطابع بلا انقطاع عن موضوع الدين وما يتصل به من قضايا رئيسية أو فرعية، فإن التساؤلات المطروحة دائمة وتحتاج إلى عناية خاصة هي:

- ١- بأي منهج يدرس أصحاب هذه الكتب قضايا الدين؟
- ٢- ثم، هل يستطيع المؤلف التخلص من عقيدته عندما يكتب عن دينه؟
- ٣- ويبقى استفسار أخير عن مفهوم الدين في تصورات الكُتَّاب والمؤلفين، ذلك لأن الدين (مفاهيم مختلفة في أذهان الناس؛ ففي الغرب يعني الدين بصورة رئيسية نظام إيمان وعبادة يتميز عن الولاء الوطني والسياسي .. أما بالنسبة للمسلمين فالدين يعني أكثر من ذلك بكثير، فالإسلام يشمل في معناه ما نعينه في الغرب كلمة الحضارة المسيحية والدين المسيحي مجتمعين^(١)).

(١) ص ٣٢ من كتاب الغرب والشرق الأوسط، برنارد لويس، ترجمة نبيل صبحي، كتاب المختار، بدون تاريخ، سلسلة: نحو طلائع إسلامية واعية.

ونفهم من هذا التعريف - على إيجازه- أحد سمات الكمال للإسلام.

وليس يعني ذلك أننا ندافع عن الإسلام، فهو غني عن ذلك، ولكن إذا استندنا إلى الأصول المشتركة بين الأديان، وعرضناها بمنهجية علمية مقارنة تلتزم بتوثيق المصادر ومخاطبة العقل واستخدام أساليب الجدل المنطقي، إذا فعلنا ذلك سيظهر الترجيح الذي لا يقبل المكابرة.

بمثل هذه الرؤية الواضحة نرى أن لافتة «الحيدة العلمية» لم تعد تقنع أحدًا عند البحث في الأديان، فما من باحث إلا وهو حامل عقيدته التي لا يستطيع التخلي عنها مهما زعم ارتداء ثوب «الحيدة».

يقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق: (إن الواقع يشهد بأن حرية الرأي مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الإطلاق كما يشاء في مسائل معينة.. ثم إن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه قد غاش فيهم دهورًا طويلة، حتى أصبح جزءًا من كياناتهم^(١)).

ومع هذا فإذا أردنا البحث عن أفضل الطرق لتحديد المواقف بقدر الإمكان، فيجب علينا إقامة بحوثنا على عناصر محايدة -كالأرقام الرياضية- مُعَرَّفٌ بها في دائرة مصطلحات الأديان وعلى ضوء مفاهيم علمائها ورجالها، فما من دين إلا وله كتاب ونبي «يختلف بشأنه في الأديان الوضعية» ومعتقدات وعبادات وشرائع ونظام للقيم وتصور للحياة والنفس الإنسانية.

(١) أوروبا والإسلام ص ١٣٥، طبعة دار الشعب بالقاهرة، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

فتعالوا إلى التعرف على ما يميز به الإسلام بأدلة عقلية مجردة
« القرآن كلام الله المنزل، لم يكتبه بشر ولم تتدخل الأيدي لنسخه وتبديل معانيه
وتغييرها حسب الأهواء.

« إثبات خصائص النبوة والرسالة لمحمد ﷺ إذا قورنت بالأنبياء والرسل جميعاً
وهو القياس الذي التزمه هرقل ملك الروم كما سيأتي، ويبقى ملزماً لأهل الكتاب
لإيمانهم بالرسل والأنبياء قبله، فهو لا يخرج في أخلاقه وأعماله ودعوته عما فعله الرسل
السابقون عليه.

« عقيدة التوحيد - وهي ميزة الإسلام الكبرى وغايته القصوى - لا تشوبها شائبة
من عبادة مخلوق أيًا كان، سواء في السماء كالشمس والقمر والكواكب، أو في الأرض من
أوثان أو كهنة أو رجال دين.

« إن شريعته بالمقارنة بغيرها تجمع بين الفضل والعدل. وقيمه الخلقية البالغة في
الرفقي حدًا لا يجارى، إذ لو لم نقرأ عمن طبقها وما زلنا نعيش مع من يفعل؛ لظننا أنها مجرد
مثلٍ عليها تصلح لكائن آخر غير الإنسان.

« بيان حقيقة الإنسان ودوره في القيام «بالخلافة» بشروطها، والهداية إلى طريق
الحياة الطيبة في الدنيا الموصل إلى السعادة في الآخرة.

« وعلى الإجمال فإن الإسلام يُشخص الإنسان بذاتيته المتفردة، فلا هو كائن «حيواني»
بحت، ولا هو كائن «ملائكي» نوراني بحت، بل أصله من طين ثم نفخ فيه الروح^(١).

(١) يقول نجم الدين البغدادي: (إن العالم على ثلاثة أضرب: عقل محض كالملائكة، وشهوة محضة
كالبهائم، ومركب من الأمرين وهم الثقلان، فالطرفان لا مشقة عليهما؛ أما الملائكة فلعدم الشهوة
المعارضة لعقولهم، وأما البهائم فلعدم التكليف، والثقلان «الجن والإنس» واسطة عليهما المشقة
لتنزاع العقل والشهوة في مراديهما. فيبحث الإنسان بينهما كالمخلص بين متخاصمين) ص ٢٠٤ من
كتاب الانتصارات الإسلامية في علم مقارنة الأديان، نجم الدين البغدادي الطوفي «٧١٦هـ» تحقيق
د. أحمد حجازي السقا، مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٣ م.

« والإنسان يظل - منذ ولادته فموته ثم بعثه - مستقلاً بذاته لا يفنى في «الكل» خلافاً لعقائد الهنادكة والبوذية. وهو حرُّ الإرادة مسئول عن أفعاله ولا يتحمل أخطاء غيره أو يولد حاملاً للخطايا كما يعتقد النصارى.

« والناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط، ولكن يتفاضلون بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، خلافاً لليهود الذين يتوهمون أنهم وحدهم «شعب الله المختار».

« ويحذرنا الإسلام من إبليس العدو اللدود وأعوانه ويعرفنا بطرق محاربهه ويضعه في حجمه الحقيقي تصحيحاً لعقائد المجوس والنصارى^(١).

« أمته بتاريخها - وأكثر صفحاته ناصعة البياض فلا تجارها أمة أخرى في جهادها وتضحياتها وبذلها الأنفس والثمن لا لغرض إلا لتكون كلمة الله هي العليا، أمة بالمعروف ناهية عن المنكر - لا للسيطرة أو الاستعمال أو استعباد الشعوب وقهرها وسلب خيراتها والاستلاء عليها.

« وربما يندهش ويتعجب الباحثون والمراقبون من غير المسلمين، ولكننا لا نفعل^(٢)، إنهم لم ينتبهوا إلى أن الأمة الإسلامية هي ثمرة الإسلام؛ كانت تقود حضارة العالم في حالة

(١) وتذكر أرمسترونج أن الشيطان في المسيحية كائن ذو شر قاهر على حين أنه حتى في الإسلام كائن يمكن ترويضه والتغلب عليه، ولكنها أخطأت بقولها: (حتى إن القرآن الكريم يومئ أنه حتى الشيطان يمكن أن يتلقى المغفرة في اليوم الآخر) ص ٤٥٠ من كتابها «معارك في سبيل الله» ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، ط كتاب الطور سنة ٢٠٠٠م.

والشيطان بموجب خطيئة آدم أصبح يملك إمامة الإنسان، حيث وقف الإله أمام الشيطان عاجزاً لا يستطيع أن يسترد الإنسان أو يخلصه من بين يرائه - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ص ١٨٩ من كتاب الحقيقة المقلقة .. الله والدين والإنسان - للدكتور محمد الحسيني إسماعيل ط. الأهرام سنة ١٩٩٦ م.

ويعظم النصارى أيضاً من شأن الشيطان بحيث يعتقدون أنه نال من مشيئة الله تعالى، ويسمونه في الكتاب المقدس المسيحي أي العهد الجديد: «رئيس هذا العالم» [يوحنا ١٦: ١١] كأنه صاحب الكلمة النافذة والحاكم الذي يقضي في هذه الحياة الدنيا، ص ١١٦، تعليق محمد مختار مترجم كتاب «ديدات يواجه راعي الكنيسة في السويد» المختار الإسلامي، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(٢) ينظر كتابنا «الصحة الإسلامية: عودة إلى الذات» دار الدعوة بالإسكندرية.

قوتها وازدهارها، وظل الإسلام هو درعها، تقاوم أعداءها وهي في حالات الضعف وتكالب الأمم عليها، وآية ذلك انتصار المجاهدين الأفغان الدال على أن عرق الأمة ما زال - بالرغم من ضعفها - ينبض بقوة ليطردها عنها الأعداء.

« وحرى بالعالم الإسلامي أن يواصل دعمه لهذا الجهاد العظيم ويستفيد من آثاره لتقوية حركة الصحوة وامتدادها إلى الجمهوريات الإسلامية الواقعة تحت نير الاستعمار الروسي؛ لأن حركة المقاومة قد بدأت ولا بد من استمرارها، إذ لا يخفى أن حملات القمع تشتد، لأن أهلها مسلمون، وأكد كبيرهم ذلك عندما صرّح بأن معضلاته اثنتان: الإسلام والأزمة الاقتصادية.

« كذلك يعطينا الإسلام التصورات الكاملة عن الحياة الآخرة؛ لأنها الحياة الحقيقية ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فاقتضت طبيعتها وصفها وصفاً دقيقاً كاملاً لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وعرفنا بها، ترغيباً في حياة النعيم المقيم، وتحذيراً من الجحيم.

« وإننا لعلّ يقين من أن أي باحث يستخدم العقل المجرد والضمير الحي في مراجعة ما قرّناه بالأدلة، فيسهل عليه رؤية الحق والإذعان له.

وإذا كانت الأديان هي موضوع دراستنا، فإن واقع العصر الذي نعيشه الآن، يفرض علينا تناول بعض الظواهر البارزة بالعرض والتحليل:

« سقطت أفئدة المذاهب والأيدولوجيات^(١)، وظهرت الوجوه سافرة، فلم يعد يخفى على المتابع للأحداث العالمية الأخيرة عودة العقائد الدينية مرة أخرى شرقاً وغرباً وراء التصريحات والتحركات والقرارات السياسية، وتحول الصراع من مجال المذاهب إلى مجال الدين.

« إن هذه الظواهر الطارئة على العصر في السنوات الأخيرة -وما زالت تتوالى- لا تكاد تخفى على أحد، منها: استرداد الكنيسة لسلطانها الذي فقدته منذ بدء النهضة وقيادتها لمجريات الأمور السياسية^(٢)، ومحاولة استرداد دورها الذي فقدته منذ الثورة الفرنسية، وحملات التبشير^(٣) ونشاط الاستشراق كطلائع للغزو العسكري في البداية، ثم

(١) ومن مظاهر تماهي المذاهب والنظريات أننا رأينا الماركسية يكيل لها أتباعها الطعنات في مواضع قاتلة، وعلى رأسها إباحة تعدد الأحزاب وإقامة السوق الحرة، والسباح للكنايس بأداء دورها والانفتاح على الغرب .. وتتساءل: أين القوميات الآن وفي مقدمتها «العربية» التي استُخدمت طوال سنوات لظعن الوحدة الإسلامية وضرب الإسفين بين الأمة الواحدة؟! وأين الحياض الإيجابية وهناك في كشمير يذبح المسلمون ويقتل أبناؤهم وتنتهك أعراض نسائهم على أيدي الهندوكيين، وتسرب أيضاً أنباء مفجعة عن اضطهاد المسلمين في الصين!؟

وفي أوروبا المتحضرة التي ترفع شعار الحريات وحقوق الإنسان كشفت عن نفسها حيث كانت تعني «الإنسان الغربي وحده» وهاهي مذعورة ترفع رايات التحذير من الإسلام والمسلمين، لا لسبب إلا بدافع الحقد المتوارث من الحروب الصليبية!

(٢) أمر بابا الفاتيكان في أواخر أبريل ١٩٩٠م بعقد اجتماع غير عادي لكبار الأساقفة في روما؛ لبحث المواقف في أوروبا الشرقية، وصرح بأنه يجب على الكنيسة أن تسعى للملاءمة هذا الفراغ على المستوى الرسمي. «مجلة المختار الإسلامي، العدد ٩١، المحرم ١٤١١هـ، أغسطس ١٩٩٠م ص ٧٥».

(٣) كتب «رايتي دافيد» على أثر اعتناقه للإسلام يقول: (كانت المدارس والمعاهد التي درست بها تحارب الإسلام وتحاول صدنا عن سبيله) ص ٩١، وعرف التبشير بيلاده أنه: (التعرض للمبادئ الإسلامية والتنكر للقرآن) أي أن نشاط المعاهد التبشيرية لم يقتصر على البلدان الإسلامية بل كان دأبها في أوروبا للسيطرة على العقول، ص ٩٧ من كتاب «الإسلام يتحدى المذاهب والأديان» محمود حمدي الجريسي، ط. در التراث العربي ١٩٧٦م.

استمراره في تغذية الغزو الثقافي والحرب الفكرية، والكتابات العدائية المغرضة ضد الإسلام والرسول ﷺ^(١) وتحريك العملاء وتشجيع الأقاليم الحاقدة لتنفث سمومها لإجهاض حركة اليقظة الإسلامية، والتحام المذهب البروتستنتي في النصرانية مع الصهيونية لإنشاء وتدعيم إسرائيل على أساس عقيدة دينية تغذيها أحلام تورائية يشترك في الإيمان بها كل من اليهود والنصارى البروتستانت ومعظمهم من الأمريكيين^(٢). ويأتي

(١) ويؤسفنا أن هيئة اليونسكو انضمت إلى زمرة المهاجمين للإسلام، وخانت بذلك رسالتها. انظر التفاصيل بكتاب: مفتريات اليونسكو على الإسلام، محمد عبد الله السان، المختار الإسلامي «١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م».

(٢) وهناك أيضًا نحو أربعين مليون أمريكي يؤمنون بعقيدة معينة تسمى «عقيدة العصر الألفي السعيد» وخلصتها أن الله قد وعد بني إسرائيل أن تقوم لهم في آخر الزمان دولة، وهم يؤمنون أن يوم القيامة سيأتي، ومن الخير أن يأتي يوم القيامة سريعًا بعده، وستقوم معركة بين قوى الخير وقوى الشر، وأن المسيحيين سيتهجون عندما تنتصر قوى الخير، وتتم إبادة كل اليهود، وتسود المسيحية. ص ٦٧ - ٦٨ من كتاب «العرب وإسرائيل - شقاق أم وفاق» للأستاذ أحمد ديدات وترجمة علي الجوهري، ط. دار الفضيلة بمصر ودي ١٩٩٠م.

وإذا تبعنا مواضع التحام المذهب البروتستنتي بالصهيونية، فستلاحظ أنه أثمر الخطوات السياسية المتدرجة نحو إنشاء إسرائيل وتدعيمها، وكان معظم الزعماء السياسيين المسؤولين عن ذلك في بريطانيا وأمريكا من البروتستانت. وآية ذلك أن «مارتن لوتر» مؤسس الحركة قد وصف بأنه «شبه يهودي» أو نصف يهودي، واعتبر المبادئ البروتستانتية في القرن السادس عشر بمثابة بعث «دعوي» أو يهودي، وحتى عندما تغير موقف لوتر من اليهود كتب يقول: (من الذي يحول دون اليهود وعودتهم إلى أرضهم في يهودا؟ لا أحد، إننا ستزودهم بكل ما يحتاجون لرحلتهم لا شيء إلا لتنتخلص منهم. إنهم عبء ثقيل علينا وهم بلاء وجودنا).

وفي ظل الاستعمار البريطاني لبلدان العالم العربي والإسلامي، كان مارك سايكس - الذي تحول للصهيونية وأحد مساعدي لويد جورج - القوة المحركة للسياسة البريطانية الخاصة بفلسطين والتي أدت إلى وعد بلفور، ثم أعطت معاهدة «سايكس بيكو» فلسطين هوية جغرافية لأول مرة في التاريخ الحديث. كذلك فإن التعليل الصحيح لانحياز أمريكا لإسرائيل لا يقتصر على «اللوبي» الصهيوني، ولكن يرجع إلى تغلغل الأفكار العريضة للصهيونية في التفكير الأمريكي، فأثمرت شخصيات لعبت دورها بدافع عقائدي، أمثال: ترومان وكارتر الذي كانت خلفيته البروتستانتية وآراؤه الدينية مرتبطة بسياسته. ينظر كتاب «الصهيونية غير اليهودية - جذورها في التاريخ الغربي»

التطور الأخير غير المتوقع من قبل؛ أي زوال العداء بين المعسكرين الشيوعي والغربي، والتكتل العدائي نحو الأمة الإسلامية الذي بلغ أشده في هذه الأيام.

كذلك لم يعد بمقدور أحد أن يشكك في تحول اليهودية إلى دين سياسي يغذي الإسرائيليين بأحلام إقامة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، واتخاذ بروتوكولات حكماء صهيون دليلاً للعمل، ووضع محتويات العهد القديم والتلمود موضع التنفيذ للسيطرة على العالم، فإن هذه البروتوكولات (موجودة في المعابد اليهودية في كل أنحاء العالم بما في ذلك مصر، وأن حاخامات المعابد يحفظونها عن ظهر قلب، ولأنها بروتوكولات سياسة فإن الحاخام يشرح الكثير منها في أيام السبت دون أن يذكر أن هذه هي البروتوكولات)^(١).

هذا، وإذا كان الإسلام في غير حاجة للدفاع عنه كما أسلفنا، فإننا سنلتزم - كأحد طرق الاستدلال - بالموازنة بينه وبين غيره من الأديان، سواء أكانت وضعية أو سماوية، وعندئذ ستظهر مزاياه تباعاً كلما انتقلنا من مبحث إلى آخر، وستتضح بجلاء الإشعاعات المضئية للآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ٧ من المحرم سنة ١٤١١ هـ

٢٨ من يوليو سنة ١٩٩٠ م

= تأليف ربحينا الشريف، وترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م، الكويت «صفحات ١٨-١٩-٤٥-٤٧-١٦٩-١٧٠-٢٠٤-٢٧٥».

وقد كتبت في مقدمة بحثها تقول: (وحتى نضع الأمور في نصابها، سنين كيف أصبح التيار الخفي للحضارة والثقافة الغربية ملوثاً بالأساطير الصهيونية الملوثة، سواء الدينية منها أو العلمانية) ص ١٨.

(١) الإرهابيون الأوائل جيراننا الجدد ص ١٨، وجيه أبو ذكري، المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٧ م، وقد جاء هذا التصريح على لسان طبيب أسنان يهودي مقيم في مصر ورفض الهجرة إلى إسرائيل.

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد.

فإن ظاهرة «التدين» قد اجتذبت الكثير من العلماء والباحثين في مجال العلوم الإنسانية، لتحليلها وتأصيلها، وبيان أوجه الاختلاف بين العقائد والأديان، إما بمنهج تاريخي، أو بمنهج مقارن، أو بمنهج تحليلي لبيان النشأة والتطور، وعلاقة العقائد بينها وبين بعض بالتأثير والتأثر.

ولا شك أن علم مقارنة الأديان قد حقق نتائج باهرة تجعلنا في موقف أفضل من أهل القرون السابقة، حيث ظهرت كثير من الأبحاث والدراسات والمخطوطات المحققة كلها تجعلنا أكثر دقة في الحكم، وأكثر اقتراباً من فهم ما يدور حول العقائد والأديان، لعل في مقدمتها التساؤل عن أي العقائد والأديان أحق بالاتباع؟ وتزداد أهمية السؤال إذا عرفنا أننا نعيش عصر العقائد الدينية بعد فشل الأيديولوجيات.

وإذا ثبت إخفاق الأيديولوجيات^(١) بسبب عدم تلبيةها لحاجات النفس الإنسانية، أو تحقيقها للسعادة المرجوة على مستوى الجماعات والأمم، وفشلها في تحقيق النتائج المنتظرة عندما نبتت في أذهان أصحابها، بعد ذلك كله يحق للعقيدة الدينية أن تبرع على عرش القلوب، وأن تتخذ منهاجاً لتحقيق الحياة الطيبة للأفراد والمجتمعات، في عصر حضارة متأزمة تضخمت بالمشاكل وأصبح أهلها يضجون بالشكوى. فأبي دين أحق أن يتبع ليحقق السعادة المرجوة؟

(١) يُنظر كتابنا «الإسلام والمذهب الفلسفية المعاصرة» ص ٧٠/٧٤. ط. دار الدعوة بالإسكندرية

لنتفق أولاً على التعريف المتكامل للدين في ضوء الدراسات التي أجراها العلماء المتخصصون في هذا الميدان.

يعرّف الدكتور محمد عبد الله دراز الدين بأنه: (الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة، هذا من حيث هو حالة نفسية، ومن حيث حقيقة خارجية، فهو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها)^(١).

والدين الحق بهذا التعريف لا تجده متحققاً إلا في الإسلام، ونضيف القول بأنه ليس مجرد فكرة أو فلسفة، وليس طقوساً وعبادات روحية منقطعة الصلة بطبيعة الإنسان، ومكوناته العاطفية، وغرائزه ووجدانه، ولكنه يجمع في إطاره الكامل عقيدة التوحيد إلى جانب تنظيم أنشطة الإنسان في ميادينها المختلفة؛ في الأسرة والمجتمع والدولة، وياقي الأمم، في علاقته بغيره في شئون الاقتصاد والمال وقواعد الحكم السياسية، ومبادئ السلوك والأخلاق، في العلاقات الإنسانية كلها، مع تعريفه بالسنن الإلهية، وحكمة خلقه كإنسان له مكانته وهدفه ومصيره بالمقارنة بباقي المخلوقات التي تشاركه حياته الدنيوية لأنه أكرمها.

أضف إلى ذلك تصويب نظرة الإنسان إلى نفسه ومكوناته الروحية والجسدية وتعريفه بالحياة الدنيا وطبيعتها والغرض منها كدار ابتلاء، ومعبر للحياة الآخرة الخالدة، وضمّ كل هذا كتاب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ونفذت تعاليمه وأحكامه وتشريعاته بواسطة خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، كما قامت طائفة من أمتة - وستظل إلى قيام الساعة - ظاهرة على الحق لا تنحرف عنه، ولا تغير ولا تبدل في أصوله وأحكامه أو تعاليمه.

وسنرى بمشيئة الله تعالى أن دارستنا ستجيب على التساؤلات التي تدور في خلد

(١) د. دارز الدين ص ٢٥ «بحوث عمدة لدارسة تاريخ الأديان» دار القلم، الكويت ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

الإنسان، وهي كثيرة ومتشعبة مثل: ما هو مبدأ هذا الكون ومصيره؟ هل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة؟ فإن كانت فما هي طبيعتها؟ وما هي تعليماتها ووصاياها في هذه الحياة؟ ثم ما هي مكانة هذا الكون من حيث المجموع؟ ومن الذي يدبره بمثل هذه الدقة والنظام والحكمة البالغة الشاملة والقانون المحكم المتين؟ وما هي صفاته وصلته بالإنسان؟ وماذا ينبغي للإنسان أن تكون علاقته به؟ وهل هناك قانون خلقي عدا قوانين الطبيعة الدائرة في العالم؟ فإن كان فما هي تفاصيله؟ وما هي مكانة الإنسان الصحيحة ومنصبه في هذا الكون؟ هل هو حرٌّ طليقٌ لا يتقد بقيود وأحكام أم هو تابع محكوم؟ هل هو مسئول أمام أي قوة ومحكمة أخرى أم أنه حرٌّ طليقٌ لا مسئولية عليه؟ ثم ما هو أسمى مطلوبه؟^(١)

ومن معالم منهجنا أيضًا التحقق من حقيقة التطور الذي يردده الغربيون عن حضارتهم، باعتبارها تعبر عن أرقى الحضارات وأكثرها تطورًا، حيث نرى أن التطور الصحيح لا يقتصر على التقدم العلمي التكنولوجي فحسب، بل ينبغي أن يصاحبه أيضًا «تطورًا» عقائديًا وأخلاقيًا، وإذا بحثنا في عقائد القوم نراها قد ثبتت على عقائد الشرك والوثنية للأديان المحرّفة أو الوضعية، أو بمعنى أدق هي امتداد لها، ومن ثم فإن العقائد قد انتكست من «التوحيد» الذي أتى به الأنبياء والرسل ﷺ، ولا سبيل للتطور الإنساني الحقيقي إلا بالعودة إلى «الارتقاء» إلى العقائد الموحى بها من الله ﷻ.

إن عالم اليوم يعيش في «ردة» حقيقية عن الدين الإلهي الصحيح، إذ خضع الإنسان بإرادته إلى عبادة غيره من الكائنات في مذلة وهوان، بينما في الأصل هي مُسخرّة ومُذلّلة له، ولنلقي نظرة إلى القارة الآسيوية أيضًا ذات الكثافة السكانية الهائلة، وفي مقدمتها اليابان المتقدمة علميًا وتكنولوجيًا، فقد عبد اليابانيون مظاهر الطبيعة والأسلاف وما «الشتوية» إلا مزيج من عبادة الشمس ومظاهر الطبيعة وعبادة الأسلاف وعبادة الإمبرطور المسمى «ابن السماء»^(٢).

(١) أبو الحسن الندوي: بين الدين والمدنية ص ٩، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفار عطار ج ١ ص ١٨٥. ط. مكة المكرمة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

والبوذية التي تعمل على جذب الكثيرين من الأوروبيين والأمريكيين بحثاً عن غذاء للروح في الشرق، هذه البوذية عبارة عن ديانة هندية انتقلت إلى الصين، ونعجب للإنسان المتحضر المعاصر الذي ينزل إلى درك عبادة صنم، إذ من المعروف أن في «الاسا» معبد بوذي فيه تمثال بوذا من الذهب الخالص، والمعبد محلي بأعلى الجواهر، ويعبد هذا الصنم ويُحج إليه من قِبَل من يعبدونه^(١).

(١) نفسه ص ١٧٥/١٨٢.

مناهج البحث في نشأة الدين

وما دامت ظاهرة التدين بهذه الأهمية التي استرعت انتباه الدارسين من العلماء والفلاسفة بالنظر للإنسان «كمخلوق متدين»، والتدين من خصائصه الجوهرية، جاز لنا استعراض مناهج البحث في نشأة الدين، وتتبع آراء واضعيها.

اتفق العلماء إذن على أن ظاهرة التدين أصيلة في النفس البشرية ولكنهم اختلفوا في الإجابة عن السؤال الآتي: ما هي عوامل يقاظها في النفس؟ وهنا ظهرت وجهات النظر المختلفة التي تجيب عن هذا السؤال؛ أجملها الدكتور محمد عبد الله دراز رحمته الله في ستة مناهج سنوجزها في الصفحات التالية، مع حرصنا على توجيه نظر الباحثين بخاصة والقراء بعامة إلى ضرورة الرجوع إلى الأصل؛ أي كتاب «الدين» له؛ لأنه يعد من أفضل - بل ربما أفضل - ما كتب في العربية في العصر الحديث عن الدين ومناهج بحث نشأته، كما أن الدكتور دراز لفت نظرنا - ربما لأول مرة أيضًا - إلى وجه جديد من أوجه إعجاز القرآن الكريم، حيث يثبت عالمنا الكبير أن القرآن جمع بين هذه المناهج جميعًا، قال تعالى: ﴿سَتْرِيهِمْ أَتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

١ - منهج المذاهب الكونية والطبيعية الشاذة «العادية والشارضة العنيفة»

يرى فريق من العلماء - ومنهم العالم الألماني ميلز - أن العالم الأول في إثارة الفكرة الدينية هو النظر في مشاهدة الطبيعة لا سيما الأفلاك والعناصر، ذلك أن التأمل في هذا المجال غير المتناهي يجعل الإنسان يشعر بأنه محوط من كل جانب بقوة ساحقة غالبة، قوة مستقلة عن إرادة البشر يخضع الجميع لتأثيرها، ينتقل الفكر من الكائن إلى المكون، إذ الإعجاب ببدايات الملكوت يحمل الإنسان بفكرته إلى التساؤل عن المبدع ويحفزه إلى التوجه بفكرته إليه، فيتحول إلى مناجاة مبدعه والإفضاء إليه بعبارات التبجيل العميق، والتقدیس البليغ، أي العبادة، وهذه المناجاة تنطوي على عنصرين:

١ - أن الشيء الذي تتوجه إليه أهل؛ لأن يستقبل حديث من يناجيه.

٢ - أنه أسمى مقامًا وأكمل صفة من الإنسان لأنه يستطيع ما لا يستطيع الإنسان^(١).

ولكن يُعترض على هذه النظرية بأن استمرار الظواهر الكونية على نسق واحد يجعلها أمرًا

مألوفًا، فظهر من العلماء من يرى أن إيقاظ التأمل في النفس يرجع إلى أن الحوادث الأرضية المفاجئة والعوارض المساوية النادرة كالبرق والرعد والعواصف والصواعق والخسوف والظوفان والزلازل، هذه الحوادث لها تأثيرها على المشاعر؛ كتأثير دقّ الجرس في تنبيه الغافل وإيقاظ الروسان، فتحفز بني آدم إلى السؤال عن مصدرها، وإذا كان لا يرى سببًا ظاهرًا اضطر عقليًا أن ينسبها إلى سبب خفي ذي قوة هائلة. هذا هو رأي العالم الإنجليزي «جيفونس» إذ يعلل التدنّين بشعور الرهبة والخشية لأنه أسبق في النفس من شعور الإعجاب.

ولكن العالم الفرنسي «ساباتييه» يرى أن شعور الرهبة والخوف من القوة العلوية لا يكفي وحده لتفسير الفكرة الدينية، ذلك أن الخوف إذا استأثر بالنفس سحق الإرادة وشلّ الحركة وولّد اليأس، فلا بد من شعور آخر يوازنه ويلطفه من حدّته وهو الأمل والرجاء اللذان يعثان على الدعاء والتضرع، وهذه هي حقيقة الدين^(١).

٢- منهج المذهب الروحية «أو الحيوية»

ويقصد بالروح -الخاصة الإنسانية بكيان مستقل عن الروح المشترك بين الإنسان والحيوان- أن مبدأ الحياة التفكير والإرادة المنظمة والعاطفية والضمير، والدليل على ذلك أننا نرى النائم والمغمى عليه والمصروع يتنفسون ويتغذون ويمشون، فهم أحياء بالحياة الحيوانية ليس غير حتى تعود إليهم تلك القوة الخاصة، فيعود إليهم شعورهم المنظم،

المذهب الروحي إذن بعكس المذهب الطبيعي، فبدلاً من استنتاج الكائن الغيبي من مطابقة الآثار العظمى في عالم المادة يشتق المذهب الروحي صفاءه من جنس عمله نفسه، ومن نوع التجارب التي دلّت عليه فهو لا ريب روح عظيم؛ ذلك الذي يصنع الأسرار والعجائب الروحية، وهو لا شك عقل خلاق؛ ذلك الذي يمد العقول بمزيد من النور أو يكف عن إمدادها^(٢).

(١) نفس المصدر ص ١٢٥.

(٢) نفس المصدر ص ١٣١، والتعبيرات ترجمة عن أصحاب المذهب، ولا تنفق معهم إسلامياً «كالقول بالعقل الخلاق».

٣- منهج المذاهب النفسية

يستمد أصحاب هذه المذاهب من التجارب النفسية - في حياة الإنسان العادية المألوفة له - دليلاً على أنها توجه النظر إلى الحقيقة العليا، فيحلل «ساباتيه» شعور الطفل بما فيه من مناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته، وتنتهي التجارب النفسية إلى أن تصبح النفس مدركة ومُدركة وحاكمة ومحكومة معاً.

وتفسير هذه التجارب ونتائجها أن رغبة العلم تنتهي بالاعتراف بالجهل، ورغبة الاستمتاع تنتهي بالتقرز، والإسراف على السعادة يذهب براحة الطمأنينة، كأنها تحمل في نفسها جرثومة فئتها، فإلى أين المفر؟

إن العلم ليس سبيلاً للسعادة في الصراع بين قانوني الطبيعة والأخلاق، فكيف السبيل من الخروج من هذا المأزق؟ لا مفر من اتخاذ الدين سبيلاً لحل هذه الأزمة، ولكن «برجسون» يستخلص من الشعور بالواجبات الاجتماعية نشأة العقيدة الإلهية، إذ لما كان نظام المجتمع وتماسكه يتطلب من الفرد انخلاعه عن بعض رغباته وتضحيتها بجانب من حريته كان لا بد من قوة أخرى دافعة لهذه التضحيات؛ أي العقيدة الدينية.

كذلك فإن الحياة اليومية والحوادث المستقبلية مليئة بالنماذج المعبرة عن تطلع النفس البشرية إلى من يحقق أملها، فالتاجر الآمل في الربح والمريض المنتظر الشفاء والزارع الدائب العمل في حقله مؤملاً الحصاد، وكل ذي حاجة يسعى لإشباعها، كل هؤلاء لهم آمال تبعثها تصوراتهم أمام النفس، إرادة خفية يركن إليها القلب ويعتمد عليها، تلك هي إرادة الله «الإله المستعان».

أما «ديكارت» فإن أحد الطرق عنده في إثبات وجود الله تعالى مستمد من فكرة الكمال، إذ إنها أسبق في الفطرة من فكرة النقص، فإن من لا يعرف الشيء لا يفترقه فيقول: إذن كيف أعرف أنني ناقص لو لم تكن عندي فكرة كائن كامل أكمل مني؟

٤- منهج المذاهب الأخلاقية

وصاحب هذا المذهب هو الفيلسوف الألماني «كانط» وله دعائمه في إثبات صحة ما

يذهب إليه، ومنها أن كل إنسان - حتى الطفل المميز - يجد في نفسه استحساناً لبعض الأفعال واستهجاناً لبعضها، ويدرك بنفسه أن بعضها يجب أن يُفعل وبعضها يجب أن يُجتنب، وهذا هو أقصر الطرق - في رأي الدكتور دراز - لشرح مذهبه؛ إذ يُمكن عند سرد المثال الانتقال مباشرة من القانون الأخلاقي المجمل الذي تخضع له إلى واضح هذا القانون وغارسه في النفوس^(١)؛ ولكانظ تفسيرات أخرى نضرب صفحاً عنها لبعدها عن غرضنا في التبسيط والإيجاز.

٥ - منهج المذهب الاجتماعي

وينسب إلى «دور كايم» الذي يرى أن التدين وليد أسباب اجتماعية ... ويعلل ذلك بأن خير وسيلة لتفسير ظاهرة معقدة كالظاهرة الدينية أن تدرس في بداية نشاطها قبل أن تحالطها عناصر غريبة عنها، وأن ذلك إنما يكون ببيئات الأمم البدائية، وهي في نظره تلك الأمم التي لا تتميز فيها الأسر الخاصة بخاصة مستقلة، بل تقوم على نظام القبائل لا الأسر. واستخلص «دور كايم» من اجتماعات القبائل واحتفالاتهم دليلاً لمذهبه، إذ رأى أن من طبيعة الاجتماعات أن تنسلخ النفوس فيها عن شخصياتها الفردية وتمحي وتدوب كلها في شخصية واحدة هي شخصية الجماعة. وهكذا يكون الاجتماع هو مبدأ التدين وغايته وتكون الجماعة إنما تعبد نفسها من حيث لا تشعر^(٢).

ولا يسلم هذا المذهب من انتقادات عديدة تأتي عليه وتنقضه من أساسه منها:

١- أن تحديد الدين بهذه الطريقة «أي دراسة الظاهرة الدينية في أقدم عصورها» يعد عملاً مجافياً لقانون المنطق السليم، إذ لا يحق لنا أن نحدد حقيقة الإنسانية من النظر في أول أطوار الجنين.

٢- تقوم بعض الأدلة الأثرية والتاريخية على عكس افتراضه، فالآثار الباقية من عهد القبائل الآرية والسامية يثبت منها أنها كانت قائمة على النظام الأسري.

٣- كذلك قام أحد الباحثين «روبرت شمت» بدراسة دقيقة في أستراليا فأثبت أن

(١) كتاب «الدين» ص ١٤٦.

(٢) نفس المصدر ص ١٥٣.

قبائل أستراليا الوسطى أحدث القبائل هناك وأكثرها تقدمًا، عندهم عقيدة «الإله الأعلى».

٤- يعترف «كونت» بأن عددًا من قبائل أستراليا قد وصلوا إلى فكرة «الإله الأعلى» أو «الإله الأحد» وأنه كائنٌ أزليٌّ أبديٌّ، تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وأنه هو الذي يثير البرق ويرسل الصواعق وإليه يُتوجَّه في الاستسقاء وفي طلب الرزق، وهو الذي خلق الحيوان والنبات وصنع الإنسان من الطين ونفخ فيه من الروح، وهو الذي علم الإنسان البيان وأهمه الصناعات وشرع له العبادات، وهو الذي يقضي في الناس بعد الموت فيميز بين المحسن والمسيء، ولكنه يعتمد إلى تجاهل ذلك ويعمد إلى ضرب من اللهو الخليع الذي يأتيه بعض القبائل في حفلات، تضم كل شيء إلا الدين والعبادة.

٦- منهج المذهب التحليمي أو مذهب الوحي^(١)

وهذا المذهب يقرر أن الأديان لم يسر إليها الإنسان، بل سارت هي إليه وأن الناس لم يعرفوا ربهم بنور العقل بل بنور الوحي.

هذه النظرية التي أخذت بها طوال القرون الوسطى أوروبا وأيدها بعض علماء التاريخ حتى في القرن التاسع عشر لا تزال هي المذهب السائد عند كبار رجال الدين عندهم، كما أننا نجد في الكتب السماوية مصدرًا في الجانب الإيجابي منها^(٢).

من هذه النظرة الجامعة لمناهج العلماء في بحث منشأ العقيدة الإلهية يستتج الدكتور/ محمد عبد الله دراز أن (مطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات، وأن دلائله البرهانية ماثلة في الأنفس والآفاق، وأن بواعثه النفسية مركزة في الوجدانات، غير أن الناس ليسوا على درجة في سرعة الاقتناع بكل هذه الدلائل) ومع اختلاف الناس في وسائل الاقتناع، تنوعت في القرآن وسائل الدعوة إلى الله ﷻ.

(١) كتاب الدين ص ١٥٧.

(٢) نفس المصدر ص ١٦٤.

وهاهي النماذج القرآنية على الترتيب:

١- ففي المنهج الطبيعي مثل قول الله تعالى: ﴿ أَقْلَمَ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ ۗ ﴾ [الأرض: ٦] وَالْأَرْضَ مَدَدْتَنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَشْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِجُوجٍ ۗ ﴾ [ق: ٦-٧]، وقوله: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ۗ ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۗ ﴾ [القصص: ٧١]، ويلفت القرآن الأنظار إلى عنصر الاختلاف بين التشابهات اختلافًا لم يتهدأ للعلم البشري معرفة أسبابه ولا التحكم في عوامله مع اتخاذ البيئة والعوامل الطبيعية الظاهرة، فينبه على موضع العبرة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَّجَبُورَةٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٌ وَنَخِيلٌ صِنُونًا وَعَثْرًا صِنُونًا يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ۗ ﴾ [الرعد: ٤]، وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ لِسَانَكُمُ وَالْوَنُكْرُ ۗ ﴾ [الروم: ٢٢].

كما ينبه القرآن - في الشق الثاني من المنهج الطبيعي - إلى الحوادث المروعة في قوله: ﴿ وَنَسِجَ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الرِّسَالَاتِ فَتُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ۗ ﴾ [الرعد: ١٣]، ويضيف إلى ذلك الإنذار بالأحداث المتوقعة أو المحتملة فيقول: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقِيمُونَ ۗ ﴾ [الأنعام: ٦٠] أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ۗ ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨].

٢- ونرى عناصر المنهج الروحي مبثوثة أيضًا في كثير من الآيات؛ لبيان استقلال الروح البشري وانفصاله عن الجسم وبقائه بعد الموت في حالة برزخية بين الدنيا والآخرة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۗ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۗ ﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

٣- ويشير القرآن إلى ما لاحظناه في المذاهب النفسية من حيث قصور الإرادات الإنسانية عن بلوغ أهدافها وإلى عجز الإنسان أمام المقادير العليا وضرورة استسلامه لها في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَىٰ ۗ ﴾ [النجم: ٢٤-٢٥]، كما يضيف القرآن عنصرًا آخر عظيم الدلالة على الألوهية، وهو تحول الإرادات وتحولها من الكراهية

إلى المحبة، وعدوها إلى الألفة من غير تدخل الأسباب الطبيعية في قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]، ويجمع الله تعالى ذلك كله في قوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

٤- حتى المذهب الأخلاقي نجد لبه وجوهه في القرآن حيث يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧-٨].

٥- بل المذهب الاجتماعي نفسه إذا عدنا إلى أساسه الصحيح وهو تقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على الأفراد فنجد القرآن يسجله في مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ تَتَّبِعْ مَا آَلَفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآِبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءِآِبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءِآَثَرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، إلا أن تقرير ذلك جاء في موضع الذم والتفريع، فينفي هبوط الإنسان عن عرش كرامته الإنسانية وهبوطه إلى مستوى القطعان من الماشية: ﴿أُولَٰئِكَ ءِآِبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ونراه يهيب بالناس أن يميزوا بين الطيب والخبث: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧١﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

ويرسم القرآن الحكيم طريق تحرر العقول من الأسر الاجتماعي القاهر بالدعوة إلى التفكير الفردي المهادئ المتحرر من كل القيود إلا قيد البدهة والمنطق السليم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ [سبا: ٤٦].

٦- وأخيراً ترى المذهب التعليمي سارياً في القرآن كله مع التوجه المستمر إلى الآيات الواضحة، بالإضافة إلى إرسال الرسل: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، هكذا يلتقي في محيط القرآن ما تشعب عند العلماء، وإزاء هذا كله لا يسع الباحث المنصف من الإقرار بأن القرآن ليس صورة لنفسية ولا مرآة لعقلية شعب ولا سجلاً لتاريخ عصر، وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح مهما تباعدت الأقطار والعصور أو تعددت الأجناس واللغات والألوان، إذ سيجد فيه كل طالب للحق سبيلاً مهما يهديه إلى

الله على بصيرة وبينة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧] (١)

إن مثل هذه الدراسة المقارنة التي تفرد بها الدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خير الجزاء - لدليل جديد تفرد بإبرازه بعد دراسته العميقة المقارنة، نقول: إنه دليل جديد يضاف إلى غيره من الأدلة على إعجاز القرآن، وإنه كلام الله ﷻ

(١) ينظر كتاب «الدين» للدكتور محمد عبد الله دراز، مصدر سابق.

مدخل الدراسة

أولاً: من معالم العصر

(أ) العودة إلى الدين بعد انحسار الأيدلوجيات.

(ب) بحث آثار التغريب في دراسة الإسلام طبقاً للاتجاه العلماني والمذهب الوضعي.

ثانياً: حملات تشويه الإسلام باقلام المستشرقين وأبواق أجهزة الإعلام الخربية

أولاً: من معالم العصر

(أ) عودة الدين بعد انحسار الأيديولوجيات

عندما أَرخ الدكتور حامد ربيع للدور الذي عاد الدين ليؤديه في العصر الحديث حدّد عام ١٨٩١م كبدية، إذ أعلن البابا الكاثوليكي ليون الثالث عشر عن «الأشياء الجديدة» ومؤدّاهما التعبير عن إرادة الكنيسة في التدخل في الأحداث وتأدية وظيفتها التاريخية بأساليب جديدة، وإعلان رأيها ببيان وثقة في مشاكل المجتمع، وبعدها بعدة أعوام برزت مفاهيم الصهيونية السياسية وهي تعبير عن اليهودية غلّفت نفسها بمنطق لغة السياسة وأساليب الوصول إلى الحكم، مع إضفاء الطابع الديني على الوجود السياسي الذي ميّز الدولة العبرية^(١).

يقول د. حامد ربيع: الكنيسة تعلن صراحة عن أنها تؤمن بأن عليها وظيفة سياسية لا بد وأن تؤديها من خلال منطلقات الصراع اليومي بل والجسدي، الحاخام اليهودي يعلن أن وظيفته أساساً وظيفة سياسية بل وإن منطلق تلك الوظيفة هو القيادة الجماهيرية. الجيوش العصرية تعرف أيضاً رجال الكهنوت، مسيحيين كانوا أم يهوداً، الذين يرافقون قواتهم دفاعاً عن مبادئهم القومية ودون أن يعني ذلك سوى تأكيد للارتباط بين الدين والسلطة^(٢).

أما الشعار الذي رفعه العلمانيون لإبعاد الدين عن النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية -بمقولة: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله- فقد رفعته الثورة الفرنسية ولم يدم طويلاً أو يستقر تنفيذاً وعملاً، إذ بمتابعة تاريخ هذه الثورة اتضح أنها عندما قامت على

(١) باختصار من كتاب «سلوك المالك في تدبير الممالك» ج١ ص ٤١/٤٢ تأليف ابن أبي الربيع، وتحقيق

د/ حامد ربيع، دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

أما عن أدوات الكنيسة التي تباشر وظيفتها فهي:

١- الأحزاب الكاثوليكية ٢- النقابات الكاثوليكية

٣- الجمعيات الكاثوليكية ٤- الجامعات الكاثوليكية

وهي تملك استقلالاً حركياً مع اتفاقها مع الكنيسة في أهداف مشتركة ص ٤٢.

(٢) د. حامد ربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك ج١ ص ٤٥.

أساس شعار العلماني؛ أي تقييد نطاق الدلالة السياسية لكل ما له صلة بالمفاهيم والأوضاع الدينية، فإن مثل هذا التصور إنما يعبر عن وضع استثنائي وفترة مقيدة من حيث دلالتها عندما نتذكر حقيقة ما سبقها وما لحقها من أحداث.

ومن هذا الحيز الضيق الاستثنائي يسجل رد الفعل الخاطيء في منطقتنا العربية، فيقول مستطردًا: (الثورة الفرنسية أحدثت القطيعة التي لم تعرفها التقاليد العربية إلا فقط خلال القرن العشرين، وهي في حقيقتها رد فعل فاشل لفهم خاطيء لحقيقة العلاقة بين القيم الدينية والقيم السياسية)^(١).

ويذكر الأستاذ الدكتور حامد ربيع في دراسته السياسية الموسوعية أن الدين كأحد متغيرات الوجود السياسي يفرض علينا ثلاث ملاحظات:

أولًا: ما يسمى بنهاية أو فشل الأيديولوجية السياسية كما أعلن ذلك علماء التحليل السياسي، فالديمقراطية لم تستطع أن تؤصل إطارها الفكري في مذهب متكامل، والنازية أثبتت الفشل الكلي والشامل، والنقابية: لم يقدر لها بعد التطبيق، والماركسية والشيوعية اختلطت كل منهما بالأخرى وانتهت بدورها بدرجة أو بأخرى بأن تعلن عن إفلاسها، وبصفة خاصة في المجتمعات المتخلفة والجديدة التي تمثل أكثر من ثلثي العالم.

ثانيًا: إزاء فشل الأيديولوجيات القائمة ما كان يستطيع الفرد إلا أن يتجه إلى «الأديان».

ثالثًا: باستعراض دور الدين على خريطة العالم المعاصر يتبين أن الفاتيكان يمثل اليوم إحدى القوى الضاغطة الدولية التي تكاد تسيطر على جميع مسارات التعامل في النطاق الدولي، فالصهيونية في حقيقة الأمر لا تجد قوة حقيقية تساندها سوى النفوذ الكهنوتي والتي تتعاطف معها قوى الكنيسة في جميع أجزاء العالم.

وعند البحث عن دور «الإسلام» يستند الدكتور حامد ربيع إلى التقرير المشهور لمعهد هوفر الأمريكي والمتعلق بتخطيط السياسة العالمية ابتداءً من نهاية القرن العشرين،

(١) سلوك المالك في تدبير الممالك ج ١ ص ٣٩.

هذا التقرير يحدثنا عن تطور معين في المجتمع الأمريكي نحو تضخم العنصر الأسود المسلم وزيادة قوته في نطاق القيادات، ويقابل ذلك تطور مماثل في المجتمع الروسي، بشكل أقوى^(١).

ثم توالى البحوث والدراسات حول هذه التقلبات المفاجئة المثيرة في أحشاء الغرب الديني والسياسي.

ففرى كارين أرمسترونج - أستاذ الأديان المقارنة بجامعة أكسفورد - تقرر أن الدين أصبح من جديد قوة يُعمل لها حساب، وانتشرت صحوة دينية واسعة لم تكن تدر بخلد الكثيرين في الخمسينات والستينات، إذ كان العلمانيون يفترضون أن الدين خرافة تجاوزها الإنسان المتحضر العقلاني، وأنه على أحسن الفروض مجرد نشاط فردي عاجز عن التأثير في الأحداث العالمية.

ولكن ثبت الآن كذب تلك النبوءة، ففي الاتحاد السوفيتي عاد الرجال والنساء إلى المطالبة بحقوقهم في ممارسة شعائرهم الدينية، وأصبح الناس في الغرب يظهرون وعياً جديداً بالحياة الروحية^(٢)، ثم تمضي في وصف التغيرات الجديدة في الحياة الدينية بأنها أشبه بالثورة، فتقول: (فربما هجرنا إلى الأبد أسلوب القديم إلى ديننا وثقافتنا أو أديان الآخرين وثقافتهم، ولقد شبه بعضهم التأثير المرجح لذلك بالثورة التي أحدثها العلم في نظرة الرجال والنساء إلى الدنيا على امتداد العالم بأسره)^(٣).

(١) الدكتور حامد ربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك، لشهاب الدين أبي ربيع، تحقيق ودراسة، مطابع دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، تنظر تعليقاته المستفيضة بالجزء الأول ص ١٨٣ و ١٨٤ واقتراحاته للإعداد للمد الإسلامي المنتظر.

(٢) محمد ﷺ ص ١٥. ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني. ط. سطور سنة ١٩٩٨م.

(٣) نفسه ص ١٧.

(ب) بحث آثار التخريب في دراسة الإسلام طبقاً للاتجاه العلماني والمذهب الوضعي

موقفه الاتجاه العلماني من الدين

يُعرف أستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان -يرحمه الله- الاتجاه العلماني بأنه الاتجاه الذي: يستبعد الدين من مجال التربية والتعليم وشئون السياسة والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك من الأمور العامة...^(١)

وبعد بيان نشأته في أوروبا بعد الثورة الفرنسية، للأسباب التي أشرنا إليها يعود فيوضح أن الشريعة في الإسلام منزلة (لحسن تسيير شئون الدنيا في ظل أصول وقواعد إسلامية بحتة... فقد كفل الإسلام للمسلمين تغطية أمور معاشهم الدنيوية والأخروية عن طريق الشريعة المنزلة من عند الله، ولهذا فإن روح الإسلام وطابعه إنما يتطلبان أن نرسخ دعائم هذا المبدأ القائل بأن الإسلام دين ودولة... فلا علمانية في الإسلام ولا تربية حقة بدون الإسلام.. ولا علم ولا سياسة بدون الدين)^(٢).

وبالنظر لعلاقة العلمانية بالإسلام، فإن أقل ما توصف به أنها نظرة قاصرة، ناشئة عن تقليد الثقافة الغربية، وإخضاع الثقافة الإسلامية -مع خصوصيتها المميزة، عقائدياً وتاريخياً- للملابسات التي مرَّ بها تاريخ أوروبا الديني والسياسي.

أضف إلى ذلك أن المنحازين للعلمانية في عالمنا الإسلامي قد تجمدوا عند مرحلة ما قبل العصر الحديث، في أوروبا وأمريكا، إذ تحطت العلمانية هنالك الحواجز، ونضاءت تحت ضربات النفوذ الديني المتنامي لكل من رجال الكنيسة بمذاهبها كلها، من روسيا الأرثوذكسية شرقاً، إلى أوروبا بغاليتها الكاثوليكية وأمريكا بغاليتها البروتستانتية غرباً،

(١) كتاب «أسلمة المعرفة: العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية» د. محمد علي أبو ريان دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٧م ص ٨٤، وبلغت نظرنا إلى أن البعثات التي أرسلتها فرنسا علمانية سميت باسم البعثة العلمانية الفرنسية، وهو الاسم الذي تحمله مدارس الليسيه اليوم في مصر Mission Laique francaise ويقصد من وراءه Laique أي: بمعزل عن الدين.

(٢) نفسه ص ٨٦.

تكتافًا مع حاخامات اليهود أيضًا كما أشرنا سلفًا^(١).

الخلط بين العلمانية والعلم

والفكرة الأخيرة التي يجب مناقشتها عند الحديث عن العلمانية، هي صلة الإسلام بالعلم، لأن فكرة العلمانية تُطرح علينا بشكل ملحّ، بمفهوم أنها تعني الاهتمام بالعلم كطريق للتقدم الحضاري سواء الطبيعي أو الإنساني (ويقع الكثيرون ممن يطلق عليهم عادة اسم المثقفين في هذا الخلط، فما بالنا بالأفراد العاديين؟! وقد سارع «العلمانيون» إلى استغلال الالتباس ليوحوا بأن دعوتهم هي صنو العلم والمعرفة، وغير ذلك من القيم الإيجابية، وأن من يعارضهم هم دعاة الجهل والتخلف»^(٢).

وفات هؤلاء أن العلمانية تعبر عن واقع تاريخي ومرحلة مرّت بها الحياة الدينية والثقافية الأوروبية على أثر الأزمات التي أحدثها رجال الكنيسة في وجه النظريات العلمية المنبثقة من الملاحظة والتجربة، والتي كانت مخالفة لتفسيرات الكتاب المقدس، إذ يصف لنا توينبي ذلك بالتفصيل فيقول: (فما برح العلم خلال مائتي عام ينتزع من الكنيسة مجالاتها، مجالاً بعد آخر، من ذلك أن العلم قد قبض على ناصية علوم: الفلك، أصل الكون، التاريخ، الأحياء، الطبيعة، النفس.. وأعاد العلم صياغتها على قواعد لا تتماشى مع التعاليم الدينية المقررة)^(٣).

ولم تظهر قط مثل هذه الأزمة في تاريخ الإسلام الحضاري حيث استوعب الإسلام النظريات العلمية التي اكتشفها العلماء من واقع الملاحظات والتجارب، وسيظل الأمر

(١) وكان بابا الفاتيكان قد صرح بمواجهة العلمانية حيث قال: (أوروبا بحاجة للقيام بجهود جديدة لمواجهة تحدى العلمانية ليصبح المسيحي الحقيقي متعلقاً بدينه وتعاليمه وليس بأية أفكار أخرى من شأنها عزل الدين عن الدولة، واقتصار مداه على دور العبادة فقط) مجلة البيان، رجب ١٤٢٤هـ، سبتمبر ٢٠٠٣م ص ٩٦.

(٢) د. محمد يحيى، في الرد على العلمانيين ص ١٢ «ورقة ثقافية» الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٣) توينبي: مختصر دراسة التاريخ ج ٤ ص ١٧٨ / ١٧٩.

كذلك، قال تعالى: ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن من يقرأ كتاب الله ﷺ يقف أمام العديد من الآيات الكونية، وأمام الآيات القرآنية التي تصف «الآيات» في الطبيعة، تقول كارين أرمسترونج أستاذ الأديان المقارنة بجامعة أكسفورد: ويحث القرآن المسلمين على بذل الجهد في مخيلتهم وفي أذهانهم على النظر إلى العالم من حولهم نظرة رمزية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَوَاتُرِ فِيهَا مِنَ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وجاء ضمن تعليقها على موجبات هذه الآية، وغيرها في القرآن الكريم: ... إن القرآن لا يطلب من المسلمين أن يتخلوا عن العقل، فالآيات موجهة إلى «قوم يعقلون» و«لقوم يعلمون» والقرآن يحث المسلمين على أن «ينظروا» إلى الآيات في العالم الطبيعي وأن يتدبروها بعناية، وقد ساعد هذا الاتجاه على تنمية عادة التأمل والاستطلاع الذكي التي مكنت المسلمين من إرساء وتصوير تراث رائع في العلوم الطبيعية والرياضيات، ولم ينشأ في يوم من الأيام أي صراع بين البحث العلمي العقلاني وبين الدين في التراث الإسلامي^(١).

ولم يُثر موضوع الخصومة بين الدين والعلم إذن لدى المسلمين قبل انتقال عدوى الفلسفة الأوروبية إليهم، فكان العلم عند المسلمين بمعناه العام ثمرة العقل والوحي، واقتصر التمييز فقط بينهما حول أهمية العلوم بحسب ثمرتها ووثاقه دلالتها، كالمقارنة مثلاً بين علوم الدين وعلم الطب، فإن ثمرة علوم الدين الوصول إلى الحياة الأبدية، وثمره علم الطب الوصول إلى الحياة الدنيوية، أو أن علوم الدين أصولها مأخوذة عن الوحي، والطب أكثر أصوله من التجارب. كذلك وضعت العلوم غير المتصلة بالعقيدة والفقهاء والأصول موضع المقارنة بينها وبين غيرها من العلوم؛ كالطب مع الحساب مثلاً، فللطب

(١) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» ص ١٥٣/١٥٤، ترجمة د. فاطمة نصر و د. محمد عناني، ط ٢ سطور

شرف الثمرة إذ هو يفيد صحة البدن، وللحساب وثاقفة دلالة إذ كان العلم به ضروريًا غير مفتقر إلى التجربة، وهكذا اتسع ميدان المعرفة أمامهم ولم يتعسفوا في الفصل بين الدين والعلم كما فعل أتباع العلمانية، وكانت همة علماء الإسلام منصرفة إبان عصور حضارتهم في طلب أنواع العلوم والإقبال عليها بجدية وحرص ونهم، أيًا كانت طبيعتها، فترى الراغب الأصفهاني يقرر أنه ينبغي ألا نترك شيئًا من العلوم أمكننا النظر فيه واتسع العمر له إلا ونسعى لطلبه، فإن ساعدنا القدر على التزود منه فيها ونعمت، وإلا عادينا به بسبب جهلنا به، فالتاس أعداء ما جهلوا، ويروى عن بعض الفضلاء أنه رُئي بعدما طَعِنَ في السن وهو يتعلم أشكال الهندسة، فسئل فأجاب: (وجدته علمًا نافعًا، فكرهت أن أكون لجهلي به معاديًا له) ثم ينصح كل عاقل ألا ينبغي الاستهانة بشيء من العلوم، بل يجعل لكلِّ حظه الذي يستحقه ومنزله الذي يستوجبه، ويشكر من هداه لفهمه وصار سببًا لعلمه^(١).

هذه هي حقيقة حضارتنا، تشكل فيها العلوم بأنواعها باقية من الزهور اليانعة، ولا يُسمح بقطع أغصانها والفصل بين فروعها.

ولكن لما انتقلت عدوى الصراع بين الدين والعلم إلى العالم الإسلامي - كأحد نتائج الغزو الثقافي، وحاولت إبعاد العقيدة الدينية والتخلي عنها بحجة إحلال العلم وحده بديلًا لها - اضطر علماء الإسلام للتصدي لهذه الدعوى فأثبتوا أن العلم في محيط الحقل التجريبي لا يُغني عن العقيدة الدينية شيئًا، إذ نجح العلم الحديث حقًا في الإبانة عن كثير من الأشياء التي لم تكن على معرفة بها، ولكن الدين جواب لأسئلة أخرى، فمهما حقق لنا العلم من وسائل الراحة، وقدم لنا من مخترعات تيسر سبل الحياة وتذلل العقبات أمام الجهد الإنساني، فلا يمكن إهمال الأسئلة الدائرة بخلدنا مثل: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ ومتى؟ وكيف؟ أو مشاكل الحياة والموت، والخير والشر إلى غير ذلك مما تشكل استفسارات عجز العلم - وسيظل - عاجزًا عن تقديم الإجابة عنها، بل إنه تحلى عنها

(١) الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١١١ / ١١٣.

طواعية لأنها خارجة عن نطاق بحثه^(١).

المذهب الوضعي

يُنسب هذا المذهب إلى أوجست كونت الذي افترض ما يسمى بقانون الحالات الثلاث التي مرّت بها البشرية، فبدأت بمرحلة التفكير اللاهوتي أو الخرافي، ثم مرحلة الميتافيزيقا المجردة وأخيرًا الحالة العلمية أو الوضعية^(٢).

وقد تعرضت فلسفة كونت الوضعية لكثير من سهام النقد والمعارضة، استهدفت قانون الأطوار الثلاثة الذي قسّم به تاريخ الإنسانية في تعسف واضح، إذ ثبت أن الصناعات اخترعت في عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخي، كما وجدت مشاهدات فلكية وأنواع من العلوم، كهندسة إقليدس وطب أبقراط وطبيعات أرسطو في الدور الذي عدّه فلسفيًا، فإذا انتقلنا إلى الطور الوضعي وهو العصر الحديث فإننا نعثر على كثير من دعاة الدين والأخلاق والتأمل الميتافيزيقي بخلاف ما كان يظن كونت^(٣).

كذلك قام الدكتور دراز بقلب قانون كونت المفترض رأسًا على عقب، إذ يقول: (إن النظرة الواقعية تقع في البداية وتمثل مرحلة الطفولة النفسية؛ لأن مبعثها الحاجة العاجلة وصورة الحياة اليومية، وإنها وظيفة الحس لا العقل، ثم تنشق بعدها نظرة التعليل بالمعاني العامة، وهي مرحلة النضج والكمال، وتأتي بعد المرحلة الأولى.

أما النظرة الروحية أو الدينية التي تخيل كونت أنها في أول المراحل فهي في الواقع تأتي في آخرها حيث لا تولد في النفس إلا بعد اتساع أفقها، حيث تتجاوز ظاهر الكون إلى ما وراءه.

وهكذا ينقلب ترتيب كونت الخيالي رأسًا على عقب؛ لأن الأوضاع الطبيعية

(١) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى ص ٣١ ترجمة د. عبد الصبور شاهين.

(٢) ليفي برييل «فلسفة أوجست كونت» ص ٣١ ترجمة د. محمود قاسم، و د. السيد بدوي، مكتبة الإنجلو، بدون تاريخ.

(٣) د. توفيق الطويل.. أسس الفلسفة ص ١٨٠ / ١٨١ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٥ م.

للحاجات النفسية تترتب - لا كما تصوره في مخيلته - ولكن كالأتي: حاجة الحس فحاجة العقل فحاجة الروح).

ويستطرد الدكتور دراز ليقوض دعائم الافتراض الكونتي بقوله: (على أن الذي يعيننا هنا ليس هو الوضع التقويمي لكل واحدة من هذه النزعات، وإنما هو دخولها جميعاً في كيان النفس الإنسانية، فكما أننا لا نجد أمانة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية، كذلك لا نرى أمانة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان)^(١).

وصدق تنبؤ الشيخ دراز، إذ تشير الدراسات الأخيرة المعاصرة أن الدين بعامه يؤدي دوره في تغيير المجتمعات الإنسانية وقادة حركتها، ويتميز الإسلام بصفة خاصة بدوره الذي أثار العلماء والفلاسفة في الشرق والغرب لفاعليته وإيجابيته.

يقول الدكتور حامد ربيع: (يمكن القول بصفة عامة: إن الإطار الدولي المعاصر يملك مجموعة من العناصر جميعاً تدفع لخلق مناخ معين يسمح للإسلام بالإبتناع الحقيقي، بحيث يمكن القول: بأن هذا الإطار هو تربة صالحة لاستقبال الإسلام ولتحقيق عملية إخصاب لم يُقدَّر للإنسانية في تاريخها الحديث من قبل أن تعاصر مثيلاً لها)^(٢).

كذلك لم يدر بخلد كونت وهو يتخيل قانونه أن الحضارة الإسلامية لها تاريخها ومقوماتها المنبثقة من العقيدة، وأن ذروتها تحققت أيام السلف الصالح وفي الأزمنة التي ارتفع فيها المسلمون إلى مستوى هذا السلف، فهل يحق لنا إذن أن نصف الآخذين بقانونه في مجال الدراسات الإسلامية بأنهم مقلدون بل إنهم في ضوء حقائق العصر الذي نعيشه رجعون؟!.

لقد كانت فلسفة كونت موقوتة بظهور النزاع في الغرب حول فصل الدين عن مجالات النشاط الإنساني ومقوماته، في ميادين العلم والأخلاق والاقتصاد والسياسة

(١) د. محمد عبد الله دراز «الدين» ص ٨٩، دار القلم بالكويت ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(٢) حامد ربيع «الإسلام والقوى الدولية» ص ٣٣، ط. دار الموقف العربي - القاهرة ١٩٨١م.

وغيرها، بسبب ظروف وأوضاع خاصة، منها سلطان رجال الكنيسة وتدخلهم للموقف في وجه الاكتشافات العلمية المخالفة لتفسيرات الكتاب المقدس، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى بأوجست كونت فيلسوف الاجتماع إلى القول بأن المسيحية انقضت زمنها ولا بد من الاستعاضة عنها بديانة أخرى، وظلت فكرته مصاحبة للجمهورية الفرنسية الثالثة التي فصلت بين الدين والدولة، ومن ثم فقد اعتقد أنه تم تحلل أجزاء الديانات من الوجهة العقلية، أي إنها لا تصمد أمام النظر العقلي.

ولكن مرد الخطأ هنا أنه إذا كانت هذه الظاهرة صادقة فيما يتعلق بالديانة المسيحية بأوروبا، فهي ليست كذلك بحال من الأحوال فيما يتعلق بتاريخ التفكير الإسلامي^(١)، فمن الواضح لكل دارس محامد للتاريخ، أن المسلمين أقاموا صرح حضارتهم في دولتهم العظيمة التي امتدت - على عَجَل - من الأندلس إلى قلب القارة الآسيوية مارة بشمال أفريقيا كلها، ثم بناءً على فهمهم الصحيح للإسلام واتباعهم لمنهج أسلافهم فهمًا وتطبيقًا^(٢)، فإن الإسلام ليس مظاهر كهنوتية أو حياة منعزلة عن الواقع، بل هو نظام كامل للحياة يوجه الإنسان لكي يحقق كماله التي استحق بها خلافة الله تعالى في الأرض، أي يحصل لنفسه وللجماعة الإنسانية أيضًا أسمى درجة من الكمال الإنساني في الروح والخلق والمادة والعقل، وينظم علاقته بربه ﷻ وعلاقته بأخيه الإنسان في كل مظاهر الحياة^(٣).

وأخيرًا، يأتي القول الفصل والقرار النهائي من أوجست كونت نفسه حيث أصابته أزمة نفسية في نهاية عمره.

يصفه الدكتور رشدي فكار في هذه المرحلة بقوله: (وبدأ يقلب يمينًا وشمالًا وكان

(١) د. محمود قاسم، كتاب مبادئ علم الاجتماع لروجه باستيد ص ٣٣٨، ط. ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م.

(٢) جوستاف لوبون، سر تطور الأمم ص ٩٤، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة المعارف بمصر

١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م.

(٣) د. محمود عبد الله، موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكري ص ٣٠ «كتاب الثقافة الإسلامية

والحياة المعاصرة».

رائعاً أن يرشح في النهاية دين الإسلام كدين وضعي للحالة الوضعية، وقال: إنه لا يمكن لدين أن يتمشى مع الحالة الوضعية إلا الإسلام؛ لأنه دين عارٍ من الخماقات، يتميز ببساطته وعقلنيته وبقدرته على إشباع رغبة البحث عن الإله^(١).

ويضيف إلى ذلك أيضًا أن كونت يرى أنه إن كان هناك دين يتمشى مع الحالة العلمية الموضوعية فهو الإسلام، فحينما يسود العلم، فسوف يبحث عن الإسلام وهاهي العقول القادرة الآن في الثمانينات تتساءل حول الإسلام، وسوف يتبلور هذا الأمر بصورة أكبر مع بداية القرن الواحد والعشرين مع شدة تأزم الإنسان^(٢).

(١) د. رشدي فكار في حوار متواصل حول مشاكل العصر، ص ٥٩، خميس البكري، مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
(٢) نفسه ص ٤٥.

ثانياً: حملات تشويه الإسلام بأقلام المستشرقين

وأبواق أجهزة الإعلام الغربية

حملات تشويه الإسلام

إن ظاهرة العداوة للإسلام بخاصة من خارج عالمه لا تخفى على أحد، وهو الدين الوحيد دون غيره من الأديان الموضوع في قفص الاتهام، الموصوف بأسوأ الصفات من أناس أعماهم الحقد، ووضعوا على أعينهم غشاوة فأعمت أبصارهم.

وتجري عملية تشويه الإسلام على قدم وساق في أجهزة الإعلام في الغرب استمرازا للعداء المتوارث منذ الحروب الصليبية، تقول كارين أرمسترونج: (وفي يومنا هذا تلهو الكتب وبرامج التلفزيون بإبراز عناوين مثل: حنق الإسلام، وسيف الإسلام، والحنق المقدس، والرعب المقدس. لكن هذا تشويه للحقيقة)^(١).

ويأتي هذا التعليق في موضعه تماماً بعد إبداء دهشتها من تلقيب الإسلام في الغرب بدين السيف منذ العصور الوسطى (رغم أن المسيحيين كانوا يشنون حروبهم المقدسة الخاصة في الشرق الأوسط في ذلك الوقت)^(٢).

وقد وقف المدافعون عن الإسلام لإزالة الشبهات ورد كيد الكائدين إلى نحورهم: فمنهم الأستاذ العقاد الذي كتب منذ الستينات في القرن الماضي مبدياً استيائه من تحامل كُتَّاب الغرب -المستشرقين وغيرهم- على الإسلام، وكان «علم مقارنة الأديان» أصبح عندهم هو إفراز لنفوس حاقدة عجزت عن اتخاذ الموضوعية منهجاً للبحث والدراسة.

وللإنصاف يصف بعض الباحثين في الغرب من طلاب العقيدة الذين داخلهم الشك في عقائدهم التي ولدوا عليها وغلب عليهم الإيمان بأن الشرق هو مصدر الأديان، ومنهم من وقعت الجفوة بينه وبين رؤساء دينه فاصطنعت أقواله عن الإسلام وتاريخ الأمم الإسلامية بحماسة تشبه حماسة المؤمن بدينه وإن لم يبلغ به الأمر مبلغ التدين.

(١) محمد ﷺ ص ٢٤٧.

(٢) نفسه.

بالعقائد الإسلامية^(١).

فيما عداهم، يندر الإخلاص في مؤلفات القوم، فمنهم «ساسة التبشير» الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها إلى جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصين والجهلاء في البلاد الأوروبية والأمريكية^(٢).

ومنهم المحترفون المهرة في فنون الدعاية وتمويه الواقع وتليبس الحق بالباطل (ولا نبالغ في التقدير إذا قلنا: إن تسعة أعشار المبشرين المحترفين في العصر الحاضر من هذا القبيل)^(٣).

معللاً ذلك بقول الدكتور جونسون: (إنه الديانة الوحيدة التي تعد على الدوام تحدياً أو مناخزة لجهود التبشير والمبشرين) وتتخطى رؤية العقاد عصره عندما يتنبأ منذ نحو أربعين سنة بما نعاني منه الآن بوصف الإسلام بالخطر عليهم، معللاً ذلك بدعاية كل من الطائفتين: طائفة الصهيونية وطائفة الاستعمار^(٤).

ويسجل طابع التفرقة العنصرية لحضارة أوربا بقوله: (فقد لوحظ أن مستشفيات الصليب الأحمر كانت تهمل الجرحى المسلمين أثناء حملة فلسطين وتميز عليهم الجرحى اليهود، ويحدث هذا في المستشفى الواحد بغير مبالاة ولا محاولة الاعتذار عن هذا التمييز)^(٥).

ثم جاء الدكتور عبد الرحمن بدوي في عام ١٩٩٣م ليسجل نفس الظاهرة التي لوحظ أنها استفحلت واتسع نطاقها، فلم يفلت القرآن والرسول ﷺ والشريعة والتاريخ والحضارة من الهجوم العدائي السافر المتبجح.

(١) العقاد «ما يقال عن الإسلام» صفحات ٨، ٩، ٥٢، ١٢. ط دار الهلال سنة ١٩٧٠م.

(٢) العقاد نفسه.

(٣) العقاد نفسه.

(٤) العقاد نفسه.

(٥) العقاد نفسه ص ٦٤.

لقد استقرأ الدكتور عبد الرحمن بدوي من مؤلفات كُتَّاب الغرب مواقفهم المعادية للإسلام وفق منهج وثنائقي موضوعي، وكان هدفه (كشف القناع عن العلماء المزعومين الذي قدموا الضلال والخداع لشعب أوروبا ولغيره من الشعوب الأخرى)^(١).

ويقول في كتابه: «دفاع عن محمد ﷺ ضد منتقضي قدره»: في الواقع إن دعوى الموضوعية عندهم تبدو في أبهى صورها جزئية، ومنهجهم الذي يسمونه نقدًا علميًا يتكشف عن سراب خادع.

وقد أصدر هذا الحكم بعد اطلاعه على الأعمال التي كُتبت لأهداف دفاعية خاصة بإثبات عقائد النصارى، أو أعمال من سبَّاهم بالموتورين.

ويقول في كتابه «دفاع عن القرآن ضد منتقديه»: فإنه بداية من منتصف القرن التاسع عشر يبذل هؤلاء المستشرقون كل ما في وسعهم ليبدوا موضوعيين في كتاباتهم وفي جعل كتاباتهم أكثر دلالة وأكثر جدية وموضوعية، وأكثر تدقيقًا في المنهج اللغوي، لكن دون فائدة؛ ذلك لأن الدوافع الداخلية التي تضطرم بالحقد في قلوبهم ضد الإسلام وكُتَّاب الإسلام المقدس ونبي الإسلام ﷺ ظلت كما هي بل زادت تأججًا.

ويأتي تسجيل هذا الواقع المؤسف أيضًا من عالمة مقارنة الأديان أرمسترونج، فنصف أفكار الغربيين بأنها كانت وما زالت فجَّة ورافضة، وتبدي دهشتها من تناقضهم بين الالتزام المعلن بالتسامح والتراحم وبين الواقع، وتعلل ذلك بضعف أساسي للحضارة الغربية وللمسيحية في العالم الحديث يتمثل في (عدم القدرة على الاعتراف بأنهم يقتسمون الكوكب، ليس مع من هم أدنى منهم، بل مع أندادهم)^(٢).

ولكن رُبَّ ضارة نافعة، إذ يرى الدكتور جمال حمدان أن حملات التشويه والإساءة للإسلام دال على الاعتراف بأن العالم الإسلامي «ليس جثة هامدة أو كئيبًا مهملاً» أملًا ارتفاعه إلى مستوى التحدي واستثارته ليثبت ذاته ونديته (ويفرض احترامه والاحترام

(١) ص ٨ الدفاع عن القرآن ضد منتقديه.

(٢) محمد ﷺ ص ٣٩٣، سبق بيانه.

المتبادل والمساواة المتبادلة؛ ليبدأ سلام الشجعان وصلح الفرسان، وربما تكون هذه العداوة هي مفجر الفرصة والنجاح»^(١).

(١) د. جمال حمدان: «صفحات من أوراقه الخاصة» ص ١١٦، ط دار الغد العربي سنة ١٩٩٦م إعداد وتقديم د. عبد الحميد صالح حمدان، ويقول ص ١٣٩: (كان الغرب يتحدث عن الخطر الأحمر أي الشيوعية فابتكر الآن تعبير «الخطر الأخضر» إشارة إلى خطر الإسلام، ويتوقع د. مصطفى محمود أن السنين القادمة هي ملحمة الإسلام في ظهوره الثاني، وما نرى الآن من أحداث هي بشائر ولوائح وعلامات «سقوط اليسار ص ١٠٨» دار المعارف سنة ١٩٩١م.

الفصل الأول

منهجنا في البحث

تبين لنا أن الساعين لدارسة الإسلام من منظور غربي علماني، أو بمنطق الفلسفة الوضعية، سيؤدي إلى خلط المفاهيم، ومن ثم سيتعذر التقييم الحق للإسلام ومعرفته المعرفة الحقة كدين خاتم، دعامته الوحي الإلهي المحفوظ بالقرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، ومحافظته على الحضارة الإسلامية طيلة نحو أربعة عشر قرناً من الزمان.

كما تبين أيضاً أن حضارة العصر كابدت الأهوال عندما ألفت بالدين وراء ظهرها، واستبدلته إماً بالروحانيات العلمانية - كما تسميها أرمسترونج - أو بالأيديولوجيات وخاصة الماركسية، ففي فشلها الدليل الساطع على قصور العقل البشري عن وضع الأنظمة للحياة الإنسانية.

وبتحليل أكثر بيانا لم تفلح اختراعات العلمانية في الاستغناء عن الدين، فقد أخذ الأفراد في الغرب - كما تذكر أرمسترونج - يطورون روحانية علمانية ويسعون - عن طريق الأدب والفن أو الممارسات الجنسية والتحليل النفسي والمخدرات أو حتى الرياضة - وراء حسٍّ بمعنى متسامٍ يُضفي على حياتهم القيمة ويصلهم بتيارات أعمق للوجود كان من عادة الديانات السماوية أن تكشفها^(١).

ولكن خابت الآمال في شغل الفراغ الذي كان يشغله الدين، بل كانت النتائج وخيمة؛ لأن التعليم العقلاني لم يقض على البربرية، إذ لقي سبعون مليون شخص في أوروبا والاتحاد السوفيتي حتفهم فيما بين عامي ١٩١٤ و ١٩٤٥م، كما فُجرت أول القنابل الذرية في هيروشيما وناجازاكي باليابان، فاتضح القوة المرعبة للعلم (والجرثومة العدمية التي تتواجد في قلب الحضارة الحديثة)^(٢).

(١) معارك في سبيل الإله «الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام»، ص ٣١٦-٣١٨، كارين أرمسترونج ترجمة د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني. ط. كتاب سطور ٢٠٠٠م.

(٢) معارك في سبيل الإله «الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام»، ص ٣١٦-٣١٨، كارين أرمسترونج، ترجمة د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني. ط. كتاب سطور ٢٠٠٠م.

ونخلص من هذا أن بني آدم في حاجة إلى مصدر آخر للمعرفة، ونظم الحياة خارج نطاق العقل الإنساني وأسمى منه، وهذا ما نعنيه بالوحي الذي أتى به الأنبياء والرسل عليهم السلام^(١).

وربما نحتاج إلى وقفة لتمييز بين «الفلسفة» أيًا كانت مذاهبها كتحتاج إنساني كان ثمرة الفكر اليوناني القديم والأوروبي الحديث، وبين «الاستدلال العقلي» الذي يعتمد على البديهيات والأوليات المنطقية، ويستخدمه المسلم المعاصر متحرراً من آصار الفكر الفلسفي الذي فرض علينا فرضاً عقب الاستعمار الأوروبي.

أجل، فقد فرضت أوروبا المنتصرة أرسطو «أستاذًا للفكر الإنساني» إلى يومنا هذا دون أن يتنبه أحد إلى أن تعاليم «الأستاذ» أو «المعلم الأول» لم تنجب إلاً جنراً فاتحاً مستعمراً وغازياً وإمبراطورية قامت على أنقاض الاستقلال وحرية وإرادة الشعوب.. إلاً أن هذا العمى لم يكن عن غفلة وإنما لكي يُتَّبَع وهو أيضاً الذي صاغ جوهر الفكر الغربي ومفاهيم الحضارة الغربية عن الخير والشر والإنسان وحقوق الإنسان.. فالحرية والتحرر والعدل.. إلخ، لا تتعارض في المفهوم الغربي منذ أرسطو إلى اليوم مع غزو واسترقاق أو حتى إبادة البرابرة «أي شعوب الشرق» ومن يومها والحضارة الغربية تؤمن بأن رسالتها الإنسانية ونشر الحضارة يتطلب إدخال «المتخلفين» عنوة تحت سيطرة هذه الحضارة، فقد كان حلم الإسكندر كما يؤرخه الغربيون إلى اليوم، وعلى سبيل الفخر ومدح الإسكندر بأنه كان (أول زعيم عالمي يأمل أن يتوحد العالم يوماً تحت حكومة واحدة)^(٢).

فهل تحقق حلم الإسكندر فيما نعيشه الآن تحت مظلة «النظام العالمي الجديد»؟ أما

(١) يعرف اسبينوزا النبوة بقوله: (النبوة أو الوحي هي المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شيء ما) ص ١٢٣ ونحن لا نقره على آرائه الأخرى عن الأنبياء، ولكن يكفينا إقراره بأن الوحي معرفة يقينية، وبذلك يختلف عن «الظن» عند الفلاسفة، كتاب «رسالة في اللاهوت والسياسة» ترجمة وتقديم د. حسن حنفي، ومراجعة د. فؤاد زكريا، المطبعة الثقافية ١٩٧١م.

(٢) مقال بعنوان «المواجهة الأبدية بين الإسلام والغرب»، محمد جلال كشك مجلة «رسالة التوحيد» ص ١١ ربيع ثان ١٤٠٦ هـ القاهرة.

فلسفة أرسطو، فقد تركت أثرًا لا يُنكر في الفكر الديني هناك، لا سيما في الأب توما الأكويني ١٢٢٥ / ١٢٧٤م، وهو أعظم الفلاسفة المدرسين جميعًا، ففلسفته تُدرّس في جميع المعاهد التعليمية الكاثوليكية التي تعلّم الفلسفة... وهو في معظم الموضوعات يأخذ برأي أرسطو أخذًا أمينًا^(١).

كبل المسلمين لعدة أجيال، ومن ثم يصبح هدفنا الأول هو التحرر الحقيقي بالعودة إلى الذات، ومعرفة حقيقة أمتنا ورسالتها بناء على المعرفة الصحيحة لعقائدنا بالمقارنة بغيرها^(٢).

ولتحقيق هذا الهدف فأمامنا طريقان:

الأول: الخضوع لحقائق الوحي والعمل على ضوئه بدل الفكر الفلسفي بقصوره وضعفه وأهوائه الذي فُرض على مناهجنا التعليمية وأقحم على ثقافتنا أيام الهيمنة الاستعمارية.

الثاني: اتباع المنهج العلمي الصحيح لمقارنة الأديان الذي خطّه علماءنا، وسبقوا به غيرهم فاعتمدوا على حقائق الوحي الإلهي فحافظوا عليه وصانوه بأدق مناهج علمية عرفتها البشرية وميزوا بين الدين الحق وغيره، فإننا كما يجدد ابن حزم لا نصدق في ديننا بشيء أصلاً إلا ما جاء في القرآن وما صحّ بإسناد الثقات، ثقة عن ثقة، حتى يبلغ إلى

(١) رسل: تاريخ الفلسفة الغربية ج٢ ص ٢٣٤.

(٢) هذا، وقد عمّت البلوى فأصبح أغلب مثقفينا يدرسون الدين والتاريخ والحضارات وعلوم النفس والتربية والسياسة والاجتماع بمنهج الغرب، بل لم تسلم اللغة والأدب أيضًا، مما دفع بالدكتور عبد العزيز حمودة عند الحديث عن مفردات الحداثة الغربية إلى القول: (وإذا كنا نشد الأصالة فقد كان الأحرى بنا أن ننحت مصطلحنا الخاص بنا، التابع من واقعنا بكل مكوناته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ لأن الهوة بين الواقعين الغربي والعربي واسعة سحيقة، لا يكفي الادعاء الأجوف بإقامة جسور فوقها لأن ينسينا إدراك الاختلاف، وحينئذ ننسى ذلك الشعور بالاختلاف تقع في المحذور؛ لأننا نتناسى مجموعة من المحاذير التي تجمي مع هذا الإحساس بالاختلاف).

ص ٣٤ من كتابه «المرآة المحدثبة - من البنيوية إلى التفكيك» سلسلة كتاب «عالم المعرفة - الكويت»

رقم ٢٣٢ ذو الحجة سنة ١٤١٨هـ - أبريل سنة ١٩٩٨م.

رسول الله ﷺ فقط، وما عدا هذا فنحن نشهد أنه باطل^(١).

وأتى ابن الجوزي ٥٩٧هـ بعد ابن حزم ليؤكد ضرورة الاستناد إلى الأدلة في البحث عن الدين الحق، لا على مجرد العادات وتقليد الآباء، فبالدليل نميز في الشرائع بين ما يصح وما لا يصح، وإذا أثبتنا الإله فينبغي أن نعرف بالدليل ما يجوز عليه مما لا يجوز^(٢).

(١) الفصل ج١ ص ٢٢٤، مكتبة المنشي بغداد.

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ٢٤٩ تحقيق عبد القادر عطا، مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٧٩م. ومن المتفق عليه عند أمثال ابن حزم وابن الجوزي والعامري وابن تيمية وغيرهم أن الأدلة الشرعية كافية بذاتها في مخاطبة العقول، ولم يلجئوا إلى طلب العون من الفكر الفلسفي كما حدث في التاريخ الديني لأوروبا، فقد احتل الوحي الدرجة العليا عندهم مصدرًا ومنهجًا، يقول ابن تيمية: (... بل إن غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة قد جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه) موافقة صحيح المنقول ... ج١ ص ١٤.

العودة إلى العقائد الدينية من جديد

«بحث في الظاهرة وقضاياها»

قلنا: إن فشل الأيديولوجيات يعني أن الفكر البشري -الذي أثمر الماركسية والوطنية والديمقراطية والقومية وغيرها- عاجزٌ عن تحقيق الحياة المحققة للإنسان وسعادته، ولا سيما بعد أن أخذت هذه الأيديولوجيات أشكالاً جديدة في النصف الأخير من هذا القرن، كما يصفها الدكتور رشدي فكار.

وما دامت التجارب التي استغرقت عدة أجيال قد باءت بالفشل، فقد عادت البشرية إلى العقائد الدينية من جديد، وأصبحنا نعيش في ظل «اليقظة الدينية»، حيث تتطلع المجتمعات الإنسانية إلى ما هو خارج عن نطاق العقل والتجارب التي خضعت للأهواء والمصالح، ولم تعد تعبر عن قيم ومعنويات، ويذكر الدكتور رشدي فكار: (أن الأيديولوجيات أخذت تتجه أكثر فأكثر في الدولة المتقدمة إلى «المصلحية»، بمعنى أنه لم يعد لها هدف قيمى إنسانى بقدر ما هي مجرد تبرير لمصلحة أي نفع استهلاكي أو ريع إنتاجي» ويقول: (لنتدبر ونعمق النظر في المجتمعات الصناعية الكبرى تجري الانتخابات تلو الانتخابات وتنتصر شعارات على شعارات وحقائق المجتمع هي هي.. المحافظون والعمال في إنجلترا، الديمقراطيون والجمهوريون في الولايات المتحدة، وحتى في المجتمعات التي تزاول ما يسمى بالديمقراطية المباشرة في ظل النظم الموجهة نجد أيضاً أن الأيديولوجيات تبريرية مصلحية) وهكذا، إلى أن يوضح في النهاية أن القضية تحولت إلى مجرد شعارات، ويختتم عبارته بقوله: (ومستودعات الشعارات موجودة تخرج منها الشعار المناسب للوقت المناسب)^(١).

وإذا كان الدين هو الذي يتقدم في العصر الحاضر لكي ينقذ البشرية من أزماتها، فأى دين يحمل الرسالة الصحيحة المحققة لأهداف الإنسان في هذه الحياة وما بعدها؟
إننا نحتكم إلى العقل وأحكامه في إثبات الوحي والنبوة، وما يتصل بهما من بناء

(١) د. رشدي فكار: الشباب وحرية الاختيار ص ٩ «كتاب المختار» بدون تاريخ رقم (٤) سلسلة «نحو طلائع إسلامية واعية».

عقائدي وأخلاقي يرتقي بالإنسان إلى المكانة اللائقة به، ويضع له الأنظمة في مسالك حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الكفيلة بتحقيق الحياة الطيبة في هذه الدنيا.

ولنصل إلى نتائج في هذا الغرض؛ علينا أن ندرج في تقديم البراهين واضعين نصب أعيننا اجتياز المراحل الثلاث الآتية:

١ - نظرية المعرفة ووسائل الإدراك الإنساني

إذا كانت المعارف والعلوم الدنيوية تحتاج إلى التجارب القائمة على الحس والمشاهدة والعقل، فهل تسري على الحقائق الدينية نفس الوسائل؟

تتطلب الإجابة عن هذا السؤال تشخيص وسائل الإدراك الإنساني لكي نقنع بأن القضايا الدينية تسمو بحقائقها ووسائل إدراكها الأرقى والأوثق من الحس والمشاهدة والعقل.

ومن المقرر بين العلماء أن علم الإنسان: (جزئي، زمني، فإنه حادث لم يكن من قبل فإنه لا يدون ولا يبقى، بل يزول بأضداده، وبآفات مثل بطلان الحاسة والنسيان، وجزئي في البعد والمسافة، لا يرى ولا يسمع إلا من قريب ولا يرى إلا المقابل، وجزئي من حيث المتعلق، لا يعلم الإنسان إلا بالصورة والمثال)^(١).

هذا فيما يتعلق بوسائل الإدراك، أما عن المصدر فإن الله تعالى هو خالق الإنسان، وهو سبحانه الذي علمه ما لم يعلم، يقول الأستاذ جار الله في تفسير قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، أن علم الإنسان وعلم الملك بالأسامي فقط، أما الحقائق فلا

(١) موسى جار الله، الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ١٢: ١٣ ط لاهور، باكستان ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. ويقول ابن خلدون: (واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والأمر نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه) ثم يضرب أمثلة بالأصم والأعمى وينتهي إلى تقرير أن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر مجهول الوجود أوسع نطاقاً من ذلك والله من ورائهم محيط (... الفصل العاشر، في علم الكلام.

يعلمها لا بشر ولا مَلَك؛ لأن التعليم والإنباء لم يتعلق إلا بالأسامي في الآية الكريمة^(١). وما دامت وسائل الإنسان قاصرةً عن معرفة الحقائق، وفي قمتها عالم الغيب فلا بد من وسائل أخرى للمعرفة، بما يدخل في نطاق عالم الغيب.

ثم جاء العلم الحديث ليدعم فكرة قصور وسائل الإدراك في الإنسان مما ينبثق عنه ضرورة وجود عالم آخر، ومن ثم فقد المحتجون بالعلم إنكار عالم الغيب أمضى أسلحتهم، إذ لا يستندون إلى دليل «علمي».

ويقرر وحيد الدين خان أن مقولة أنه لا إيمان إلا بالمشاهدة مقولة مجردة من النظرة العلمية، ثم يستطرد فيرى أن القول بأننا لن نؤمن بالآخرة والوحي والإله ما لم نشاهدها بأعيننا في وضوح النهار... أن كل ذلك مخالف للعلم الحديث، فإنه لأول مرة في التاريخ المعلوم حدث أن العلم الإنساني أثبت بنفسه أن: «علم الإنسان محدود»، وأنه سيظل «محدودًا».

ثم يبين أثر ذلك على الإيمان حيث يريد الإنسان الوقوف على حقيقة الكون، ولكنه يعجز بسبب محدودية إدراكه، مما يدل على أن الإنسان يحتاج إلى مرشد أعلى (وبتعبير آخر: إن هذا الاعتراف الذي أثبتته العلم أكد ضرورة الرسل والرسالات السماوية للإنسانية كلها^(٢))، وذلك كما رأينا بسبب قصور وسائل الإدراك الإنساني.

ونحن نرى أن الإقرار بهذه النتيجة الواقعية الملموسة لا يتعلق بعصر دون آخر، ولا بأمة دون أخرى، بل هي ثابتة في تاريخ الإنسان قديمًا، وثابتة في واقعه المعاصر، كذلك

(١) موسى جار الله: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة، ص ٩ وعلم الملك: (نوع من الإدراك وليس المقصود به الأسماء). يُنظر أيضًا كتاب «السموات السبع» للدكتور، محمد جمال الدين الفندي حيث يقول: (إذا لم تعد الغيبات التي نعبر عنها بعالم ما وراء الطبيعة من الأشياء المتبوعة علميًا أو التي يمجهها العلماء كما كان الحال من قبل، خصوصًا وأن العلم يعجز عن الوصول إلى الحقيقة المطلقة وعن كشف اللثام عن أصل الأشياء وكنهها) ص ٩، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م.

(٢) وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، المنهج والشريط ص ١٤٩ دار الصحوة، ترجمة محسن عثمان الندوي، ومراجعة د. عبد الحليم عويس ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م.

فإنها تتعلق بالإنسان بما هو إنسان، أي خارج الأوطان والقوميات والحضارات مهما ارتقت وتقدمت في العلوم والمعارف.

ولابد هنا من التنويه بالدراسة العلمية الموثقة للدكتور مهندس: محمد الحسيني إسماعيل، حيث استخلص من بحثه للمراحل التي تبلورت فيها العقيدة المسيحية في شكلها النهائي الحالي عبر المجامع الكنسية، متخذًا من هذه المجامع التي حضرها آلاف المشتركين من أساقفة ورجال دين ورجال فكر وفلاسفة شاهد الصدق التاريخي، على قصور الفكر البشري تجاه الدين، وكان من عناية الله لألا يترك أمرًا من أمور الدين للإنسان حتى لا يضل ولا يضلل (ولهذا كان قوله تعالى عن القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، أي لا اجتهادات متروكة للإنسان تجاه النص الإلهي، كما لا توجد أدنى مسؤولية تقع على عاتق الإنسان، لا في صياغة النص الإلهي ولا في حفظه، فقد تكفل الله سبحانه وتعالى بهذا وذاك^(١).

وله دراسة ثانية بنفس المنهج بكتابه: «الدين والعلم وقصور الفكر البشري»، إذ نوع فيه الأدلة متسلحًا بمخزون من النظريات العلمية الفيزيائية والرياضية، مع اطلاع عميق للمذاهب الفلسفية اليونانية والحديثة والمعاصرة، فضلًا عن استيعاب تعاليم الديانات الأخرى من مصادرها وتبع تطوراتها التاريخية.

والكتابان جديران بعناية الباحثين في علم مقارنة الأديان، وخلاصتهما تمثلان فتحًا جديدًا في دراسة الأديان بالمنهج العلمي الدقيق.

وما دام تاريخ البشرية المدون قد أثبت وجود الرسل والأنبياء بالتواتر وآخرهم موسى وعيسى ومحمد -صلوات الله عليهم- فإن المصدر الأصلي للدين الصحيح هو الوحي، وليس خيالات الفلاسفة الزاعمين التلقي عن طريق الإشراق أو الاتصال بالعقل الفعال، ولا تنبؤات الكهنة الذين أفسدوا العقائد والأديان.

(١) الحقيقة المطلقة... الله والدين والإنسان، دكتور مهندس: محمد الحسيني إسماعيل ص ٢٥١-٢٥٢.

مطابع الأهرام سنة ١٩٩٥ م.

وإذا اتضح ضرورة الوحي كمصدر للعقائد الدينية الصحيحة ومتعلقاتها من معارف يقينية، وأوامر ونواهي إلهية لتقويم الإنسانية، فما هي عوامل الانحراف عن الدين الصحيح، وأشكاله التي نراها في المجتمعات؟

٢- بعض عوامل انحراف الأديان وأشكاله

إن ما يثير التأمل عند الحديث عن الكهنة (أو رجال الدين الزاعمين بأنهم وسطاء بين الله والناس) أن بعض الانحرافات في العقائد الدينية أفسدت بسبب هؤلاء.

أ- فقد قالوا العبارة المشهورة: (الكاهن نائب الله، والملوك ظلُّ الله في أرضه)، والأمثلة على ذلك نلاحظها في الهند حيث كان الإله تحت اسم «برهما»، ولكن انحدرت العقيدة هنالك إلى الظن بأن «برهما» حل في «الرهماثان»، وهو رئيس الكهنة حلولاً وراثياً يتوارثه بعد الكاهن الأعظم من يجلب محله، ويتوالي الأجيال أصبحت الطبقة أعلى من غيرها، ثم اخترعوا نظام الطبقات.

ولما جاء «بودا» ليحارب نظام الطبقات ثم مات، ظهر الكائن الذي ينوب عنه (ولم يقف الأمر عند هذا الحد أيضاً، بل أقيمت لبودا تماثيل وأصنام تعد بالآلاف، وطبعاً حلت روح بودا - ليس في الكاهن فقط - وإنما في الكاهن والصنم)^(١).

ب- ومن فكرة الحلول انبثقت عقيدة تناسخ الأرواح والشرك في آن واحد حيث تحمل روح الميت المقرب للكهنة - وهو مقرب بالضرورة للآلهة - في جسد نقي طاهر، (بعكس الأشرار الذين ليسوا بكهنة وأبناء كهنة، فإن أولئك يتمصون أجساد الحيوانات)^(٢).

كذلك نرى تجسيد تميز طبقة دينية على غيرها سلطاناً ونفوذاً، نراه في النظام الكنسي، الذي يوسط رجال الدين بين الله والعباد حيث جاء الإسلام بإبطاله، يقول جارودي:

(١) الدين والفلسفة والعلم، السيد محمود أبو الفيض المتوفي، ص ١٠١، ط. دار الكتب الحديثة بالقاهرة، بدون تاريخ.

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٢.

لقد استبعد القرآن على سبيل المثال ملكية الحق الإلهي الاستبدادي، بالمعنى الغربي للكلمة؛ لأنه لا يوجد في الإسلام كهنة ولا كنيسة مؤهلة قانونياً بالتكلم وبالحكم باسم الله^(١).

ج- ويلحق بالكهنة أيضاً المتنبئين الكذبة^(٢) وهم أحد منابع الفساد في الأديان، حيث يزعمون أنهم كالأنبياء، وأنهم يأتون بالخرافات والمعجزات ويفتنون الأتباع بأعمال السحر وخرافات العادات.

وكان ذلك دافعاً لعلماء الإسلام من تحذير المسلمين من فتنهم، ونذكر منهم على سبيل المثال ابن تيمية الذي أوضح بإسهاب الفروق بين الأنبياء وبين الكهان والسحرة وغيرهم من أصحاب الشعوذة، شارحاً الفروق المميزة بين الأنبياء الصادقين وغيرهم، نجملها باختصار فيما يلي:

(١) جارودي: الإسلام دين المستقبل ص ٨٤، ترجمة عبد المجيد بارودي، دار الإيوان، بيروت - دمشق ١٩٨٣م.

ويقول المهتدي إلى الإسلام أحمد سامي عبد الله: (ولقد تركت الركوع والسجود للمسيح وبعض البشر من الكهنة والأساقفة والبطاركة والقمامصة الزاعمين أنهم أكثر قرابة إلى الله وأنهم الوسطاء في مغفرة ذنوب البشر...) ص ٢٧ من كتابه «ولماذا وكيف أسلمت» ط. رابطة العالم الإسلامي ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢) وبعض دجاجلة الصوفية، وتحت عنوان «الغش والتدليس في الديانات» يذكر ابن تيمية ألواناً منها، ويضيف إليها الدين، يظهرهم الخزعبلات السحرية والشعبذة الطبيعية وغيرها التي يضاهاها ما للأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات ليصد بها عن سبيل أو يظن بها الخير فيمن ليس من أهله، ص ٥٤ من كتاب «الحسبة ومسئولية الحكومة الإسلامية»، تحقيق صلاح عزام، دار الشعب فبراير ١٩٧٦م.

كما ينطبق التحذير أيضاً على كل من يخالف طرق الأنبياء والرسول في العصور المختلفة، بما في ذلك العصر الحاضر، كما سيأتي، وإذا كان جُلُّ نقد شيخ الإسلام مقتصرًا على ما عرفهم في عصره كشخصيات الكهنة المشركين وأهل البدع من أهل الملل، فقد ظهرت شخصيات أخرى، لا تتبع نفس الطرق والحيل، ولكنها تشترك مع أسلافها في الهدف والمرمى، حيث تصرف الشعوب والأمم عن طريق الأنبياء والرسول وتدعو لاتباع مذاهبها وفلسفاتها ونظمها المخترعة.

أولاً: يُخبر الأنبياء بالصدق ولكن الكهان يكذبون.

ثانياً: أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل ولا تفعل إلا العدل، وهؤلاء المخالفون لابد لهم من الظلم.

ثالثاً: تأتي آيات الأنبياء على خبر الله تعالى وأمره على حكمة فتدل على أنهم أنبياء، وعلى صدق من أخبر بنبوتهم سواء كانوا هم المخبرون أو غيرهم، ولكن السحر والشعوذة التي أتى بها الكهان أمر معتاد لغير الأنبياء.

رابعاً: لو افترضنا جدلاً أن الأنبياء والنبوة تنال بالاكْتساب فإننا تنال بعبادة الله تعالى وطاعته، وهي مستلزمة للالتزام بالصدق والعدل، بينما تحصل الخوارق لمخالفهم مع الكذب والإثم.

خامساً: إن أفعال الكهان والمشركين أمور مقدورة للإنس والجن، وآيات الأنبياء لا يقدر على مثلها لا الإنس ولا الجن، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ لِيْنِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

سادساً: إمكان معارضة ما يأتي به السحرة والكهان، وآيات الأنبياء لا يمكن لأحد معارضتها.

سابعاً: تأتي آيات الأنبياء مؤيدة لصدق أصحابها، وتأتي آيات مخالفهم دالة على كذب أصحابها.

ثامناً: إن آيات الأنبياء لا يقدر عليها مخلوق -حتى الصالحون- أي آيات الأنبياء التي يختصون بها خارقة لعادة الصالحين.

تاسعاً: لا تأتي خوارق الأنبياء بناءً على أفعالهم، بل الله تعالى يفعلها آية وعلامة لهم، فأمر الآيات إلى الله تعالى لا إلى اختيار مخلوق، والله سبحانه وتعالى يأتي بها بحسب علمه ومشيتته ورحمته كما ينزل ما ينزله من آيات القرآن، وكما يخلق ما يشاء من المخلوقات، ولكن الخوارق ليست آيات، فتارة تكون بدعاء العبد، والله تعالى يجيب المضطر - وإن كان كافراً، وتارة تكون بسعيه في أسبابها مثل توجهه بنفسه وأعدائه وبمن يطيعه من الجن

والإنس في حصولها، وأما آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك.

عاشراً: أن النبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم، فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء من عبادة الله تعالى وحده، والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والإيمان بجميع الكتب والرسل، فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الأنبياء، وأما الكهان والسحرة والمشركون وأهل البدع من أهل الملل فإنه يخرجون عما اتفقت عليه الأنبياء، فكلهم يشركون مع تنوعهم، ويكذبون ببعض ما جاء به الأنبياء.

حادي عشر: أن النبي هو وسائر المؤمنين لا يُجبرون إلا بحق، ولا يأمرون إلا بعدل فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد، ولا يأمرون بالفواحش ولا الظلم ولا الشرك، ولا القول بغير علم، فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها، فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول.

وكما أنهم لا يختلفون، فلا يناقض بعضهم بعضاً، بل دينهم واحد - وإن تنوعت الشرائع - فهم أيضاً موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده، موافقون للأدلة العقلية الصحيحة التي كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم، وآيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة متعاضة، لا يناقض بعضها بعضاً، والكهنة يأتون بخلاف ذلك^(١).

تكفينا إذن هذه الموازين أو بعضها لنستخدمها في التمييز بين الرسل وأتباعهم من هداة البشرية إلى الحق والخير، وبين المضللين أيًا كانت صفاتهم وأفعالهم.

ومهما اختلفت شخصيات المعاندين للرسل فإن الممارك ما زالت دائرة، كل ما هنالك أنها تأخذ أشكالا وصوراً أخرى على مدى العصور؛ فإذا كان الإمام ابن تيمية يتصور الممارك الدائرة في عصره ويحذر من مدعي النبوة والكهنة الكذبة، فإن الإمام أبو الحسن الندوي في عصرنا الحاضر يحذرنا من صنوف جديدة من البشر تحاول بدورها

(١) النبوات ص ٣٠٠-٣٠٣ المطبعة السلفية بمصر.

أيضاً أن تسلك بالأمم والشعوب طرقاً غير طرق الأنبياء والرسل (فليس شقاء الإنسانية وأزمة المدنية الحاضرة - مع تملكها لجميع أسباب السعادة والسلام والرفاهية والهناء - إلا بثورة قادتها على تعاليم النبوة والأنبياء وتخطيطهم للمدنية والحياة على غير الأسس التي جاء بها الأنبياء والمرسلون واستغنائهم - وبالأصح استكبارهم - عن ما أكرم الله به النبي العربي الأمي ﷺ^(١)).

وفي ضوء هذه الإيضاحات يتحصن المسلم فيميز بين الحق والباطل مهما تعددت صورته ويفلت من خداع الكهنة والدجاجلة وأمثالهم الذي يفتنونون الناس بحيل الدجل والسحر.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رأي فريد أيضاً في تفسيره لدعاء الاستعاذة من المسيح الدجال في الصلاة أثناء التشهد الأخير، وكأنه يريد به التحذير الشديد من كافة الدجاجلة المشابهين للدجال المعني بالحديث - وهو كبيرهم - ويتوسع في تعميم فتنته، فيجعلها تشمل كل باطل مخالف للشريعة مقرون بباطل فيقول: (وفتنه لا تختص بالموجودين في زمانه - بل حقيقة فتنته الباطل المخالف للشريعة المقرون بالخوارق، فمن أقر بما يخالف الشريعة لخارق فقد أصابه نوع من هذه الفتنة، وهذا كثير في كل زمان ومكان، لكن هذا المعين فتنته أعظم الفتن، فإذا عصم الله عبده منها، سواء أدركه أو لم يدركه كان معصوماً مما هو دون هذه الفتنة ... ويمضي فيحذرننا من صنوف البشر المدعين للألوهية أو النبوة أو الولاية أو المهديّة^(٢) ويستند إلى حديث الرسول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون فيكم

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، الندوي ص ١٠. ط. المختار الإسلامي سنة ١٩٧٤م. ويذكر الإمام الندوي السمات التي يتميز بها الأنبياء:

١- علومهم مصدرها الوحي ٢- قيامهم بتصحيح العقائد وإفراد الله تعالى بالعبادة
٣- التشديد على جانب الآخرة ٤- الإيثار بالغيب ٥- البعد عن التكلف
نفس المرجع ص ٣١، ٣٥، ٤٢، ٤٧، ٥٢.

(٢) بغية المرتاد ص ٤٨٣، تحقيق د. موسى بن سليمان الدوين، مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

وأصل الدجل: التغطية والتمويه والتلبيس ص ٤٨٥.

ثلاثون دجالون كذابون، كلهم يزعم أنه رسول الله»^(١).

نموذج من الدجل العصري

حصر ابن تيمية الكهنة والمتنبئين الكذبة المعروفين في عصره كما رأينا، ولكن ظاهرة الدجل ما زالت تعيش في العصر الحاضر أيضًا حيث اتسعت دائرته، فشملت أصحاب المذاهب من الساسة الذي يخضعون الشعوب تحت شعارات ظاهرها العدل والحرية، وباطنها الظلم والفهر، وكذلك الثورية ومؤسسها في العالم الإسلامي أتاتورك المعادي للإسلام والزاعم لنفسه رسالة الارتقاء بتركيا، ويُلقب بالكهنة أيضًا المنكرون للنبوات، والمنادون بالتجديد في الدين حسب أهوائهم وفلسفاتهم، وبلا أي سند من أدوات الاجتهاد الشرعي التي اشترطها علماء المسلمين فيمن يتصدى للاجتهاد.

كذلك لم تمنع الحياة العصرية بزيبتها وزخارفها وآلاتها التكنولوجية الإنسان الغربي المعاصر من الوقوع في براثن «كهنة» عصريين، عرفوا كأسلافهم القدماء حاجة النفس البشرية الفطرية إلى التدين، ولكنهم فاقوا أسلافهم في الخداع والتمويه، واستخدموا أساليب جديدة في النفاذ إلى النفوس القلقة والتي تفتقد الإيمان الصحيح بشعبه وبراهينه.

حدث هذا - كما يذكر الدكتور عبد الفتاح الحسيني في العقد السابع من القرن العشرين - إذ قام بعض أصحاب الألعاب التجارية بترويج قطع من الصخر المصقول يمكن اقتناؤها لتكون صحبة لمن يشعر بالوحدة، وسرعان ما استشرى التقليد بين الناس، وقامت صناعة خاصة بجمع الأحجار وتصنيفها وصدرت كتيبات ومنشورات لإرشاد الناس لأحسن السبل للاستفادة مما تقدمه قطعة الحجر من حظ وراحة بال أو اللجوء إليها لاستلامها العون في اتخاذ قرار! وزاد الحماس حتى لم يكذب مخلو بيت في الولايات المتحدة الأمريكية من قطعة حجر ظنًا أنه حجر ثمين بينما الحقيقة أنه لا يتميز عن أي حجر بالطريق!

(١) جامع الرسائل ص ١٩٧ تحقيق د. رشاد سالم، والحديث رواه البخاري ومسلم، كما رواه الإمام أحمد في «المسند».

وغالى بعض الناس فمهدوا للحجر فراشاً وثيراً، فلا ينام الطفل دون احتضانه ولا تدخل الفتاة سريرها حتى تُحَبِّيَ قطعة حجرها وتُقَبِّلَهَا.

ويمضي الدكتور الحسيني ليحدثنا عن اغتنام بعض علماء النفس الفرصة فكتبوا عن التأثير النفسي للحجر الأليف، ودوره في علاج الأمراض العقلية والعصبية والنفسية، ثم يسجل طرق النصب والاحتيال التي يقوم بها تجار الحجر للمحافظة على مراكزهم، فقاموا (بسك شهادات... يحمل اسم تدليل لقطعة الحجر وتاريخها ونوعها وما تفعله من معجزات، وادعى القائلون على تلك التجارة أن أحجارهم ليست من الأحجار التي يصادفها الناس في الطريق، بل إنهم يقومون باقتنائها بطرق علمية حديثة ويشارك في انتقائها علماء نفس وأطباء وعلماء اجتماع ومهندسون متخصصون في طبقات الأرض»^(١).

٣- عقيدة التوحيد هي الأصل

إذا عدنا لتناول العقيدة الدينية وبيان نشأتها فمن اليسير استنتاج أن عقيدة التوحيد هي الأصل، ثم طرأ «الشرك» على البشرية، وكلما انحرفت عن طريق التوحيد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل لتذكير بني آدم مرة جديدة بعقيدة التوحيد.

ومما يؤيد ذلك قصة الخلق في القرآن الكريم، حيث يذكر الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، وكان نبياً، وهو أول من سكن الأرض من البشر.

وعندما انتكست المجتمعات وتدهورت أخذت في عبادة المخلوقات الأخرى، فعبدوا الشمس لظهورها الدائم والمنافع التي تعود عليهم منها، وما زالت تحتل مكان القداسة عند اليابانيين إذ يعتقدون أن «الميكادو» تجسيداً لإله الشمس كما عبدت بعض المجتمعات السماء؛ لأنها تحتوي على الشمس والقمر والنجوم، ومنها يسقط المطر، والبعض عبد الأرض؛ لأنها تنبت الزرع ويعيشون عليها^(٢).

(١) مقال بعنوان «أكبر عملية احتيال في التاريخ» ص ٢٠ بقلم الدكتور عبد الفتاح الحسيني، مجلة المختار الإسلامي، العدد ٢١٨، ١٥ شوال ١٤٢١ هـ - ١٠ يناير ٢٠٠١ م.

(٢) الإيمان بالغيب، بسام سلامة، مكتبة المنار بالأردن ص ٤٤، ط. ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

كذلك عبدوا الإنسان في شخصية الأب أولاً؛ لأنه رمز النعمة والقدرة، ثم تحولت إلى عبادة رئيس القبيلة لأنه أكبر قوة وقدرة، وعبد قدماء المصريين فرعون مصر كما يذكر القرآن الكريم: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٤﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]، وإلى يومنا هذا ما زال ملك اليابان معبود الكثير من أبناء شعبه^(١).

ويقول الأستاذ أحمد عبد الغفور: (ومن أثر عبادة الإنسان الباقية عن المتدينين تقديس البطولة والعظمة، فهو مظهر يتفق مع التقدم الحضاري، ومن آثارها عبادة «المعشوقة» التي نجد في آثار الشعراء في عصرنا من يقول لها في أشعاره أو كتابه أو خطابه: أنا عبدك، معبودتي^(٢)).

إن هذا التدرج في العبادة، أو بمعنى أدق «التدني» من الأعلى إلى الأدنى تتضافر على تأييده الوقائع التاريخية، بالإضافة إلى التفسير النفسي للظاهرة، وكان مؤرخنا الشهرستاني من أوائل من تعرض لها بالتحليل.

فبعد أن أرخ الشهرستاني لبعض ديانات الهند، حيث ذكر أن منهم من عبد الشمس زاعمين أنها ملك من الملائكة، ولها نفس وعقل، ومنها نور الكواكب وضيء العالم، ثم اتخذوا لها صنماً.

ومنهم من زعموا أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة وينسبون إليه تدبير هذا العالم السفلي والأمور الجزئية فيه، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات، ثم اتخذوا له صنماً يعكفون عليه.

وقام الشهرستاني بدراسة الصلة بين عبادة الأصنام وأصول العقائد وتفسيرها تفسيراً نفسياً، حيث وضعوا الأصنام المعبرة عن معبود غائب، إذ الصنم المعمول على صورته وشكله وهيئته نائباً منابه وقائماً مقامه، وفي هذا الصدد يقول: (ولا فنعلم قطعاً أن عاقلاً

(١) باختصار من كتاب «الديانات والعقائد في مختلف العصور» أحمد عبد الغفور عطار ص ٧٢-٧٣ ج ١، ط. ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، مكة المكرمة.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣.

ما، لا ينحت جسمًا بيده، ويصوره صورة ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه، وإله الكل وخالق الكل... لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وكان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات لها، وعن هذا كانوا يقولون: ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣]^(١).

أما عن الانحدار عن عقيدة التوحيد التي أتى بها الأنبياء والرسل فيرجعه باحث معاصر إلى أن سبب نشر لواء الوثنية يرجع إلى الجهل الذي أصاب الأجيال تلو الأجيال بعد أن بث فيهم (سام ابن نبي الله نوح عن شيث وإدريس فأضاعوها لما طال عليهم العهد، فضلوا السبيل الإلهي المرسوم)^(٢).

وهناك من يدافع عن الوثنية بزعم أنها تعبر في مرحلة ما عن حاجة البشر الفطرية، ثم تتعدها إذا ما نضجت البشرية وبلغت سن الرشد، فحينئذ يستغني الإنسان عن الوثنية، فتصبح التماثيل علامات ورموز^(٣).

ولكن سرعان ما يتهاقت هذا الرأي أمام الواقع الماثل أمام دارس العقائد والعبادات في المجتمعات الوثنية التي ما زالت تعض على الأصنام بالنواجذ، حيث يعكف الناس عليها بإصرار بصفتها الأهداف النهائية لعبادتهم ولا يتخطونها إلى مرحلة التوحيد كما يتخيل بعض الفلاسفة، (لذلك كان ما حكاها الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام من قول وشكوى، حقًا ومنطبقًا كل الانطباق على عبادة الأوثان والأصنام: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، أنها استحوذت على عقول عبادها، وأهنتهم عن عبادة الواحد القهار، فتشاغلوا بها عنه، وحرموا سعادة عبادة الله ولذتها، فكان ذلك هو الضلال المبين^(٤).

وتتنوع مظاهر الانحدار والتردي التي يسجلها الباحثون المعاصرون، فلم يعد يثير سخريتنا ما سجله التاريخ عن بعض العرب الذين كانوا يأكلون آهنتهم إذا أصابتهم

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج٢ ص ٢٥٩ تحقيق محمد سيد كيلاني ط. الحلبي ١٣٨١هـ - ١٩٦١ م.

(٢) من كتاب الدين والفلسفة والعلم للسيد محمود أبو فيض المنوفي ص ٤٩.

(٣) الأركان الأربعة للإمام أبي الحسن الندوي ص ٧٦ ط. دار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧ م.

(٤) نفسه باختصار ص ٧٧.

مجاعة، إذا علمنا أن في الحبشة الآن قبيلة «القالا» تعبد السمك ثم تأكله، فضلاً عن عبادة «البقر» في الهند^(١).

ونتوقف قليلاً عند عبادة الحيوانات بأنواعها وما تركته من رموز أشهرها «الطوطم» وأصله عبادة الحيوان (وما تزال الطوطمية موجودة حتى عصرنا هذا في قبائل متفرقة في آسيا وأفريقيا وأمريكا، وفي كثير من الجزر في المحيط الهادي وفي أستراليا)^(٢).

ولم تنحصر في هذه الأجزاء المتفرقة من العالم بل بقيت في شكل «شعارات» في بيئة الإنسان المتقدم المتحرر (التي نراها في بعض دور النشر والجماعات والجمعيات والدول، حيث يُتخذ الحيوان شعاراً لها، فهذه تتخذ دُباً وتلك نسرًا، وهكذا...)»^(٣).

مناقشة منهج التطور في نشأة العقائد الدينية

وهذه الظواهر وغيرها تدعونا إلى مناقشة منهج «التطور» في العقيدة الدينية، الزاعم بأن الإنسانية تطورت من «الحياة البدائية التي تحكمها عبادة الأصنام وتحوطها ألوان الشرك والوثنية» إلى التطور إلى «التوحيد»، حيث يذهب فريق من الباحثين في تاريخ الأديان إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه حتى وصل إلى الكمال بالتوحيد كما تدرج في العلوم والصناعات، ومن هؤلاء سبنسر وتايلور وفريزر ودوركيم، ويقابله فريق آخر من الباحثين يرى أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر، والوثنية هي أعراض طارئة^(٤).

ونحن نرجح الرأي الثاني عن اقتناع بالأدلة العلمية التي ساقها الدكتور دراز في

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور ص ٧٤ ويقول المؤلف: وفي عصرنا هذا يعبد «الكانجارو» في أستراليا، والخرتيت ذو القرن الواحد وعجل البحر والثعابين عند أقوام البوشمن بصحراء كلهارى وقبائل في تسمانيا وعند كثير من الإسكيمو.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٥.

(٣) المرجع نفسه ص ٨١.

(٤) الدكتور دراز، «الدين» بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص ١١٢، ط. دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

بحثه المبتكر عن «الدين»، وهي ذات ثلاث شعب:

أولها: التحليل النفسي حيث يؤدي إلى بيان خطأ وضع قوى النفس المختلفة في حياتها الروحية والمادية في نموها على قدم المساواة معًا؛ لأن المشاهدة المتتبعه لمراحل حياة الإنسان تستخلص أن الإنسان كان في بدايته يقنع بإشباع حاجاته الضرورية من مأكّل ومشرب ومأوى، ودفعته قلة مشاغله ووفرة وقته إلى التأمل الذي يرهف حاسته الدينية، بينما نرى اشتغال الناس في عصور المدينيات بترف الحياة الجثمانية يؤدي إلى العكس (ذلك أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص، بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها، ككفتي الميزان: لا ترتفع إحدهما إلاّ انخفضت الأخرى)^(١).

الثانية: أن استقراء سير الديانات منذ طفولة التاريخ إلى اليوم يبين أن كلّاً منها بدأت بعقيدة التوحيد النقية، ثم خالطتها الأباطيل مما يدل على أن البداية خير من النهاية.

الثالثة: إذا بحثنا الظاهرة في ضوء التطور الصحيح -كالفن مثلاً- نجد أنه يبدأ في صورة ساذجة، متحدة، متجانسة، ثم تتدرج إلى التكاثر والتركيب، وتنتقل من البساطة إلى التعقيد كلما بعدت عن الأصل، فإذا طبقنا هذا القانون على العقيدة الإلهية يستوجب أنها بالمثل (سارت أيضًا من الوحدة إلى الكثرة، ومن التقاوة والسهولة واليسر إلى التعقيد، بالإضافة الأسطورية والنزوات الخيالية التي لا ضابط لها من العقل السليم)^(٢).

ونضيف إليها الواقع المعاصر الذي يوصف دائمًا بالتطور الحضاري، حيث بلغ الإنسان ذروة التقدم في القرن العشرين الميلادي.

وللحكم على مدى صحة هذه المقولة نعود لتذكر حالة العرب في «الجاهلية» وقبل الإسلام، حيث سادت عبادة «الأصنام»، والسؤال الوارد في الذهن الآن: هل تخلص

(١) المرجع نفسه ص ١١٥: أي أن انشغال الإنسان بأسباب الترف في معيشته يضعف من حاسته الدينية، ومن ثم فلا تتطور، بل تراجع، ولا تظل في مكانها وذلك بخلاف قانون التدرج في العلوم والصناعات.

(٢) المرجع نفسه ص ١١٦.

الإنسان المتطور الذي يعيش في القرن العشرين من الأصنام؟

يرى جارودي أن هناك أصنامًا في العصر الحديث لها قدسية في النفوس تشبه أصنام العرب في الجاهلية، ولكنها لون جديد من الأصنام، يمحورها في «التنمية» و«التقدم» و«الفردية» و«تمجيد الأمة؛ أصنام القوة المسلحة والجيش الجرارة، وغيرها من أصنام وطواطم ورموز مقدسة، وطقوس واحتفالات» بينما جاءت عقيدة التوحيد في الإسلام لتتفني كل «صنمية» لأنها الأساس والمنطلق لدى المسلم المؤمن بأنه «لا إله إلا الله»^(١).

ويشاركه الإمام الندوي الرأي، حيث يرى أن أوربا اتخذت آلهة كثيرة بأساء طريفة وعناوين جديدة، من «ديمقراطية» و«دكتاتورية» و«رأسمالية» و«اشتراكية» و«وطنية» و«قومية» عبر ثلاثة قرون^(٢).

وعلى ضوء هذا التحليل -مرورًا بعوامل أخرى سيأتي ذكرها- يصبح التطور الحضاري الغربي بميزان الدين الصحيح -دين التوحيد- موضع شك كبير، بل إن بعض فلاسفتهم -فضلاً عن جارودي- يعطوننا صورة قائمة تجعلنا نتبع عللها غير القابلة للعلاج، فهي تبدو في شكلها الظاهر متطورة من الناحية العلمية والتكنولوجية، ولكنها مهلهلة الأحشاء، منهارة الأعصاب، متجهة نحو الانحدار، ولن تفر هذه الحضارة (من المصير الكئيب الذي أصاب عشرات الحضارات السابقة، ويأتي الأدب الحديث ليقول له؛ أي الإنسان الغربي: بأن الاختلال العصبي هو مصير إنساننا الذي يعيش في هذا القرن، وكذلك فإن الهزيمة لا بد منها، بشكل أو بآخر، ويسخر علم النفس منه، ويؤكد له أن الثقافة سطحية يكمن في داخلها إنسان بدائي «وليس متطورًا» ينتظر الانطلاق للسيطرة^(٣).

وظهر الحنين إلى العودة إلى الدين المسيحي من جديد؛ لأنه لعب دورًا كبيرًا في

(١) جارودي، ما يعد به الإسلام ص ٢٦٧.

(٢) ص ٣١ من كتابه: رسالة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين.

(٣) كولن ولسن، ما بعد اللامتسمي ص ١٨٩، ترجمة يوسف شورو وعميق، منشورات دار الآداب،

بيروت، إبريل سنة ١٩٨١ م.

الماضي (ولم تكن عذابات «الصلب» التي تربعت في صدر المسيحية مصادفة، بل كانت تقدم مستوى تحكم فيه على المضايقات التافهة للحياة اليومية»^(١).

ولكن هل يمكن للعقيدة المحرّفة التي اصطبغت بالصبغة الإنسانية أن تنقذ هذا الإنسان؟

يبدو أن الفرصة قد أفلتت، وأن المشكلات أعقد بكثير من القدرة على الحل، حيث يرى كولن ولسن أن من المتوقع أن تصف الأجيال الآتية النصف الأول من هذا القرن بأنه «عصر اللامعنى»، ففقدان المعنى والهدف يجثم على أدينا وفننا وفلسفتنا، هذا الشعور العام بأن التأكيدات التي يمنحها الدين قد ضاعت ولا يمكن استبدالها، فتحليل العلم للمشكلات العلمية يزيد في اتساع هوة الفراغ المؤلم، ومن خلال هذا تبدو الثقافة الغربية تعاني الانهيار والانتكاس لما لا يقل عن مائة سنة، إذ إن الأمر ليس إلا مسألة تفكير في معرفة المدة التي تستمر فيها قبل أن يلتهمها الإفلاس الماحق»^(٢).

ولنتأمل هذه الصورة المعتمة التي رسمها كولن ولسن كصدى للإخفاق والإحساس بالتشاؤم في المواضيع المتصلة بالعقائد الدينية، وهو يقصد المسيحية المحرّفة بالذات، حيث فقد الإنسان في الغرب الهدف من الحياة مع شعوره بعدم الأهمية، وأن تجاربه المعنوية صعبة وقصيرة ولا يستطيع الاحتفاظ بها.

(١) المرجع نفسه ص ١٩٣.

(٢) المرجع نفسه ص ١٥، ويصف حضارته في موضع آخر بأنها حضارة متقدمة تنتج عوامل انحطاطية أكثر خلال الملل وفقدان الهدف ص ١٧٤، واستعرض الوسائل الحائلة للسقوط، حيث اقترح «برناردشو» الدين وكذلك «أرنولد توينبي»، ثم يذكر أن «الدوس هكسلي» أقرب إلى الحقيقة حين اقترح ضرورة «تعميم المخدر»، ص ٢٠٠، كذلك كان «وليم جيمس» يؤيد أن الخمر تنتج خبرة غامضة إلى حد ما ص ٢٠٩، ثم يفاجئنا المؤلف في الوقت نفسه عندما يخصص ملحقا لكتابه ليستعرض فيه «تجربة المخدر».

والأمر المفجع بحق أن ذكر المخدرات لا تأتي في شكل آفات اجتماعية مستهجنة ومردولة، بل مدمرة للأفراد والمجتمعات، ولكن في صياغة فلسفية مقننة يعتمد عليها فيلسوف كبير، ويسجلها كاتب ذائع الصيت، وتعلن على الملأ كطريقة من طرق الإنقاذ «الملحق الأول من ص ٢١٩: ٢٢٥».

وإذا قَوَّمتنا هذه النتائج بميزان الدين الصحيح نرى أن العقيدة في الإسلام توضح الأهداف والغايات، ويجد الإنسان فيها الإجابات على كل ما يدور في الذهن؛ عن مكانته ومعنى الحياة والمصير، ودور شعائر العبادات من التفسير للمعضلات التي تعجز عن حلها المذاهب الفلسفية فضلاً عن الأديان المحرفة ومن ثم تجعل الإنسان يصمد ويثبت ويمضي قُدماً إلى الحياة المأمولة في الآخرة وهي الغاية والهدف، فإن الإسلام قادر (على أن يجيب عن كل سؤال في كل قصة إنسانية وأخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية وفلسفية)^(١).

ونكتفي بإيضاح بعض الاستفسارات التي تدور حول بعض أبرز القضايا التي تهتم بها الأديان^(٢).

أولاً: أهمية مكانة الإنسان

عرف علماء الإسلام التصور لحقيقة الإنسان ودوره في الحياة المبتدئة بخلق آدم ﷺ، ثم إهباطه إلى الأرض، ابتلاءً واختباراً، وكيف تتحقق سعادته الدنيوية بتطبيق شريعة الله تعالى التزاماً بأوامرها وتنفيذاً لأحكامها وارتفاعاً بمستواه الإنساني إلى العمل بمكارمها، حتى ينتقل من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، ويعود أدراجه إلى موطنه الأصلي - إذا اجتاز الابتلاء الدنيوي بنجاح - أي إلى الجنة.

وإذا أخذنا برأي الراغب الأصفهاني، متوفى ٤٠٢ هـ الذاهب إلى القول بخلافة الإنسان لله تعالى في الأرض، فإننا نجده يضع شروطاً، حيث يميز بين مكارم الشريعة والعبادات؛ لأن الإنسان لا يستحق مقام «الخلافة» إلا بتحري مكارم الشريعة، وتبدأ مكارم الشريعة بطهارة النفس بالتعلم للتوصل إلى الجود والصبر ليدرك الشجاعة والعلم، والعدالة لتصحيح الأفعال.

(١) ديانات أخرى، أنيس منصور ص ١٠١، ط. دار الشروق ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) المدارس للإسلام سيجد الإجابات عن تساؤلات كولن ولسن - لسان حال الأزمة الغربية - في نظراتها الدينية حول الإنسان وتجاربه وجدوى الصلوات التي يعقدها مع ربه ﷻ عن طريق العبادات.

وبعد استكمال هذه الدرجات فإنه أصبح المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وصلح لخلافة الله ﷺ^(١).

فأين هذه المكانة التي سعى المسلمون لتحقيقها في أوج حضارتهم، وما زالوا مطالبين من إحساس الإنسان «العصري» الذي يشعر بعدم الأهمية وأنه «صديق طارئ»^(٢).

ثانياً: ضرورة الأسوة في اجتياز الحياة الدنيوية

وقد مرّ بنا مما يعاني منه الإنسان الغربي أن تجاربه المعنوية صعبة وقصيرة ولا يستطيع الاحتفاظ بها، ومرد ذلك إلى افتقاد القدوة في السلوك والأعمال واجتياز العقبات في طريق الحياة.

ولتقريب معنى القدوة، وفهم دورها في ضوء علم النفس، نضع أمام القارئ رأياً لأحد علماء النفس المعاصرين حيث يرى أن: «المثل الأعلى الصائب» هو من الناحية السيكولوجية، ذلك الذي يستطيع جلب التوافق النفسي، باجتناب الانفعالات الغريزية جميعاً، وهو الذي يستطيع باستشارة الإرادة إلى غرض مشترك أن يصيب الفرد باعتباره وحدة سيكولوجية، في قالب كائن حي، وهو الذي يضمن تحقق الذات والسعادة، وذلك بإشباع السعي إلى الاكتمال، إن حيازة مثل أعلى أو غرض في الحياة هي إذن أهم الأمور الضرورية للإرادة القوية والخلق المتزن»^(٣).

وكانت المسيحية المبذلة لا تحمل في طياتها الشخص الأسوة في الأعمال الواقعية للإنسان في هذه الحياة، وتقتصر على جانب الزهد فحسب، أو كما يعبر عنها شوبنهاور

(١) الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٩، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، مراجعة وتقديم طه عبد الرؤوف سعد ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٢) ما بعد اللاتمتي ص ٢٠٧ وهذا التعريف ليس بأخر التعريفات التي تحبب فيها الفلاسفة من قبل، دعنا من آثار أفكار دارون وفرويد على نظرة الإنسان إلى نفسه وجنسه! ونلاحظ أن فلسفة ما لم تصب في تعريفها للإنسان ووضعه في مكانته الصحيحة اللائقة به حقاً منذ أرسطو إلى الآن.

(٣) هادفيلد: علم النفس والأخلاق ص ١١٥-١١٦، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم ومراجعة د. عبد العزيز القوصي، مكتبة مصر سنة ١٩٥٣م.

بقوله: (أما المسيحية فرأت في الدين رادعاً عن الطلب غير المجد للسعادة الدنيوية، وقد استمسكت في وسط الترف والسلطان الدنيويين بالمثل الأعلى للمقدّيس)^(١).

ولعلنا ندرّك عند المقارنة مدى كمال الإسلام حيث يستوفي القدوة في شخص الرسول ﷺ، حيث يغنينا بسنته عن محاولة التجارب التي تقصر حياتنا عن الخوض فيها.

وهنا يرى الأستاذ محمد أسد، المهتدي إلى الإسلام «ليوبولد فايس قبل إسلامه»: أن من حكم اتباع السنة تمرين الإنسان المسلم بطريقة منظمة على أن يحيا دائماً في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس، فإن هذا الانضباط السلوكي وفقاً لسنّته يؤدي إلى التخلص من الأعمال والعادات العفوية التي تعرقل النشاط الإنساني عن التقدم، يقول محمد أسد: (إن الأعمال والعادات التي تقوم عفو الساعة، تقوم في طريق التقدم الروحي للإنسان كأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة)^(٢).

فهل لنا أن نقف على سبب آخر من أسباب كمال الإسلام، حيث تفتقد العقيدة المسيحية المبدّلة شخصية الرسول القدوة، بل تخلط بين النبوة والألوهية؟

هذا، بينما تنفرد سيرة الرسول ﷺ بسماوات رئيسية بارزة تميزه عن سائر الرسل؛ لأنه آخر رسول للبشرية إلى قيام الساعة، وهو وحده الذي يظل أسوة في كل مسالك الحياة الإنسانية ودروبها المتشعبة..
والسموات التي نعينها هي:

(أ) أن التاريخ الصحيح يؤيدها ويدل على صحتها.

(ب) أنها جامعة ومحيطة بمناحي الحياة كلها وجميع شئونها وأطوارها، وهذه المناسبة يفصح لنا جارودي عن أحد أسباب إسلامه بقوله: (لأني وجدت أن النبي ﷺ الذي أتى بهذه الرسالة، ليس نبياً فقط بالمعنى التقليدي، الذي وجد في الأديان الأخرى،

(١) ويل ديورانت: قصة الفلسفة - ترجمة أحمد الشيباني ص ٥٧٧ - منشورات المكتبة الأهلية - بيروت.

(٢) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ص ١٠٤، ط دار العلم للملايين، بيروت، ترجمة د. عمر

ولكنه كان أيضًا رئيس دولة وقائد جيش وزوجًا ومشرعًا وقاضيًا.. كل هذه الجوانب التي تعددت وشملت كل نواحي الحياة الاجتماعية^(١)

(ج) أنها كاملة متسلسلة لا ينقصها أي حلقة من حلقات الحياة.

(د) وهي عملية بحيث يُعبر بها عن الفضائل والواجبات^(٢)

ثالثًا: العبادة معناها ودورها

ويعطينا الإسلام أيضًا صورة متناسقة تبين العلاقة بين مكونات الإنسان في خلقه من طين، ثم نفخ الروح فيه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢١﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٨-٩] لذلك أصبح في حاجة إلى نوعين من الحياة؛ أحدهما إشباع الاحتياجات والغرائز البدنية، والأخرى إشباع الروح المتطلعة شوقًا إلى أصلها بالعبادة، ويصفها الراغب الأصفهاني ٤٠٢ هـ بقوله: (هي فعل اختياري منافٍ للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى طاعة للشريعة)^(٣).

أما دورها فهو المحافظ على الفطرة التي خلق بها الإنسان المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلِيًّا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله ﷻ: ﴿صَبغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبغَةً وَنَحْنُ لَهُمْ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، والاستفهام في الآية للإنكار والنفي، فلا صبغة أحسن من صبغته تعالى، ويتساءل الراغب الأصفهاني: (فكيف

(١) الفيلسوف المسلم، أبو المجد حرك ص ٢٢٧، درا الفتح، مدينة نصر سنة ١٩٨٥ م «رحلة الفكر والحياة».

(٢) الرسالة المحمدية، سليمان الندوي ص ٤٢ ط. السلفية.

(٣) بين النشأة وتحصيل السعادتین (٤٨) من سلسلة الثقافة الإسلامية العدد ٢٨، ذو القعدة ١٣٨٠ هـ/

تذهب عنا صبغته ونحن نوّكدها بالعبادة وهي تزيل رين القلب فتنطع فيه صورة الهداية^(١).

وترتفع العبادة إلى أرقى مراتبها عندما يجب الإنسان أن يتحرى بها ابتغاء مرضاة الله تعالى، ويؤديها بانسراح صدر بدلاً من مجاهدة النفس، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إن استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمل وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير»^(٢).

وهناك ميزة تتفرد بها العبادات في الإسلام، إذ أطلقها من عقالها التي قيدها بها رجال الكنيسة في الكنائس والأديرة والكهنة في المعابد، وخرج بها إلى ميدان الحياة الإنسانية بكل شعبها، وليس أدل على ذلك من اتفاق العلماء قديماً وحديثاً على اتساع دائرتها، فهي لا تقتصر على العبادات الشرعية من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد، بل تشمل كافة أعمال الإنسان بشرط توافر النية للاتجاه بها إلى الله تعالى مع تحري الحلال وتجنب الحرام.

فمثلاً نجد الراغب الأصفهاني قد جعل من كل فعل يتحراه الإنسان عبادة، سواء كان الفعل واجباً أو نديباً أو مباحاً، ونجده متوسعاً في الأفعال المباحة؛ لأنه ما من مباح في رأيه إلا إذا تعاطاه الإنسان على ما يقتضيه حكم الله تعالى كان «كالإنسان في تعاطيه عابداً لله مستحقاً لثوابه»، مستنداً لخطاب النبي ﷺ لسعد ؓ: «إنك لتؤجر في كل شيء حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك»، وعلى هذا الوجه قال ﷺ أيضاً: «من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة» رواه مسلم، وفي رواية له: «فلا يغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة»، وفي رواية: «لا يغرس مسلم غرساً، ولا يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة»، يرزؤه أي ينقصه، ويُنظر رياض الصالحين للنووي باب: «في بيان كثرة طرق الخير»، ولكنه يشترط في هذه الأعمال بطبيعة الحال لكي

(١) تفسير القاسمي ج ٢ ص ٧٤.

(٢) الدررعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٤.

تكون عبادة مراعاة أمر الله تعالى في جميع الأمور، دقيقتها وجليلها، وأن يتحرى بها حكم الشريعة^(١)!

ويعرف ابن تيمية العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين وصللة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين من الأدميين والحيوانات، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله ﷺ وخشية الله، والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، كذلك أدخل ضمنها الإمارة أو الرئاسة (فالواجب اتخاذا الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد حال أكثر الناس لا بتغاء الرياسة أو المال بها)^(٢)!

ويرى الأستاذ محمد قطب أن الخطأ الأول - والأخطر - الذي ارتكبه المسلمون بعد العصور الأولى المفضلة هو حصر العبادة كلها في الشعائر التعبدية، بينما كان يفهم الجيل الأول الحياة كلها على أنها عبادة فيقول: (فلا شيء في حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة التي تنحصر فيها غاية الوجود الإنساني على هذه الأرض، وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة، كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها ونطاقاتها، الصلاة والنسك عبادة، والكسح عبادة، سواء كان كسحاً سياسياً أو اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو فكرياً أو علمياً... إلخ، والترويح عن القلوب حتى لا تكل ولا تمل عبادة)^(٣).

هذا هو مفهوم العبادة التي تجعل للحياة الإنسانية معنى، ويحدد لها أهدافاً تستحق

(١) تفصيل النشاطين ص ٤٨.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ١٨٤.

(٣) ينظر كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح» ص ١٩٤، ٢٠٣، ٢٠٤ ولزيد من التفاصيل يراجع فصل

«مفهوم العبادة» ص ١٧٣ وما بعدها، ط. دار الشروق ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

من أجلها بذل الجهد وتحمل المشاق والصبر عليها.

أما العبادات التي يخترعها بعض رجال الدين وتصبح من أسرارهم الخاصة، ويؤديها الأتباع بمشقة وعسر أو بغير فهم أو اقتناع، هذه العبادات تصبح موضع دهشة واستنكار، فما أثار دهشة واستنكار الشهيد أحمد سامي عبد الله «المهتدي للإسلام»، أنه رأى العبادات من وضع القديسين بعد رفع عيسى عليه السلام، وأنها لا تتعدى ترتيلات وأناشيد في أوقات غير محددة، ولا يقابلها ثواب أو عقاب، فضلاً عن صعوبة أدائها، إذ لا يستطيع تلاوة الصلوات إلا من يجيد القراءة والكتابة لأن حفظها عسير^(١).

(١) لماذا وكيف أسلمت؟ ص ١١٨، وفي موضع آخر يصف هؤلاء القديسين بقوله: (كانوا قديسين ضالعين في المسيحية أكثر من المسيح نفسه إذ إنهم أمعوا له الدين من بعده فتطوعوا مشكورين بوضع الصلاة الجماعية التي يصلونها هو ولم يضع أقوالها قبل رفعه إلى السماء، فاجتهدوا هم في وضعها وتنظيم ألقانها، ووضع عباراتها بعد ترك المسيح الأرض بستين عديدة) ص ٨٩ العدد ٦٥ من «دعوة الحق» الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي شعبان ١٤٠٧هـ / إبريل ١٩٨٧م.

الفصل الثاني

البرهمية أو الهندوكية^(١)

تمهيد

تفجر العقائد الهندوكية - أو البرهمية - أسئلة كثيرة، فتسرح الفرصة للتطرق إلى قضايا دينية لم تخل من تناوُلها عقيدة من العقائد، سواء كان أصلها سميًا أو وضعيًا منها: صلة الله تعالى بالمخلوقات، والتساؤل عن وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا أم لا.

ومنها: هل يهتدي بنو آدم إلى معرفة الحقائق من غير طريق الأنبياء؟ إذ لو صح الخبر عن إنكار بعض البراهمة للنبوّة والأنبياء فيؤدي بنا إلى العودة في بحث قدرات العقل ومدى إمكان تحمله أعباء أكثر من طاقته وفوق قدراته.

وتتداعى الأفكار للنظر في آراء ظهرت حديثًا لا تُقدّر النبوة حق قدرها، فتصف الأنبياء، والرسول بالمصلحين والعباقرة أو القادة، أو تعطي صفات النبوة لمن تهوى من البشر^(٢).

ومنها: هل تحقق وعيد إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [إلا عبادك منهم المخلصين] [الحجر: ٣٩-٤٠]، فها هي مظاهر الغواية متحققة، حيث تحولت شعوب وقبائل عن جادة التوحيد، فألجأتهم إلى عبادة البشر والحيوانات والشمس والقمر والكواكب وغيرها من الكائنات، وإن لم يكن ذلك استجابة لغواية إبليس، فما السبب الآخر المحتمل؟

(١) باعتبار الهندوسية «أو الهندوكية» دين متطور ومجموعة من تقاليد الهند وعاداتهم وصور حياتهم، وأطلق عليها البرهمية ابتداءً من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما «الإله الخالق» أو القوة العظيمة السحرية الكامنة التي تطلب كثيرًا من العبادات كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم القرابين، ومن براهما اشتقت الكلمة «البراهمة» لتكون علمًا على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة، لا تجوز الذبائح إلا في حضرهم وعلى أيديهم محمد عبد السلام، فلسفة الهند القديمة، ثقافة الهند، مارس ١٩٥٣، ص ١٩، نقلًا عن د. أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى ص ٣٩، مكتبة النهضة ١٩٧٦.

(٢) كما وُصف أحدهم في العصر الحاضر بنبي القومية العربية.

هل هو تقليد الآباء والأجداد، أم تعطيل العقل عن التفكير المنطقي بعيدًا عن الهوى؟

ربما كان التحليل النفسي الاجتماعي الذي أداه ابن الجوزي يدلنا على تفسير جزئي لهذه الظاهرة العجيبة، فقال: (غير أن هوى القوم في متابعة الأسلاف واستحلاء ما اخترعوه بأرائهم غطى على العقول، فلم تتأمل حقائق الأمور)^(١).

وكانت هناك محاولات للإصلاح، مثل ما فعله المصلح الهندي رامنا كرشنا، إذ رفض الهندوكية، ولم يعد يقدر الجبال والأنهار والحيوانات والأجداد (ولكنه يؤمن بأن العقول والقلوب كلها تتجه إلى قوة واحدة هذه القوة وراء كل شيء وكل إنسان وكل دين)^(٢).

ولكن تعديلاته كانت جزئية لأنه ظل معتقدًا بوحدة الوجود، فبعد أن درس الإسلام وأقر بأن الإسلام دين حق درس النصرانية أيضًا ثم أعلن وحدة الأديان فهي عنده كلها منسجمة^(٣).

ومما يلفت النظر أيضًا في الديانة الهندوكية الاعتقاد بالتناسخ، فتساوي بين مراتب الوجود الإنساني والحيواني وكأنها نسيج واحد، وسبيكة مختلطة العناصر، فافتقدوا معرفة الروح المميزة للإنسان دون غيره من سائر المخلوقات، وأنكروا البعث والحساب والعقاب في اليوم الآخر.

وتأتي أعجوبة الأعاجيب المتمثلة في عبادة الحيوانات ومنها البقرة، وسنجد الدفاع الحار عن هذا الفعل المنافي لكرامة الإنسان ومكاته! وما أصدق وصف ابن الجوزي لأمثال هؤلاء إذ وضعهم في مكانهم المناسب فقال: (وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر

(١) صيد الخاطر ص ٣٧٨، تحقيق عبد القادر عطا، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر سنة ١٩٧٩م.
(٢) ديانات أخرى، أنيس منصور ص ١٢٩، ١٣٠، ط. دار الشروق ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ثم انتشرت حركته في أوروبا وأمريكا.

(٣) نفسه ص ١٣١ ومن التعديلات التي أدخلت على الهندوكية ما قام به «ناناك» المؤسس لديانة السيخ، فقد تأثر بالإسلام وأعجب ببساطته وساحته وأن الله تعالى واحد، ولكنه في الوقت نفسه أنكر القيامة ص ٨٤.

وإن هؤلاء أحسن من إبليس، فإن إبليس أنف لادعائه الكمال أن يسجد لناقص فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وفرعون أنف أن يعبد شيئاً أصلاً^(١).

(١) السيد محمود أبو الفيض المنوفي: الدين والفلسفة والعلم ص ٤٦، ٤٩.

نماذج من انحدار العقائد من التوحيد إلى الشرك

البراهمة

لعل من أهم النماذج في هذا الصدد هو نموذج ديانة البراهمة، حيث اجتازت ثلاثة أدوار؛ الأول: دور التوحيد عند الهنود القدماء، وربما انحدروا من الأصل السامي «نسبة إلى سام بن نوح معلمهم ومرشدهم وراثة عن أبيه».

الثاني: دور الكهنة البرهميين ونشأة الثالوث الهندي «برهما، فشنو، سيفا».

الثالث: دور الشرك والوثنية، حيث اتسع نفوذ الكهنة فأنشئوا الامتيازات والاختصاصات ووضعوا نظام الطبقات، وزعموا أنهم يتفردون بمعرفة الحقائق العلوية، وستروا الحقائق عن الشعب فجئح إلى الشرك وتعدد الآلهة، وانحدر إلى عبادة الأشخاص والتمثيل والحيوانات^(١).

ولعل الأدوار الثلاثة ارتبطت بعقيدة التثليث في الديانة الهندية البرهمية، حيث كانت الديانة في دورها الأول قاصرة على عبادة إله واحد (تحت إرشاد بعض العباد والحكماء المخلصين، يعبدون القيوم، ويسبحونه دون البحث عن كيفية وجوده أو ماهية جوهره)^(٢).

أما الدور الثاني فقد ظهر فيه الكهنة وأنشئوا الطقوس، وأحدثوا عقيدة الثالوث الهندي البرهمي؛ برهما الإله الخالق، وفشنو الإله الحامي للخليقة وسائسها المعمر، وسيفا القوة التي تلاشي أو المفضي المعيد^(٣).

وكان الدور الثالث معبراً عن سيطرة الكهنة وتعميق نفوذهم على الشعب لإبقائه على حال من الجهل والغفلة ليتوصلوا إلى تسلم زمامه والاستعلاء عليه حيث وضعوا

(١) صيد الخاطر ص ٣٧٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٦.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٧، وهناك رأى لباحثين آخرين يتلخص في القول بأن هذه الديانة تعبر عن عقائد الآريين، ثم تأثرت بعد احتلالهم للهند بفلسفات وأفكار نشأت في الهند، ثم أصبحت الهندوسية بعيدة عن العقائد الآرية الأصلية، ص ٤٠، أديان الهند الكبرى، للدكتور أحمد شلبي.

أنفسهم في المرتبة الأعلى من السلم الاجتماعي الطبقي، وجعلوا باقي الطبقات دونهم كما يلي:

١- طبقة الكهنة والعلماء

٢- رجال الحرب وحماة الأوطان

٣- الزراعة والتجار

٤- أرباب الحرف والمهن الدنيئة وهم المنبوذون^(١)

ونعود فنرى في دور الكهنة كما بيّنا من قبل، أحد الأسباب الرئيسية في مسخ العقائد وتغييرها والانحراف بالبشرية من عبادة الواحد الأحد إلى تأليه الكهنة والوسطاء، ويعبر عن ذلك الاعتقاد بأن برهما حلّ في «البرهمانات» وهو رئيس الكهنة^(٢)، ونلاحظ أنه لا مكان للنبوة في عقائدهم فما سببه؟

نفي النبوات

ومما يلفت نظر الباحث أن المصادر الحديثة لم تشر إلى أحد المعالم البارزة في عقيدة البراهمة، وهي إنكارهم للنبوات، حيث عرف مؤرخونا - ومنهم الشهرستاني - أبرز عقائدهم وشرحها بشيء من التفصيل مع اهتمامه بصفة خاصة بإنكارهم للنبوات والرد عليهم^(٣).

يقول الشهرستاني: (من الناس من يظن أنهم سُمّوا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذلك خطأ، فإن هؤلاء هم المخصصون بنفي النبوات أصلاً، فكيف

(١) المرجع نفسه ص ٤٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٠١.

(٣) يرى الدكتور محمود حمية أن الشهرستاني قد أخطأ في نسبة إنكار النبوة إلى البراهمة كغيره من المؤرخين كالباقلائي والبغدادي، ص ٢٢٧.

وربما قصد الشهرستاني إحدى طوائف البراهمة، وهي ليست وحدها، بل يشاركها في نكران النبوة طوائف أخرى كالصابئة والدهرية والسمنية ص ٢٢٩، ٢٣٠ من كتابه «ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان» ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣ م.

وعلى أية حال، فقد اهتم علماء أهل السنة بقضية النبوة واحتلت مكانتها بكتب العقائد.

يقولون بإبراهيم عليه الصلاة والسلام؟) ثم يذكر أنهم انتسبوا إلى رجل منهم يقال له: «إبراهيم» الذي مهد لهم نفي النبوات مقررًا استحالة ذلك بوجوه، ويمضي فيبين لنا أهم هذه الوجوه، وتلخص في الآتي:

أولاً: أن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين؛ إمّا أن يكون معقولاً، وإما أن لا يكون معقولاً، فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فلا حاجة إلى رسول، وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً.

ثانياً: دلّ العقل على أن الله تعالى حكيم، والحكيم لا يتعبده الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم، فننظر في آيات خلقه بعقولنا، ونشكره بالآثار علينا، وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه، وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه، فما لنا نتبع بشرًا مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب؟^(١)

وكان الشهرستاني بارعًا في الرد عليهم إذ اتخذ من إقرارهم بحكمة الله تعالى مدخلًا لإثبات ضرورة النبوة، وحاجة البشرية إلى الرسل والأنبياء، لأنه تعالى كما أنه حكيم فإنه أمرنا به، حكم على خلقه، ولا يحيط العقل بمفرده بالحكم والأسباب والعلل، ويستطرد فيقول: (وليس كل عقل إنساني على استعداد ما يعقل عنه أمره، ولا كل نفس بشرية بمثابة من قبل عنه الحكمة، بل أوجبت منه ترتيبًا في العقول والنفوس، واقتضت قسمة أن يرفع: ﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] فرحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة، وذلك خير مما يجمعون بعقولهم المختلفة)^(٢).

وقد احتلت قضية النبوة مكانتها في كتب العقائد، واهتم أهل السنة والجماعة بشرحها وبيان تفاصيلها للرد على المخالفين حتى من المسلمين أنفسهم، كالمعتزلة القائلين بوجوب إرسال الأنبياء والرسل على الله تعالى بالنظر إلى ذاته، حيث يقول السفاريني:

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥١: ٢٥٢، تحقيق سيد الكيلاني، ط. الحلبي ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

(٢) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٢.

(والحق أنه جائز عقلاً في حقه تعالى واجب سمعاً وشرعاً)^(١)، ثم يبين أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع منة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه ذلك، وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق، والفضل عليهم فبعثه تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمد ﷺ أجمعين إلى المكلفين لطف من الله بهم ليلغوهم عنه سبحانه أمره ونهيه ووعدته ووعدته، ويبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد^(٢).

ويمضي السفاريني فيشرح دور الرسل كوسائط بين الله تعالى وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، إذ أرشدهم إلى توحيدته تعالى وإثبات صفاته وإثبات القدر، وذكر أيام الله تعالى في أولياته وأعدائه وهي القصص التي قصها على العباد، والأمثال التي ضربها لهم، وأرشدوهم إلى العلم بتفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله ويكرهه، وكذلك بينوا لهم وجوب الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب، وكل ذلك لا يهتدي العقل إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها.

كذلك استند إلى رأي ابن تيمية في حديثه عن المفاضلة بين العقل والشرع، إذ ليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار، فإن الحيوانات تفعل ذلك، بل التمييز بين الأفعال التي تنفع الإنسان في معاشه ومعاده، كنفخ التوحيد والعدل والبر والصدق والإحسان والأمانة، والعفة، والشجاعة، والعلم، والصبر، وأداء الحقوق، وإخلاص العلم،

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية «شرح الدرر المضية في عقيدة الفرق المرضية» للسفاريني ج ٢ ص ٢٥٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٩، ويقول ابن تيمية: (وكم يقول العلم بالنبوة لا يحصل إلا بعد النظر، وأنا لا أنظر، أو لا أعلم وجود النظر حتى أنظر)، ومن جواب هؤلاء أن حجة الله برسله قامت بالتمسك من العلم، فليس من شرط حجة الله تعالى علم المدعويين بها؛ ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعاً من قيام حجة الله تعالى عليهم، وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار الماثورة لا يمنع الحجة، إذ المكنة حاصلة؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَكَلَّمَ عَلَيْهِ ءآيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَيْمِهِ﴾ [لقمان].

٧٧. الرد على المنطقيين ص ٩٩، المكتبة الإمدادية، مكة المكرمة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

والتوكل على الله، والاستعانة به، والرضا بمواقع أقداره، والتسليم لحكمه، وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، ولولا الرسالة لم يمتد العقل إلى تفاصيل المنافع والمضار، بل أن لا بقاء لأهل الأرض إلا بدوام آثار الرسالة موجودة فيهم، فإذا دَرَسَتْ آثار الرسل من الأرض وانمحت معالم هُداهم خَرَّبَ الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة^(١).

وعلى أية حال، فإن علماء الإسلام كانوا محقين تمامًا في الإفاضة بشرح دور الرسل والأنبياء؛ لأن من العلامات البارزة في الإسلام الإيمان بالرسل جميعًا وخاتمهم محمد ﷺ، يزداد تقديرنا لاهتمامهم بقضية النبوة إذا علمنا أنه إزاء إنكار النبوات، ظهرت دعوى أخرى لا تقل خطورة في آثارها وهي إنكار ختم النبوة وظهور أنبياء كذبة.

أما باقي عناصر الديانة البرهمية «أو الهندوسية» فإنها تحتوي على خرافات وأساطير وعبادة الحيوانات - على رأسها البقرة التي تحتل عبادتها المكانة المرموقة في عقيدة الهنادك حتى الآن - كما سنرى ذلك على لسان غاندي زعيمهم المعروف، بالإضافة إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح والقول بوحدة الوجود، وقبل الخوض في هذه الموضوعات نُعرِّف أولاً بأقدم كتبهم وهي «الفيدا».

الفيدا: Veda أو الويدا

يوصف بأنه أهم كتبهم، ولا يعرف تاريخ كتابتها على وجه الدقة، إذ كانت موجودة قبل خمسة عشر قرنًا، وهي مجموعة أشعار يزعمون أن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها^(٢).

والفيدا أربعة كتب:

١ - الرجفيدا Rig Veda وهو أشهرها وأشدّها سحرًا للهنود وتأثيرًا فيهم، وتحتوي على أناشيد مختلفة، منها ما يتصل بأناشيد تناول شراب «سوما» المقدس عند الهنود خاصة بأساطير وحكايات خرافية.

(١) نفسه «باختصار» ص ٢٦٠-٢٦٢.

(٢) الإمام أبو زهرة: الديانات ص ٥١.

وتذكر الرجفیدا آلهة كثيرة؛ منها الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض والشجر والمطر والرياح والنور والحيوان.. إلخ، (وكل هذه الآلهة التي لا تحصى لكثرتها إنما هي في حقيقتها إله واحد، تعددت مظاهره فسمي كل مظهر إلهًا^(١)). وتكمن في هذه الفكرة عقيدة وحدة الوجود.

٢- ياجورودا **Yajur Veda** وتشمل العبارات الثرية التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين.

٣- ساما ويدا **Sama Veda** وتشمل الأغاني التي ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

٤- آثار ويدا **Athar Veda** وتشمل مقالات في السحر والرقى^(٢).

وقد طفحت كتب الفيدا بالأساطير والخرافات، ويصف لنا أحد الهنود المسلمين الذي خاض تجربة البحث عن الحق واهتدى إلى الإسلام فيقول: (لم أجد فيه إلا أساطير الأولين عن عبادة النار والبحر والأحجار وغيرها من الجهادات والبهائم التي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًا، فكيف بغيرها؟ كما يعلل خلق الكون فيها أحيانًا بصورة شنيعة قبيحة تنبعث منها رائحة منتنة يفر منها الإنسان اللبيب)^(٣).

ومن النماذج المنفرة والمنافية للعقول السليمة ما أورده كجزء من الباب الأول لكتاب يعتبر المصدر الأساسي لقانون الهندوكيين الذي يبحث في الخلق ونصه: (إن هذه الدنيا كانت غامضة لا توجد لها علاقة ولا وسيلة وليس في مقدرة أحد أن يتوسل إليها بالحجج والبراهين، ثم ظهر «بيرميشور» إله الآلهة بعبادة التكوين وأراد أن يخلق خلقًا من ذاته، فخلق الماء وألقى فيه نطفة، فصارت هذه النطفة بيضة فخرج منها «برهما» الخالق وكسر البيضة نصفين، فخلق من أحدهما الجنة ومن الثاني الأرض والسموات وما بينهما

(١) أحمد عبد الغفور: الديانات والعقائد ص ٨٨: ٨٩.

(٢) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٤٢: ٤٣.

(٣) عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا ج ٢ ص ١١٥، دار القلم الكويت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

والجهات الثمان والبحور الهادئة، ثم أخرج من فمه «براهمن» ومن عضده «كهترى» ومن فخذيه «ویش» ومن رجله «شودرا»، فما دام براهما مستيقظًا فالدنيا باقية، وإذا أخذ النوم تقوم القيامة»^(١).

عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة

يصف غوستاف لوبون عبادة الهنود للحيوانات والجمادات والإنسان، بقوله: (وهيئات أن تجد هندوسياً لا يعبد عددًا من الآلهة، فالعالم عنده زاخرٌ بها، حتى إنه يصلي للنمر الذي يقترس أنواعه، ولجسر الخط الحديدي الذي يصنعه الأوري، وللأوري نفسه عند الاقتضاء)^(٢).

ويرى الأستاذ عباس العقاد أن عبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمي، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى في بعض الأحياء فيحل فيهم فيحتمل حلوله في هذا الحيوان أو ذلك، أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جدًّا قديمًا أو صديقًا عائدًا إلى الحياة^(٣).

وتحتل عبادة البقرة بصفة خاصة مكانة بارزة بين المعبودات، كما يأتي الحديث عنها

(١) المرجع نفسه ص ١١٧.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٣٦٨ نقلًا عن د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٢٨.

(٣) الأستاذ عباس العقاد: الله ص ٧٧ نقلًا عن د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٢٩.

نشرت جريدة الأهرام القاهرية بعدها الصادر في ١٠/١/٢٠٠١م الخبر التالي: مع بداية العام الجديد، أصبحت القروء مشكلة مستعصية في الهند حيث تتجول الآلاف منها بحرية تامة في أروقة المقار الحكومية، وتفتحم المكاتب، وتسرق الطعام، وتدمر وثائق مهمة.

ويشكو المسؤولون الحكوميون في الهند من أن القروء ازدادت ضراوة، وأصبحت تتنقل بلا ضابط أو رابط في أروقة وزارات: الدفاع والمالية والشئون الخارجية، ووصلت أيضًا إلى مكتب رئيس الوزراء، ويقدر المسؤولون عدد القروء المنتشرة في قصر الرئاسة بنحو ١٠ آلاف قرد، ولأن قتل القروء محظور في الهند طبقًا للديانة الهندوسية، التي تحظر قتل أو ذبح أي كائن حي، فقد لجأت سلطات نيودلهي إلى اصطيادها ونقلها إلى ولايات أخرى، إلا أن هذا الحل لم يفلح أيضًا؛ لأن هذه الولايات رفضت استقبال المزيد منها، وقالت: إن لديها ما يكفيها.

وعن قدسيّتها، والصلاة لها في كتاب «الفيديا».

وقد أورد الدكتور أحمد شلبي نصوصًا مهمة تعبر عن مدى التقديس الذي يكنه الهنود للبقرة في أنفسهم، منها نص الصلاة إلى البقرة كالآتي: (أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء، في كل مظهر تظهرين به، أنت تدرّين اللبن في الفجر وعند الغسق، أو عجلًا صغيرًا، أو ثورًا كبيرًا، فلنعد لك مكانًا واسعًا نظيفًا يليق بك، وماءً نقيًا تشربينه، لعلك تنعمين بيننا بالسعادة»^(١)).

ويقول الأستاذ أنيس منصور: أما الثور فعلى الرغم من أن أمه بقرة وجدته بقرة، وابنته بقرة أيضًا، إلا أنه ليس محترمًا، وتطبق عليه أقسى أنواع القوانين والعقوبات، فهو منبوذ - وفي الهند فئة من المنبوذين عددها حوالي ٦٠ مليون نسمة - لا أعرف بالضبط عدد الثيران، ولكن هذا الحيوان المنبوذ يجر العربات ويحرق الأرض ويضربه الفلاحون، واليد التي تضربه هي نفس اليد التي ترتفع بالتحية لأمه أو لجدته أو حفيدته^(٢).

ثم يأتي المهاتما غاندي^(٣) فيخاطب البقرة ويناديها باسم «أمي البقرة» فيقول: إن حماية البقرة التي فرضتها الهندوسية، هي هدية الهند للعالم، هي إحساس رباط الأخوة بين الحيوان، الفكر الهندي يعتقد أن البقرة أم للإنسان وهي كذلك في الحقيقة، إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندي، وهي خير حماية للهند.

عندما أرى البقرة لا أعذبني أرى حيوانًا، لأنني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع.

وأمي البقرة تفضل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا، ولا

(١) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٣٠.

(٢) أنيس منصور، حول العالم في ٢٠٠ يوم، ص ٤٥، المكتب المصري الحديث ١٩٨٨م - والطبعة الأولى

١٩٦٣م.

(٣) المهاتما: الروح الكبير ويعني بذلك المفكر العظيم أو الشيخ المجمل.

تطلب منا شيئاً مقابل ذلك سوى الطعام العادي.

وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن عندما تمرض أمنا البقرة فلا نخسر لها شيئاً ذا بال، وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنتع كما كانت تفعل وهي حية، لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون.

أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم، ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة البقرة، إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعد نفسي واحداً من هؤلاء الملايين^(١).

ولكن تلميذه «نهر» اعترض على سجن الناس لأنفسهم طويلاً في طقوس وتعاليم أكلت صحتها ووقتها وطاقتها على العمل، وانشغلهم كثيراً فيما يجب أن يأكلوه وأن يشربوه، وعن هذا الذي يسمحون له بأن يكون قريباً يلمسونه أو لا يلمسونه وانشغلوا بالطبقات والطوائف أيها أشرف وأيها أقيح، وتوجه نهر إلى مواطنيه بالخطاب: (اتجهوا إلى العلم بنفس حماسكم للدين، إنه وحده يخلصكم من ظلام عشرات القرون)^(٢).

أما الشاعر الحكيم محمد إقبال، فله موقف آخر يعد دليلاً على تهافت الاحتجاج بتقليد الآباء والخضوع لسنن المجتمع الباطلة ما دامت لا تقوى على الصمود أمام النظر العقلي الباحث عن الحق، فمن المعروف أن إقبال نشأ وسط الأوثان وعبادة البقر، ولكنه رفض اعتناق عقائد هذا المجتمع واختار لنفسه الطريق السوي؛ ولهذا فهو حجة أيضاً أمام المتعلمين بظروف البيئة والعصر الذين جعلوا لها قوة أكثر فاعلية من إرادة الإنسان!

قال محمد إقبال: (إننا وإن ولدنا في بلاد عريقة في الوثنية إلا أننا رفضنا أن نعبد الثور والبقرة، وأبينا أن نطأ رءوسنا أمام الكهان، فلم نخر بين يدي الآلهة القديمة، ولم نطف

(١) المرجع نفسه ص ٣٢-٣٣.

(٢) ديانات أخرى، أنيس منصور ص ١٩ ط. دار الشروق ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

حول بلاط الملوك وقصور الأمراء^(١).

نستنتج من هذا أن الاختيار ما زال قائماً أمام الإنسان الذي يستطيع بمحض إرادته وبموجب اختياره إما أن يحترم كيانه ويعرف دوره وهدفه، ويؤكد عزته وكرامته كإنسان ينبغي ألا يخضع إلا لربه ﷻ، ولا يعبد سواه، أو يغفل عن ذلك كله: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

تقوم عقيدة التناسخ - أو تكرار الولادة والوفاة، أو تجوال الروح - على أساس فكرة العقاب للذين لم يستطيعوا أن يندمجوا في «الكل» الذي هو الإله في العقيدة البرهيمية لارتباطها بتصور أن الوجود واحد، فإذا ما مات الإنسان الشرير لا تنتقل روحه إلى إنسان آخر (بل يجوز أن تحل في كلب أو شجرة، وما يزال تكرار الوفاة فالولادة إلى أبد الأبدين، إذا لم تستطع أن تتجرد من الشهوات تجرداً تاماً يصعد بها إلى حيث يمكنها الاتحاد مع الكل، فإذا استطاعت الروح التخلص من إسار الشرِّ فإنها ستندمج في الكل لتنعم بالاتحاد معه، وبهذا الاتحاد تنجو من العذاب الذي يتجلى في الولادة الجديدة المتكررة^(٢).

ونستخلص من هذا تحول دار الدنيا عند البراهمة من دار ابتلاء واختبار والآخرة دار حساب وجزاء، إلى اعتبار الأرض دار جزاء وثواب^(٣).

وترجع فكرة التناسخ إلى نظرة البراهمة للنفس كجوهر (خالد صاف عالم مدرك تمام العلم والإدراك ما دام منفصلاً عن الجسد، فإذا فاض على الجسد واتصل به اعتكر صفاؤه

(١) من روائع إقبال - للندوي.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور العطار ص ١٠٣.

(٣) أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي - ص ٦٥.

ونقص علمه)^(١).

ويوضح لنا النص الذي نقله العلامة البيروني في هذه الفكرة توضيحًا تامًا على لسان قول باسريو لأرجن يخرضه على القتال: (إن كنت بالقضاء السابق مؤمنًا فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن بموتى لا ذاهبين ذهابًا لا رجوع معه، فإن الأرواح غير مائة ولا متغيرة، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة التي عقبها موت البدن، ثم العود له).

كذلك يصف له النفس بأنها (أبدية الوجود، ولا عن ولادة، ولا إلى تلف وعدم، بل هي ثابتة قائمة لا سيف يقطعها، ولا نار تحرقها، ولا ماء يغرقها، ولا ريح توبسها، ولكنها تنتقل من بدن نحو آخر، كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق، فما عملك لنفس لا تبيد؟!)^(٢) وهو بذلك يخرضه على القتال بشجاعة بلا خشية من الموت والقتل ما دامت النفس أبدية الوجود.

وانبثقت من عقيدة التناسخ أيضًا مجاهدة الهندوسي لنفسه والسعي نحو إلغاء إرادته ورغبات نفسه، أو باصطلاحهم «الفناء» في الكل.

وقد وردت العبارة الآتية عنهم: (من لم يرغب في شيء ولن يرغب، وتحرر من رق الأهواء، واطمأنت نفسه في نفسه، فإنه لا يعاد إلى حواسه، ويتحد بالبرهما فيصير هو، ويصبح الفاني باقياً)^(٣).

وقد انتقلت الفكرة إلى بعض صوفية المسلمين حيث كانوا يسعون إلى إماتة شهواتهم، وإعدام رغباتهم في سبيل الفناء في الله تعالى، وهو ما لا سبيل للوصول إليه، ولهذا تقوا معارضة قوية من علماء السنة^(٤).

(١) الإمام محمد أبو زهرة ص ٤٣، البيانات القديمة، ط. دار الفكر العربي ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

(٢) ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة للبيروني، نقلًا عن المصدر السابق، صفحة رقم ٤٤.

(٣) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٦٦.

(٤) ينظر كتابنا «ابن تيمية والتصوف» ط. دار الدعوة بالإسكندرية.

وحدة الوجود

ومن تصور التناسخ أو ولادة الأرواح تتضح عقيدة وحدة الوجود؛ لأن العقيدة البرهمية تنطوي على الظن بأن الكائنات تعود كلها في نهاية مطافها إلى المصدر الأول الذي نشأت عنه وهو الله (والإنسان أحد هذه الكائنات فيعرض له ما يعرض لها، وروحه قطرة من نور الله، انفصلت عن الله إلى أجل محدود، واتصلت به، ثم تتصل بعده بكائن آخر وآخر وهكذا على طريق التناسخ، وتجوال الأرواح، ثم تعود في النهاية إلى الله متى جاء الأجل) وهي تشبه دورة قطرة الماء في دورتها.. من صعودها بخارًا من البحر إلى انتقالها وتحولها من الثلج أو البرد وجريانها في الأنهار ثم رجوعها أخيرًا إلى البحر الذي انفصلت عنه^(١).

إن هذه الفكرة تقوض الإيمان بالله من أساسها، وهي - كما يصفها الشيخ الغزالي - عنوان آخر للإلحاد في وجود الله أو تعبير ملتبس للقول بوجود المادة فقط، وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه.

= أما الفناء الصحيح في رأيه فهو يتمثل في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ويقول ابن تيمية لشرح «الفناء» المجهود عند العارفين أنه تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فلا تشهد لمخلوق شيئًا من الإلهية، فيشهد أنه لا خالق غيره ويشهد أنه لا يستحق العبادة غيره، ويتحقق بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ كَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وإلا فإذا شهدت أنه المستحق للعبادة مع رؤيتك نفسك لم تشهد حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وإذا شهدت حقيقة أنه الفعال لكل شيء ولم تشهد أنه المستحق للعبادة دون ما سواه وأن عبادته إنما تكون بطاعة رسوله ﷺ، لم تشهد حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وإذا تحققت بقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ و﴿إِيَّاكَ كَسْتَعِينُ﴾ تحققت بالفناء في التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلْ إِلَيْهِ تَتَّبِعًا ۗ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨-٩]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۗ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد: ٣٠]، الرد على المنطقيين ص ٥٢١.

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، للدكتور عبد الواحد وافي، ص ١٦٥: ١٦٦.

ولو كانت الأرض لؤلؤًا ومرجانًا ما صح أن تكون «ذات الله»، إن الصاروخ شيء غير الإنسان الذي أطلقه، وكذلك فالعالم شيء غير الرب الذي أبدعه وسيّره^(١)، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۗ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]. ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٥٥﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ﴾ [الزمر: ٦٣]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ [المعارج: ٤].

ونفس الدرجة من الاهتمام لتوضيح هذا المعتقد وقف علماءنا على امتداد تاريخنا للدفاع عن عقيدة التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة، حيث يعتبر فهمها على وجهها الصحيح بمثابة الحصن الذي لاذّ به المسلمون لصد أي غزو ديني من خارج الإسلام للانحراف بعقيدته أو شريعته عما نزل به الوحي.

وفي ضوء دراسة الأديان منهج مقارن، نرى الإسلام وحده متميزًا بهذه الحصانة التي صد بها المحاولات الخبيثة الملتوية لتشويهه أو خلطه بتصورات أخرى منذ محاولة عبد الله بن سبأ ومن تبعه، ممن انحرفوا بالعقيدة، كنفى الصفات الإلهية بواسطة جهم بن صفوان والحلول عند الحلّاج، ووحدّة الوجود عند ابن عربي والفيض أو الصدور عند ابن سينا.

وتوالفت قافلة العلماء المجددين الذي تنبهوا إلى مظاهر الزيغ في العقيدة التي تنحرف بها من التوحيد إلى الشرك أو تخلط بين مشاركة الله تعالى وغيره في الألوهية.

وكان قد حدث في تاريخ الإسلام موقف مشابه عندما تسللت إلى بعض المسلمين من الجهمية «أتباع الجهم بن صفوان» فكرة أن الله تعالى (هو في كل مكان، وليس هو في مكان، ولا يختص بشيء، يجمعون دائمًا بين القولين المتناقضين؛ لأنهم يريدون إثبات موجود، وليس عندهم شيء فوق العالم فيتعين أن يكون هو العالم أو يكون فيه، ثم يريدون إثبات غير المخلوق فيقولون: ليس هو في العالم، كما ليس خارجًا عنه^(٢)).

(١) تأصيل اليقظة وترشيد الصحوحة - أنور الجندي ص ٨٨ - دار الاعتصام ١٩٨٧ م.

(٢) نقض المنطق، ابن تيمية ص ٥٠ : ٥١، تصحيح محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة.

وهناك تصدى لهم الأئمة، أمثال: مقاتل بن حيان، وسفيان الثوري، والإمام أحمد بن حنبل مبينين التصور الصحيح للعقيدة الإسلامية شارحين ما اختلط عليهم في فهم الآيات القرآنية التي تؤيدها الأدلة العقلية أيضًا؛ قال سفيان الثوري عن قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، قال: علمه، وقيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: الله ﷻ فوق السماء السابعة على عرشه من خلقه وقدرته وعلمه في كل مكان؟ قال: نعم، نعم على العرش «وعلمه» لا يخلو منه مكان^(١).

ومن هؤلاء الأئمة أيضًا ابن تيمية الذي أزعجته هذه المظاهر، حيث تسللت إلى المسلمين من خلال التصوف فكرة وحدة الوجود عن طريق ابن عربي ٦٣٨هـ الذي جوز هو وأتباعه عبادة كل شيء، وكأنهم ما عبدوا إلا الله؛ لأن المذهب يدور حول أن الوجود واحد.

يقول ابن عربي:

وقد كنت قبل اليوم أكره صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فأصبح قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان وديراً لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف وقرآن
أدين بسدين الحب أنى توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني ^(٢)

ويقول أيضًا: (فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء)^(٣).

ولقد عوضت فكرة وحدة الوجود بسبب انعكاساتها على العقيدة والأخلاق لأنه وفق هذه النظرة تصبح عبادة قوم موسى للعجل هي عبادة الله أيضًا، وتساوي بين عبادة الأصنام وعبادة الله تعالى، كما أدت هذه العقيدة الباطلة إلى تفسيرات مناقضة تمامًا

(١) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة... لللالكائي ج ٣ ص ٤٠١: ٤٠٢، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، دار

طيبة للنشر والتوزيع/ بالرياض.

(٢) ابن عربي: ترجمان الأشواق ص ٤٣: ٤٤.

(٣) فصوص الحكم ص ١٩٢.

للتوحيد الإسلامي، ومعاني الآيات القرآنية الجلية الواضحة، ومثال ذلك: رأي ابن عربي المخالف لصريح الآية القرآنية، حيث يصف موسى ﷺ بأنه كان قرّة عين لفرعون الذي آمن عند الغرق، (فقبضه طاهراً مطهراً، ليس فيه شيء من الخبث، لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام)^(١).

وعندئذ يعلق ابن تيمية، إذ يرى أن: (قوله لم يسبق إليه فيما أعلم أحد من أهل القبلة؛ لأن النص القرآني صريح في فسق فرعون، وكونه من المكذبين لموسى، الظالمين الداعين إلى النار)^(٢).

ويأتي تلميذه ابن القيم ليؤكد عقيدة التوحيد الإسلامية، ومن مقتضياتها التنزيه في أدق صورته وأرقاها؛ لأن الإسلام جاء ليصحح العقائد الباطلة كافة، ويعيد بني آدم إلى الصراط المستقيم في العقائد والعبادات والشرائع، يقول ابن القيم: (وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضى عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلمين، أشهدك ملكاً قيوماً فوق سمواته على عرشه يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويشيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع، ويسمع ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزّه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع)^(٣).

أما أثر وحدة الوجود في مجال الأخلاق، والسلوك الإنساني فإنها تؤدي إلى جبرية

(١) فصوص الحكم ص ٢٠١.

(٢) محيي الدين بن عربي وغلاة التصوف، لعباس الغراوي ص ١٤٢، من الكتاب التذكاري «محيي الدين ابن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده».

ولكن يلاحظ أن ابن تيمية يفرق بين أقوال ابن عربي بكتاب «فصوص الحكم» وبين سائر أقواله فيرى (أن المقالة مع كونها كفرًا فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيرًا؛ ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبوت غيره، بل هو كثير الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى، والله أعلم بما مات عليه) الفتاوى ج ٢ ص ١٤٣.

(٣) الفوائد، ص ٦٥، الناشر: زكريا إبراهيم، مطبعة العاصمة بالقاهرة، بدون تاريخ.

صارمة وتعطيل للإرادة، وتوقف التفكير، وامتناع التفرقة بين الخير والشر والتميز بين الثواب والعقاب، وسقوط قيمة الإلزام الخلقي، وزوال المسؤولية الأخلاقية بإسقاط ركنيها؛ العقل وحرية الاختيار^(١).

أما ديانة السيخ «وهي متفرعة من الهندوكية» فتنسب إلى رجل هندي اسمه «ناناك» ولد بولاية بنجاب سنة ١٤٦٩م وتأثر بالإسلام وأعجب ببساطته وساحته، وأن الله واحد وأنه هو الأول والآخر، وإن ظل على اعتقاد الهنادكة بوحدة الوجود. كما ظل متأثراً بالهندوكية لإنكاره البعث واعتقاده بالتناسخ، مع اختلافه مع الهنادكة في قولهم بالفناء، مفضلاً كلمة الاتحاد بالله، متصوراً أن الروح لا تفنى فيه ولكن تبقى ذات وجود متميز.

كذلك أحل الصفاء محل «الرفانا»؛ أي انعدام الرغبة، وصفاء الإنسان عنده يعني العجز عن الشر، إذ بعد اجتيازه لأنواع من الرياضيات النفسية يصبح الصفاء هو منتهى الإيجابية في تحقيق الخير!

ويقدر عدد السيخ في البنجاب وفي الهند بما لا يزيد على عشرة ملايين، وهم منتشرون في أوروبا وأمريكا^(٢).



(١) فتاوى ابن تيمية، ط. الرياض ج٢، ص ٢٧٩ «توحيد الربوبية».

(٢) من كتاب ديانات أخرى، أنيس منصور ص ٨٤ / ٨٥، ٨٩.

أوجه الشبه بين عقائد الهند والنصرانية

يمكن القول بأن هناك أوجه للشبه بين عقيدة النصارى وعقائد البراهمة، وربما كان المسئول عنها بولس، الذي اقتبس (اتجاهات التثليث وصلب المسيح ابن الله تكفيراً عن خطيئة البشر)^(١)، وغير ذلك من الملامح البارزة لعقيدة النصارى.

وهذا ما يدفعنا إلى بيان أوجه الشبه باقتضاب^(٢) بين العقائد الهندوسية والنصرانية، كما توجهنا هذه المناسبة إلى التعرف على أحد معالم الإسلام البارزة في الاحتفاظ بأصوله سليمة لم تمسها يد بشر مما ترتب عليه سهولة التمييز بين الأصل والدخيل، بين السنة والبدعة، ومن ثم فضح كل من يحاول الانحراف بعقائد الإسلام أو عباداته أو شرائعه.

ونرى أن ابن تيمية كان محققاً في قوله: (إن مثل بولس في النصارى كمثل ابن سبأ في المسلمين)، والقياس مع الفارق كما سيتضح بعد قليل، ولكنه قصد أن كليهما أراد إفساد الدين، وإذا كان نجاح بولس ساحقاً في تغيير العقائد من جذورها وتحويل النصارى جميعاً إلى وجهة أخرى لم يردّها المسيح ﷺ، بل إنه بريء منها، نرى أثر ابن سبأ لم يتعدّ دائرة الشيعة، أو الغلاة منهم، فقد طلبه علي بن أبي طالب رضي الله عنه لقتله وحرق بعض أتباعه، فهرب ولم يستطع - بالرغم من نجاحه المحدود - النفاذ إلى القاعدة الصلبة من صفوف المسلمين حينذاك، وهم جميعاً أصحاب الوعي العقائدي المستند إلى القرآن والسنة، ولأن نور النبوة الساطع جعل ابن سبأ وأتباعه القليلين يخطفون في الظلام كالحفافيش.

هذا وقد أورد مورس وليمس صاحب كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية»^(٣) مواضع المطابقة بين أقوال الهنود على لسان كرشنه - وهو من أشهر

(١) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٩٦.

(٢) للاستزادة راجع كتاب «الديانات القديمة» للشيخ محمد أبو زهرة من ص ٣ إلى ص ٤٢ الذي اعتمد على كتاب مورس وليمس «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية».

(٣) ومقابلة النص الصريح ابن كرشنه ويسوع المسيح يقع في الصفحات من ص ١١٩ إلى ص ١٣١، والكتاب نشره وعلق عليه وقدم له محمد بن إبراهيم الشيباني، ط. مكتبة ابن تيمية، الكويت

فلاستفهم؛ ولد حوالي ٤٨٠ قبل الميلاد، وبين ما جاء بالإنجيل عن المسيح عليه السلام، وذلك من خمسة وأربعين موضعاً، نجتزئ بعضها فيما يلي:

<p>أقوال النصارى المسيحيين في المسيح ابن الله يسوع المسيح: هو المخلص والفاذي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن والروح القدس.</p>	<p>أقوال الهنود الوثنيين في كرشنة ابن الله كرشنة: هو المخلص والفاذي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن والروح القدس.</p>
<p>- دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع المسيح وقال لها: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك.</p>	<p>- قد مجد الملائكة ديفاكي والدة كرشنة ابن الله، وقالوا: يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة.</p>
<p>- كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه ملك اليهود ولكنه ولد في حالة الذل والفقر بغار.</p>	<p>- كان كرشنة من سلالة ملوكانية ولكنه في غار بحال الذل والفقر.</p>
<p>- وسمع حاكم البلاد بولادة الطفل يسوع الإلهي وطلب قتله، وكى يتوصل إلى أمينته أمر بقتل كافة الأولاد الذي ولدوا في الليلة التي ولد فيها المسيح.</p>	<p>- وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل الإلهي وطلب قتل الولد كى يتوصل إلى أمينته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها كرشنة.</p>
<p>- واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح في مصر - لما ترك اليهودية - المطرية، ويقال: إنه عمل فيها آيات عديدة.</p>	<p>- واسم المدينة التي ولد فيها كرشنة مطرا وفيها عمل الآيات العجيبة ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان والقائلين عن كرشنة إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا.</p>
<p>- وبينما كان يسوع يلعب لسعت حية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم فلمس</p>	<p>- وفي أحد الأيام لسعت حية بعض أصحاب كرشنة الذين يلعب معهم فإتوا</p>

أقوال الهنود الوثنيين في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في المسيح ابن الله
فأشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعاً من الموت وعادوا أحياء.	يسوع ذاك الصبي بيده فعاد إلى حال صحته.
- وأول الآيات والعجائب التي عملها كرشنة شفاء الأبرص.	- وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع المسيح هي شفاء الأبرص.
- كرشنة صُلب ومات على الصليب.	- يسوع صُلب ومات على الصليب.
- ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات.	- ومات يسوع ثم قام من بين الأموات.
- وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً.	- وصعد يسوع إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً.
- ولسوف يأتي كرشنة في اليوم الأخير يكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.	- ولسوف يأتي يسوع في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.
- وهو - أي كرشنة - يدين الأموات في اليوم الأخير.	- ويدين يسوع الأموات في اليوم الأخير.
- كرشنة هو برهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسراره العجيبة الإلهية.	- يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره في الناسوت سر أسراره العظيمة الإلهية.

ولا شك أن هذا التشابه يثير التساؤل: أهو التقليد المحاكاة للبيئات والمجتمعات المجاورة؟ أم خضوع للمألوف والمتوارث عن الأجداد الوثنيين مع التبديل والتعديل؟ كل هذا جائز ومحتمل، ونضيف إليه عاملاً آخر، نعطيه قدرًا أكبر من الأهمية والفعالية؛ لأنه ناجم عن أمر صادر من أحد رجال الدين؛ جاء في كتاب يسوع المسيح للقس بولس إلياس: (أنه في مفتح القرن السابع الميلادي كتب البابا غريغوريوس الأول

الكبير إلى القديس أوغسطينوس أسقف كنتبري ببريطانيا يقول: دع البريطانيين وعاداتهم وأبقي لهم أعيادهم الوثنية واكتف بتتصير تلك الأعياد والعوائد واضعاً إله المسيحيين موضع آلهة الوثنيين^(١).

ويعلق الشيخ أبو زهرة على هذه المقارنات بقوله: (وإذا كانت البرهمية أسبق من النصرانية المحرّفة فقد علم إذن المشتق والمشتق منه، والأصل وما تفرع عنه، وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم)^(٢).

وإذا قال قائل بأن الاعتقاد بالتناسخ قد تسلل إلى بعض المسلمين، فإن ذلك يحتاج إلى شرح بيان: أثر الهندوكية لدى بعض المسلمين:

يمكن القول بأن الأثر الملموس الذي تركته الديانة الهندوكية في بعض المسلمين كان في نطاق ضيق محدود، إذ سرعان ما اكتشف بطلانه بسبب وعي علماء الإسلام بدينهم وعقائدهم، وقيامهم بدور التنبيه والتحذير من أية عقائد زائفة تتسرب إلى المسلمين عن طريق احتكاكهم بالأمم والثقافات والأديان الأخرى.

خذ مثلاً الاعتقاد بالتناسخ، فقد فضحه الأئمة والعلماء، ومنهم الإمام ابن حزم، الذي حصر القائلين به منبهاً إلى بطلانه؛ قال ابن حزم: (افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين: فذهبت الفرقة الأولى إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت، وهذا قول أحمد بن حنبل، وأحمد بن ناموس تلميذه، وأبي مسلم الخراساني، ومحمد بن زكريا الرازي الطيب الذي صرح بذلك في كتابه المسمى «العلم الإلهي» وهو قول القرامطة، وقال الرازي في بعض كتبه: لولا أنه لا سبيل إلى تخلص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية إلى الأجساد

(١) ملكوت الله: عبد المجيد الجندي ص ١٧٣ نقلاً عن: المسيح الدجال، سعيد أبوب ص ١٥٤ دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨٩ م، ونظراً لأنه كان يعتبر «أول بابا حقيقي» فيبدو أن تعاليمه ظلت سارية وعمل بها البابوات بعده) ... للتعرف على مكانته وأهميته يُنظر كتاب «بابوات من حي اليهود» تأليف: يواكيم بزرنر، وترجمة خالد عيسى ص ١١٨، ط. دار حسان بدمشق ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٩.

المتصورة بصورة الإنسان إلا بالقتل والذبح لما جاز قتل شيء من الحيوان أو ذبحه ألبتة»^(١).

ومما تسرب إلى بعض فرق الشيعة متصلًا بالتناسخ القول بالرجعة، فهي عودة الروح لحياة جديدة ولكنها في الرجعة تعود إلى الجسم، أي إن الشخص نفسه جسمًا وروحًا يعود للحياة بعد الموت، وقد قال بعض الإمامية بعودة علي بن أبي طالب عليه السلام، وقال أكثرهم بعودة الإمام الثاني عشر وهو المهدي وسموه: «المهدي المنتظر» وقالوا: إنه سيعود لأرض فيملؤها عدلًا بعد أن ملئت ظلماً.

وعلق ابن حزم على هذا الاتجاه وهو القول بالتناسخ بأنه دعوى وخرافات بلا دليل^(٢).

أما انحراف بعض عامة المسلمين الذين أدخلوا في عقائدهم بعض الاتجاهات الهندوسية، فإن ذلك يخرجهم من الإسلام مثل بعض اتجاهات الأحمديّة واتجاهات بعض أتباع «معين الدين شسيتي» وهناك وثيقة نشرها الدكتور أحمد شلبي تجعل زيارة ضريح هذا الشيخ تنوب عن الحج إلى بيت الله الحرام، وتقرر أن الطواف حول ما سماه ابن الشيخ «الروضة الشريفة» كالطواف حول الكعبة، وتسمى الباب المؤدي لساحة الضريح «باب الجنة»^(٣).

وإذا أخرجنا هؤلاء بسبب هذه العقائد من دائرة الإسلام، فلا صحة إذن لما يراه جوستاف لوبون من تكون حضارة جديدة نشأت من اتصال الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بالحضارة الهندوسية والفكر الهندوسي وتبادل التأثير بينهما وأطلق عليها اسم «الحضارة الهندية الإسلامية».

إننا لا نقر لوبون على رأيه إذ إنه خلط بين الحضارتين، بل دمج بينهما بسبب وجود

(١) الفصل جـ ١ ص ٩٠ نقلًا عن أديان الهند الكبرى، للدكتور أحمد شلبي.

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٦٥.

(٣) المرجع نفسه ص ٩٧.

تشابه عرضي بين بعض عامة^(١) المسلمين الذين تأثروا ببعض عقائد الهندوس وبين الآخرين الذين تأثروا بدورهم ببعض عقائد الإسلام وشعائره، ووجه القصور في نظرية لوبون وغيره من فلاسفة الغرب أنهم لا يميزون بين الخصائص المميزة للإسلام التي تستند أساساً على عقيدة التوحيد وبين ما لحق بالمسلمين من آثار ثقافية واجتماعية ظهرت إما بسبب تفشي الجهل بين عامتهم، أو بسبب الغزو الثقافي المتعمد أثناء الغزو العسكري للعالم الإسلامي في العصر الحديث، أضف إلى ذلك أن لوبون وغيره من الفلاسفة الغربيين لا يملكون الحصيلة العلمية الوفيرة عن الإسلام بشعبه كلها، فضلاً عن الوجدان السليم الذي يمكن صاحبه من الفرز بين ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي، ومن ثم اختلطت في أذهانهم العقائد والنحل فأدخلوا في دائرة الإسلام أمثال: غلام أحمد القادياني و فرق الإسماعيلية والبهائية أو البابية، وعلى حين أن هؤلاء قد خرجوا من دائرة الإسلام ولا يتمون إلى حضارته، بل إنهم بها أعلنوا من عقائد وما ابتدعوا من نحل يعتبرون معادين للإسلام.

ومن هذه النقطة نميز بين من يتمون إلى الإسلام بعقيدته الصحيحة وما يتصل بها من عبادات وشرائع، وبين المخالفين لها أيًا كانت جنسياتهم أو ألوانهم أو أوطانهم أو قومياتهم، لننتقل منها إلى تصور عالمية الإسلام.

وخلاصة القول إن دائرة الحضارة الإسلامية تتسع عالمياً فتشمل المسلمين على وجه الأرض ﴿ إِنَّ هَدِيَّةَ أُمَّتِكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿ وَإِنَّ هَدِيَّةَ أُمَّتِكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وبناءً على هذا التصور فإن علماء الهند المسلمين المستمسكين بالمنهج الإسلامي الصحيح يتمون إلى الحضارة الإسلامية الأم، ولا صلة عقائدية تربطهم بالحضارة الهندية حتى ولو ولدوا في الهند وعاشوا وماتوا بها؛ لأن عقيدة التوحيد هي الرابطة التي تربطهم

(١) من ذلك مثلاً أن بعض عامة المسلمين يبارسون تقديس الذخائر المائلة لتلك التي يعيدها البوذيون، وحدث مرة ثورة في كشمير لأن شعرة يقدها المسلمون سرقت لاعتقادهم أنها من شعرات الرسول ﷺ، ينظر ص ٩٨ وما بعدها من نفس المصدر.

بالأمة الإسلامية، وتفصل بينهم وبين الحضارة الهندية، وقد سجّل التاريخ أسماء الآلاف من علماء الهند بعد جيل الذين أسهموا بجهودهم العلمية في المحافظة على الإسلام وعلومه، وقامت المدارس والجامعات بدورها في توعية المسلمين لمواجهة حملات الغزو الغربي لآسيا في العصر الحديث، وكانت الهند - كما يقرر الشيخ الندوي - في طليعة دول مواجهة الإسلام وكان الشعب الإسلامي الهندي أرهف شعورًا دينيًا، وأرق وعيًا إسلاميًا وأشدّ غيرة على الإسلام من البلاد الإسلامية الأخرى، مستدلًا على ذلك بمساهماتهم القومية بعد حركة الخلافة، وحرصهم الشديد على التمسك بحضارتهم الإسلامية العريقة وبشعائرهم الدينية^(١).

والآن، بعد أن استعرضنا هذه الديانة وآثارها وما يدور حولها، يصح التوقف للاستفادة من ذلك كله في تعليق نوجزه في المسائل الآتية:

١- اتخاذ أديان الهند دليلًا واقعيًا على التردّي من عقيدة التوحيد إلى عقائد الشرك والوثنية (فالديانة البراهمية كانت في أصلها - على ما يبدو من نصوص أسفارها - ديانة توحيد، مشوبة بعقائد وحدة الوجود وتناسخ الأرواح ... ولكنها تغيرت وخرّفت على مر الأيام، وحلّت محلها عقيدة تثليث)^(٢).

ومن هنا يتبين أن منهج علماء السنة والجماعة المرتبط بالنصوص الموثقة كان عاصمًا من الوقوع في الانحرافات العقائدية التي وقعت فيها الأمم الأخرى.

٢- المهاوي التي يتردد إليها الإنسان حيث يتسفل إلى عبادة البقر إذا بُعد عن عبادة الله الواحد الأحد.

(١) الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ص ٢٧ مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، وبعد الإمام الندوي الهند من بلاد الإسلام الأربع، «أي تركيا ومصر وإيران والهند» التي واجهت منذ منتصف القرن التاسع عشر المسيحية، الحضارة والثقافة والفلسفات والمثل الغربية ص ٢٣، نفس المرجع.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١١٦ للدكتور عبد الواحد وافي، نهضة مصر ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

٣- افتقاد التشريع الإلهي بسبب وقوع المظالم الاجتماعية الصارخة التي نراها في نظام الطبقات في أشنع صورة، بينما نرى العدالة الاجتماعية متحققة في ظل التشريع الإسلامي عندما كان ساريًا في دولة الإسلام^(١).

٤- الانحراف عن تصور حقيقة الإنسان بوحدته النفسية الجسمية معًا، حيث أدى الغلو في «الروح» إلى إهمال الجسد وتعذيبه بافتعال التقشف والزهد، بل إحراقه بعد الموت.

٥- تفيدنا دراسة الأديان بمنهج الموازنة في تتبع المؤثرات الوافدة من العقائد الأخرى إلى المسلمين كوحدة الوجود والفناء والتناسخ.

٦- مسئولية الأمة الإسلامية لرفع أنواع الظلم الواقعة على المسلمين في الهند وغيرها من بلاد جنوب شرق آسيا، حيث يعاني المسلمون هناك ألوانًا من الاضطهاد والظلم والاعتداءات على الأنفس والأعراض والأموال لا لسبب إلا لاستمساكهم بالإسلام، يقول محمد ضياء الرحمن، المهتدي للإسلام: (وكانت العداوة للإسلام والمسلمين راسخة في قلوبنا نتيجة للاتهامات الكاذبة الشائعة عن ملوك المسلمين على لسان المؤرخين الهنالك)... (ومهما يكن من أمر معاداة الإسلام كانت من تراث آبائنا)^(٢).

٧- ويبقى من مهمتنا أخيرًا إقناع المدافعين عن الوثنية بزعم أنها تعبر في مرحلة ما عن حاجة البشر الفطرية، ثم تعدها إذا ما نضجت البشرية وبلغت سن الرشد، فحينئذ يستغني الإنسان عن «الوثنية» فتصبح التماثيل علامات ورموز، فنقول: إن إقناع أولئك سهل ميسور إذا وضعنا أمامهم الواقع المائل أمام دارسي العقائد والعبادات في الهند

(١) وهذا المبدأ ما زال يشع نوره لطالبي الهداية، يقول محمد ضياء الرحمن -المهتدي للإسلام- وكان هندوكياً قبل إسلامه: (من يعتنق الإسلام يصبح فردًا من عشيرة المسلمين لا فرق بينه وبين الذي يولد مسلمًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ص ١١٩، من كتاب رجال ونساء أسلموا/ عرفات كامل العشي الحلقة / ٢.

(٢) رجال ونساء أسلموا ص ١١٣-١٤١ الحلقة / ٢ إعداد وترجمة: عرفات كامل العشي - دار القلم، الكويت / ١٩٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

وغيرها، والتي ما زال أصحابها يعضون عليها بالنواجذ؛ لأنهم يعكفون عليها بإصرار وبصفة نهائية، حيث يتضح أن المعركة بين التوحيد والوثنية مستمرة، وإن أخذت شكلاً آخر في المجتمعات الغربية التي تعظم التماثيل وتهبى لها القاعات الخاصة والميادين العامة، وتحفها بمظاهر الإجلال والتقديس الدالة على عقيدة وثنية متغلغلة في النفوس، وليست كما يدعون تعبيراً عن مظهر حضاري، وإلا فما الفرق بين نظرة الهنادكة للتماثيل ونظرة الغربيين لها؟ إنهم يحيطونها بنفس مظاهر التقديس، بالوقوف أمامها بخشوع وتارة بانحناء مع وضع الزهور والرياحين والاحتفال بأعياد أصحابها.

ويصف الإمام أبو الحسن الندوي العصر إجمالاً بقوله: (... في مكان تعبد الأصنام والأوثان، وفي آخر تعبد العناصر والأجناس والأقوام، وفي أرض تعبد الأهواء والشهوات، وفي أخرى تعبد القوة والسلطة، وفي مكان تعبد الملوك والسلاطين، وفي مكان تعبد الأحرار والرهبان»^(١).

ونتابع حديثنا عن نحلة أخرى، انسلخت من البرهمية وثارَت عليها، وهي البوذية «نسبة إلى بوذا» لنرى هل استطاع بدوره حل مشكلات الحياة ولغزها كما زعم هو وأتباعه؟ أم أن الإنسان سيظل يتخبط في متاهات الجهل ما دام بعيداً عن الإذعان لوحي الله تعالى وشرعه، مصرّاً على وضع العقائد والأنظمة لنفسه؟

(١) ص ٢١ من كتابه رسالة سيرة النبي الأمين ﷺ إلى إنسان القرن العشرين، دار حراء، المحلة الكبرى بمصر ١٥ رجب سنة ١٣٩٩ هـ.

الفصل الثالث

البوذية

إن الحديث عن البوذية يذكرنا بالطرفين المتقابلين في تصور حقيقة السعادة الإنسانية، وكيفية تحقيقها قديماً وحديثاً؛ أي الفلسفة الأبيقورية قديماً والنفعية حديثاً، فكان أبيقور يعلن: (علينا ألا نتجنب اللذائذ، بل يجب أن نختارها)^(١).

وتبنى نفس الغاية ستيورات مل في العصر الحديث مع بعض التعديلات، ويقابلها في الطرف المضاد الفلسفة الرواقية، ورائدها زينون، الذي تحيل السعادة في الزهد وحياة التقشف وإماتة الرغبة في الحياة الطيبة وصنع الحياة بطابع التشاؤم بسبب الاعتقاد بالجبرية، وعبر عنها شوبنهاور في العصر الحديث، الذي رأى الكف عن النضال، فلا طائل من وراء أن تناضل الإرادة الفردية، ضد الإرادة الكونية^(٢).

وكلتا النظرتين خاطئتان لأنهما افتقدتا التقويم السليم للإنسان وعجزتا عن تقديم الإجابات الكافية الشافية عن الحق متحرراً من الهوى ... لكمال الإسلام، حيث نعثر فيه على إجابات لكل التساؤلات حول حياة الإنسان مصيره ودوره، كذلك يغذي بعقائده وعباداته احتياجاتنا، ويشبع أشواقنا عن طريق منهج معتدل في العبادات وطريق وسط في التقرب إلى الله ﷻ، وشرعية قويمه تبيح الطيبات من الرزق وتستجيب لنوازع الإنسان في إشباع اللذات بلا إفراط أو تفريط، بميزان معتدل لا تترجح كفتاه بين ضرورات الجسد وأشواق الروح، مع مزاولة النشاط الإيجابي في العمل والسعي للرزق وتعمير الأرض، فضلاً عن المذهب الإسلامي الأخلاقي المتكامل الأركان^(٣)، لذلك سنتحدث عن البوذية كديانة خرجت على البرهمية، ومذهب فلسفي أخلاقي.

(١) قصة الفلسفة: ويل ديورانت ص ٢٠٣ ترجمة أحمد الشيباني، المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٦٥م.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٢.

(٣) ينظر كتابنا: الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام، ص ١٦٥ وما بعدها، ط. دار الثقافة العربية

بالقاهرة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

الخروج على البرهمية

أدى نظام الطبقات، واستبداد البراهمة وإحساس طائفة الكشتريا «أي الحكم والسلطان وأعمال الجراءة والحرب» بالظلم، أدى ذلك إلى ثورتي خروج على البرهمية:

١- الجينية: وتنسب إلى الزعيم مهاويرا «أي البطل العظيم» ويسمى أيضًا جينا «أي القاهر والمتغلب».

٢- البوذية: نسبة إلى بوذا^(١).

وتتفقان معًا في العزوف عن المتع والملاذ الدنياوية، والميل إلى الرهبة والتبتل^(٢).

وسنكتفي بالحديث عن «البوذية» باعتبارها أكثر أتباعًا، وأبعد نفوذًا في الهند والصين واليابان^(٣)، بينما لا يتجاوز عدد الجينيين الآن نحو المليون. أما معالم اختلافها مع الهندوكية أو البرهمية؛ فإن الهندوكية تتضمن مجموعة كبيرة من الآلهة، بينما (أنكرت الجينية الإله ورفضت البوذية الحديث عنه، ولكن هذه الهوة لم يطل عمرها، فسرعان ما ألّه الجينيون مهاويرا والبوذيون بوذا واختلطت التماثيل والآلهة^(٤)).

لذلك اختلف الباحثون حول ما إذا كانت البوذية دينًا أو فلسفة، والسبب في إثارة هذا الاختلاف أن المنتع حياة بوذا يلاحظ أنه لم يتعرض في مباحثه لوجود الله، وأن الأساس الذي حاول فيه حل مسألة الحياة أساس فلسفي، فالبوذية بناء على هذا الرأي فلسفة، ولكنها في رأي البوذيين دين^(٥).

(١) كتاب أديان الهند الكبرى، للدكتور أحمد شلبي ص ١٠٨: ١٠٩ باختصار.

(٢) حيث اقتحمت حوالي ثلاثين قطرًا في آسيا بل تعدتها إلى أوروبا ص ١٨٤.

(٣) كان اسمه عند ولادته «سذهاتا» وفي مرحلة الرهبة (غوتاما) أي الراهب أو «موني» أي المنفرد المنعزل عن الناس ثم في النهاية «بوذا» أي العارف المستيقظ والعالم المتنور.

(٤) المرجع نفسه ص ١٩٤: ١٩٥.

(٥) المرجع نفسه ص ١٧١. وتفسير ذلك في رأي أحد الباحثين أن البوذي يستهدف الخلاص من عالم هو دائم الجريان، وجريانه مصدر ألم وشقاء، ولكنه لا يعتمد إلا على نفسه لتحقيق هذا الخلاص، فهو إذن لا يصلي إلى إله ولا يتعبد، وإنما ينطوي على نفسه ويتأمل، ص ٦٥ من كتاب د/ عادل العوا

ويرى الإمام أبو زهرة أن مذهب بوذا إصلاحى اجتماعى خُلقي، أكثر منه ديني^(١). وسيوضح ذلك بصورة أوضح إذا تتبعنا حياته وأفكاره وخطته الإصلاحية:

حياة بوذا

اتفق الباحثون في تاريخ الأديان والعقائد على أن سيرة بوذا لا تخلو من قصص خيالية وأساطير حيكت حوله منذ مولده حتى وفاته، حيث ينسبون إليه معجزات وكرامات.

وعلى أية حال، فسنسرد أهم وقائع حياته توطئة لاستخلاص مذهب ودعوته التي انتشرت في الآفاق حتى الآن؛ ولد في عام ٥٦٨ ق.م ونشأ في قصور أبيه الذي يعد من طبقة المحاربين، وعاش عيشة ترف، وتعلم الفروسية ثم تزوج في السادسة عشرة من عمره.

ولكن هذه الحياة الرغدة المنعمة لم تُحل بينه وبين مشاركة التعساء والمصابين أحزانهم، وآلامهم (فقد خرج من القصر ذات يوم فرأى شيخاً فانياً وعاد إلى منزله يفكر فيما يفعل الزمن بالمرء من تغيير، حيث يسلبه القوة والنضارة والحيوية والعافية، وفي اليوم الثاني رأى مريضاً أتلغه السقم والداء، فرجع حزيناً يفكر: لماذا يمرض هذا المسكين؟ من الذي يغير حاله؟ ولماذا تستحيل حياته عذاباً؟ وفي اليوم الثالث رأى جنازة ميت، فعاد والحزن والألم يعتصران قلبه^(٢).

وعمقت هذه المشاهد في نفسه إحساس التشاؤم، ودفعته إلى التساؤل عن كيفية الحل لهذه المشكلات في رأيه، أي الشباب الذي ذوى والصحة التي تفتى والعمر الذي يمضي، وأدت به إلى ما تحفل به الدنيا من ألم وشقاء وتعب، فأخذ يبحث عن سبيل الخلاص،

= «علم الأديان وبنية الفكر الإسلامى» منشورات عويدات، بيروت - باريس سنة ١٩٨٩م. ويرى أن تطور البوذية أدى إلى تأليه «بوذا» واعتبار رئيس كهنة البوذية في التبت أي «دلاي - لاما» تجسده الدائم ص ٧٩.

(١) محمد أبو زهرة: الديانات القديمة ص ٧٠، ط. دار الفكر العربي ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور ج ١ ص ١٦٧، أحمد عبد الغفور عطار.

مصممًا على البحث عن الحقيقة مهما كلفه الأمر، وكان حينذاك في التاسعة والعشرين من عمره، حيث ودع زوجته وابنه وترك القصر هائلاً على وجهه، ثم استبدل ملابسه مع سائل في الطريق، وتوجه إلى الكهوف ليقوم مع بعض النساك البراهمة، فنافسهم في حياة الزهد والتنسك.

ولم يكتف بهذا القدر من الزهد والتقشف على طريقة النساك البراهمة، وإنما أدرك أن البرهمية عاجزة عن حل لغز الوجود ومشكلة الحياة، فانصرف إلى غاية أخرى وازداد قوة على نفسه متقلباً في أشد ضروب التقشف والحرمان وإذلال البدن، وقضى ست سنوات في هذه الحياة حتى أشرف على الهلاك، وذاع صيته في الآفاق.

وتبالغ الأسطورة في وصف حالته آنذاك فتصوره بأنه أخذ في تعذيب جسده حتى لم يبق به حركة، فبلغ السكون التام حتى كانت الطيور تقع عليه آمنة وتتحرك الوحوش خلفه مطمئنة.

ولما بلغت به حالة التقشف والحرمان إلى فقدان القوة عن الحركة، وعطلت فيه قوى الفكر قرر ترك هذه الحياة المشرفة في تعذيب الجسد عائداً إلى الطعام والشراب والكساء، فبدأ يستعيد نشاطه وقوته فمضى سائراً في سبيله حيث وجد شجرة فجلس يستظل بظلها^(١). وعندئذ حدثت واقعة حصوله على المعرفة «النرفانا»..

النرفانا

تروي الأساطير أنه أثناء جلوسه تحت ظل الشجرة -وهي شجرة تين في رواية- فاض عليه العلم، وانكشفت له كثير من أسرار العالم^(٢)، أو أنه حصل على الإشراق التي كان يترقبها^(٣)، فما هي هذه الأسرار؟ وما صفة هذه الإشراق وطبيعتها وثمرتها؟

(١) نفس المصدر السابق باختصار من ١١٦-١٢٠.

(٢) أبو فيض المنوفي: الدين والفلسفة والعلم ص ٥١.

(٣) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ١٤٢، وزعم بوذا أنه سمع صوتاً من داخله يقول بكل جلاء وقوة: نعم في الكون حق أيها الناسك، هنالك حق لا ريب فيه، جاهد نفسك اليوم حتى تناله.

لندعه أولاً يعبر عن نفسه حيث يقول: (جلست تحت تلك الشجرة في تلك الليلة من شهر الأزهار، وقلت لعقلي وجسدي: اسمعاً، لا تبرحاً هذا المكان حتى أجد ذلك الحق، لينشف الجلد، ولتقطع العروق ولتفصل العظام، وليقف الدم عن الجريان، لن أقوم من مكاني حتى أعرف الحق الذي أشده فينجيني).

وإذا تأملنا إفصاحه عن تجربته الإشراقية نراها لا تروي غليلنا في معرفة «الحق» الذي كان يبحث عنه، وصلة الحق بهدف «النجاة» ومم يطلب النجاة؟^(١)

وما دامت قد أعتنا الحيلة فلنجرب الاسترشاد بشروح الباحثين، ومنهم أحد علماء الهند - محمد عبد السلام الرامبوري - حيث يصف «بودا» بأنه استغرق في التأمل فغاب عن نفسه، وعن كل ما حوله وانتقل من حال إلى حال وأخذ شعوره يتجلى رويداً رويداً فأشرق له الكون، وتجرد عقله من شوائب المادية ورأى العالم في تقلباته ثم يمضي مستطرذاً (وقد غلب اللاهوت وتنور اللاهوت، فذاق سروراً ما خطر بباله قبل، ووجد قوة ما استشعر بها قط، فأبصر ينابيع الحياة وأحاط بمنابع الآلام، واستوعب منابت البؤس، واكتشف مقاليد السرور، ورأى سبيلاً يهدي إلى تلاشي الأحزان وزهوق الآلام، فأدرك متمناه ونال مبتغاه وتخلص من تقلبات الحياة ونجا من حزازات الآلام، وتيقظ شعوره وتنورت بصيرته)^(٢).

(١) اتفق الباحثون على صعوبة تفسير الترفانا؛ لأن بودا نفسه رفض شرحها بطريقة مفهومة كما يقول «ردها كرشن» ويقرر أنه لا يجدي نفعاً أن نحاول فهمها، بل ربما كانت اللغات البشرية لا تستطيع شرح الترفانا، نفس المصدر ص ١٦١.

(٢) بحث في ثقافة الهند، ديسمبر ١٩٥٢، نقلاً عن أديان الهند الكبرى ص ١٦١.
(أما مفهوم التركيز الإبداعي فقد بدا وكأنه أهمل أو أشير إليه بطريق عابرة أو اختلط لدى عديد من الباحثين بمفهوم «التأمل المتعالي» أو «الصفاء الروحي» أو الترفانا الآتي من جنوب شرق آسيا، وقد انتشرت التدريبات الخاصة به في الولايات المتحدة وأوروبا في العقد الثامن من هذا القرن ١٩٧٠-١٩٨٠ وتتكون من جلستين كل منهما من ١٥-٢٠ دقيقة بوضع الفرد فيها في وضع مريح مغلق العينين ويركز على صوت أو فكرة معينة ويسمح لذهنه بالتعامل الحر معها، ويقال: إن هذا يتيح للذهن أن يكون حرّاً في أن يتحرك أكثر إلى المستويات الإبداعية من التفكير).

تلك هي خلاصة الصورة البيانية لتجربة بوذا، حيث يدور معظمها حول معاني مبهمة أقرب إلى الصور الخيالية منها إلى التعبير الدقيق عن الأحوال التي مر بها، وكل ما نستخلصه من شرح أحواله أنه تقلب من الآلام إلى السرور بعد أن غاب عن نفسه وعمن حوله، وأشرق له الكون حين تجرد عقله من شوائب المادية، هذا وقد بلغ من سيطرة فكرة النرفانا حدًا جعلتها تحتلط عند كثير من الباحثين بمفهوم التركيز الإبداعي بأوروبا وأمريكا، يقول الدكتور شاكر عبد الحميد بمقال بعنوان: «عمليات التركيز الإبداعي في الأدب والفن» ولكن بقي أن نفهم المقصود «بالغناء» حيث تروي الأساطير أن رحلة الروح تصعد إلى «النرفانا» حيث العدم العام، وفناء النفس، الذي يفسره بعض فلاسفة البوذيين العصريين بأنه ليس الفناء المعروف (وإنما هو وجود يقنى في وجود، مثل: فناء ألوان الطيف في الشمس في البياض الناصع الذي لا لون له.... ولا يتم الوصول إلى النرفانا إلا بعد صفاء النفس والانفصال عن عالم الحس والواقع، ولا يمكن الوصول إلا بتعذيب النفس والعبادة الظاهرة)^(١).

وحاصل البحث والتنقيب في كل ما تقدم يدفعنا إلى الكف عن المضي في التفسير والتحليل، مكتفين بقبول التصور العام للنرفانا كطريقة موصلة إلى معرفة الإشراقية بعد تخليص النفس من رغباتها.

إن هذا الإيضاح نجده بالتفصيل لدى الدكتور أحمد شلبي، حيث خلص إلى تقرير أن النرفانا مرت بمراحل تاريخية إذ كان مفهومها عند بوذا في البداية الاندماج في الله والفناء فيه، وعندما أنكر وجود إله أصبح للنرفانا أحد معنيين:

١- أن يظهر الفرد نفسه بالقضاء على جميع رغباته وأغراضه؛ لأن الأغراض الشخصية الباطلة تجعل الحياة دنيئة أو ذليلة.

٢- إنقاذ نفسه من تكرار المولد بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير

مثال: عمليات التركيز الإبداعي في الأدب والفن: مجلة المنهل، العدد ٤٧٤ السنة ٥٦، المجلد ٥١ صفر سنة ١٤١٠هـ/ سبتمبر سنة ١٩٨٩م. د. شاكر عبد الحميد سليمان آداب القاهرة.

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور عطار ج١ ص ١٢١.

والشر^(١)...... ولتقوم الآن النرفانا بميزان الإسلام^(٢)

النرفانا في ميزان الإسلام

قبل المضي قدماً في عرض المذهب الأخلاقي للدين البوذي، نرى ضرورة تحليل موقف بوذا من النرفانا من وجهة النظر الإسلامية.

وتمهيداً لذلك نرى أولاً أنه من المحتمل أن بوذا أصيب بنوع من المرض النفسي أو العصبي نتيجة حياة الحرمان والتقشف والانقطاع عن الناس والحياة داخل الكهوف، فخيّل إليه سماع ذلك الهاتف وسيطر عليه وملك نفسه وساعد على التمكن منه الضعف الجسدي والاستهلاك العصبي الشديد.

أما تقويم ما حدث لبوذا في تجربة النرفانا، فتتلخص فيما يلي:

أولاً: لو سلمنا بصحة سماعه لصوت هاتف فإننا نرجح أنه استمع إلى هاتف شيطاني^(٣)، وتفسيرنا يستند إلى الاعتقاد بأن الشيطان يتسلط على كل من يبعد عن ذكر الله تعالى وعبادته، حيث يذكر الإمام ابن القيم أن العبد إذا أصبح وأمسى والدنيا همه، حمله الله همومها وغموها وأنكادها ووكله إلى نفسه، وهذا شأن كل من أعرض عن عبودية الله تعالى وطاعته ومحبه مستشهداً بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]^(٤).

والذي لا يعرفه أتباع النحلة البوذية أن الإنسان يتلقى هاتفين؛ أحدهما من الشيطان

(١) أديان الهند الكبرى ص ١٦١.

(٢) وسنقصر التعليق على الرواية المنقولة عن بوذا بأنه سمع صوتاً من داخله، ثم غالى بعض الباحثين الغربيين فاعتبروه حياً - نفسه ص ١٤٢.

(٣) يقول ابن تيمية: (فكل واحد من بني آدم إما عابد للرحمن، وإما عابد للشيطان، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ...﴾ [الزخرف: ٣٦]، ص ١٨٦، من كتاب دقائق التفسير ج ٣ تحقيق د. الجليلند، ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

(٤) ابن القيم: الفوائد ص ٧٧، الناشر: زكريا على يوسف، مطبعة العاصمة بالقاهرة، بدون تاريخ.

والآخر من الملك، ولما لم يستطع التمييز بينهما فإنه سرعان ما يستأثر به الشيطان لنفسه ويزين له الباطل ويقوده حيث يريد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالاقتادات والإرادات الفاسدة تحصل بسبب شياطين الإنس والجن، والاعتقادات الصحيحة والإرادات المحمودة قد تحصل بسبب الملائكة وصالحى الإنس، فإن سماع الكلم قد يؤثر في قلب المستمع، فالتكلم فاعل؛ فإن كان السامع قابلاً انتقش كلامه في قلبه، وإن لم يكن قابلاً لهم ينتقش فيه) (١).

إنه يستند في ذلك إلى قول سلف الأمة الإسلامية والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين (فإنهم يقولون: إن الشياطين توسوس في نفوس بني آدم العقائد الفاسدة والأمر باتباع الهوى، وأن الملائكة بالعكس إنما تقذف في القلوب الصدق والعدل).

قال ابن مسعود: (إن للملك لمة وللشيطان لمسة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق) (٢)، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد وقد وكل به قرينه من الملائكة ومن الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإيائي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم» وفي لفظ: «فلا يأمرني إلا بخير» (٣).

ثانياً: لا تتحقق السعادة الكاملة الدنيوية، بل يستحيل النجاة من الأحزان فيها؛ لأنها دار ابتلاء وامتحان، وأنها موضوعة على الكدر والمعاناة، فلا راحة فيها، فمن طلب فيها

(١) الرد على المنطقيين ص ٥٠٩، المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م. ويذكر أن العاصم من الوقوع في الزلل هو خير الأنبياء عليهم السلام.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٥٠٦، وقد حَرَّجَ محقق الكتاب الشيخ عبد الصمد شرف الدين الحديثي على النحو التالي؛ الأول: رواه مسعود عن عطاء، وابن السائب أبي الأحوص عن ابن مسعود موقوفاً. ورواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود مرفوعاً، والثاني: أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار... وقوله «فأسلم» برفع الميم وفتحها، فمن رفع قال معناه: «أسلم أنا من شره وفتنته» ومن فتح قال: «إن القرين أسلم من الإسلام» وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير - النووي.

(٣) رواه الترمذي في «أبواب التفسير» في تفسير سورة البقرة عن عبد الله بن مسعود وقال: هذا حديث حسن غريب.

الراحة فإنه يتبغي من الدنيا (ما ليس في طبيعتها لا موجود فيها ولها)^(١).

ولكن لا يدفعنا هذا الاعتقاد إلى تبني النظرة التشاؤمية الغالية التي تلقي بشباكها فقط على منابع الآلام ومنابت البؤس، فإن من يفعل ذلك كمن ينظر إلى الحياة الدنيوية بعين واحدة، فإن الدنيا لا تمشي على وتيرة واحدة، بل لا بد فيها من اليسر العسر، والخوف والطمأنينة، والراحة والتعب، والحزن والسرور، والفقير والغني وهكذا دواليك، إذ ربما لا يسير نهر الحياة في مجرى مستقيم يجتاز خطأ واحداً، بل يتفرع وينساب هنا وهناك حسب طبيعة الأرض التي يجتازها مجراها، ولكن لا يمنعه ذلك من استمرار جريانه حتى يصل إلى مصبّه.

إن البديل إذن مستمدٌ من نظرةٍ أوسع للحياة وللمصير، يغذيها إيمان لا يتزعزع بالحكمة الإلهية التي تقصر أفهامنا عن إدراكها لأول وهلة، وربما يأتيها الفهم بعد انقضاء الأحداث والوقائع التي نظن أنها -للهولة الأولى- مؤلمة للنفس.

كذلك لا يتحقق التكيف النفسي المؤدي إلى انشراح الصدر إلا بالاعتناع بحقيقة الابتلاء في الدنيا، ومن ثم فإن المسلم يكيّف حياته وفق هذا القالب، ويصحح نظرتة ويعد لها أولاً بأول إذا ما مرّ بتجارب مؤلمة، أو عانى من الإخفاق في نيل بعض أغراضه ومقاصده.

وهاهو ابن الجوزي ٥٩٧هـ يضع الصياغة الملائمة للموقف الصحيح المؤدي إلى تقبل آلام الحياة عن اقتناع بمبادئ خمسة هي:

- ١- إن طلبت النفس أغراضها ولم تصبر على الحرمان فإن ذلك ينافي طبيعة الدنيا كدار ابتلاء واختبار «وهل الابتلاء إلا الإعراض وعكس المقاصد»؟
- ٢- إن النفس مملوكة لخالقها ﷻ وواجبها أداء حقه، ولا يجب على المالك تبليغها ما تهوى.

(١) تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين للراغب الأصفهاني ص ٣٩، سلسلة الثقافة الإسلامية - ذو

٣- تقف المعاصي عقبة في طريق إجابة الدعاء وتحقيق الرغبات، بينما سبب الراحة التقوى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٤- ربما تطلب النفس ما لا تعلم عاقبته وربما كان فيه ضررها، والمدير لها ﷻ أعلم بالمصالح: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٥- إن المطلوب يتقص الأجر ويحط من المرتبة، فالأولى طلب ما يصلح الآخرة^(١).

ثالثاً: إذا حاول الإنسان التحليق بروحه في الآفاق ظناً أنه يتخلص من دوافع النفس وهواتف الغرائز، فكأنها يبحث عن المحال، اللهم إلا إذا توهم الفناء -أي العدم- أمراً يمكن التحقيق.

فإذا علمنا أن الموت نفسه ليس فناءً، بل هو نقلة من حياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، فكيف نتصور أو نصدق تجربة بوذا التي هي أقرب إلى الوهم والخيال منها إلى الحقيقة والواقع؟ دعك من اتخاذها ديناً يدين به الملايين، ويحقق التساؤل أيضاً ههنا: (وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار ديناً يدان به؟)^(٢).

النرفانا وأثرها عند الصوفية

وكانت للنرفانا بتجربتها النفسية والأخلاقية بريق خاص في دائرة الصوفية كما كان لفكرة «الفناء» عند الهندوس صداها أيضاً كما قلنا من قبل.

إن الحديث عن النرفانا كطريقة للمعرفة تثير قضية تسللها إلى الصوفية إذ دار النقاش بينهم وبين المتلكمين؛ لأن الصوفية تبنا المنهج القريب من النرفانا، فمنهم من رأى أن «صاحب» الرياضة قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى بن عمران ﷺ^(٣)، ويقصدون الرياضة تصفية القلب والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل والإكثار من العبادات

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ٢٤٤ - ٢٤٥ بتصرف - تحقيق عبد القادر عطا - مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٩٧٩ م.

(٢) الفوائد: لابن القيم ص ٩٨.

(٣) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ٥١١.

كالصلاة والصوم ومداومة الذكر.

ومثال ذلك ما رواه ابن الجوزي، قال: (فرأيت أبا حامد الطوسي يحكي عن نفسه في بعض مصنفاته قال: شاورت متبوعًا مقدمًا في الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن فمنعني منه، وقال: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية، بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم، بل تصير إلى حالة يستوي عندك وجود ذلك وعدمه، ثم تخلو بنفسك في زاوية، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، ولا تزال تقول: الله الله إلى أن تنتهي إلى حالة لو ترك تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، ثم تنتظر ما يفتح عليك مما فتح مثله على الأنبياء والأولياء)^(١).

وعارضهم المتكلمون أصحاب المنهج العقلي، ونفوا دور الرياضة وتصفية القلب في نيل العلم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية حاسمًا للنقاش بين الطرفين عندما أوضح بناء على تفسيره للآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن (التقوى وتصفية القلب من أعظم الأسباب لنيل العلم)^(٢).

ويؤيد من جانب ما يأمر به كثير من أرباب العبادة والتصوف بملازمة الذكر يلتمسون الوصول إلى الحق، فإن هذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك^(٣).

ولكنه في الوقت نفسه يحدد الشرط العاصم للإنسان من الزلل والخطأ - حتى لا يقع

(١) صيد الخاطر ص ٤٢٠ تحقيق عبد القادر عطا - مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٩٧٩م.

(٢) المرجع نفسه ص ٥١١.

(٣) نقض المنطق ص ٣٥، ونذكر هنا أيضًا عبارته الثانية عن الفناء المحمود وهو عنده يعني (تحقيق الحنيفية وهو إخلاص الدين لله، وهو أن يفنى بعبادته عن عبادة من سواه، وبمحبه عن محبة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبخشيتيه عن خشية ما سواه، وبالحب فيه والبغض فيه عن الحب فيما سواه والبغض فيما سواه، فلا يكون لمخلوق من المخلوقين - لا لنفسه ولا لغير نفسه - على قلبه شركة مع الله تعالى) ص ٥١٧.

فيه المفتونون بتجربة «النرفانا» - حيث يقيد ذلك بقيد ضروري محكم لا بد منه في طلب المعارف الإلهية وحقائق عالم الغيب، لكي يوازن بين الصواب والخطأ، فيقرر أنه (لا يستغني أحد عن معرفة الغيب عما جاء به الرسول ﷺ، فما وافق كشف الإنسان وقياسه وافقه، وما لم يكن كذلك خالفه؛ لأن الإنسان معروض بعد تصفية نفسه أن يلقى الشيطان في نفسه أشياء، فإن لم يعتصم بالذكر المنزل وإلا اقترن به الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْتَشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقوله: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣].^(١)

ويلاحظ أن النقاش لم يتوقف عند هذا الحد، فقد كانت للصوفية صولات وجولات حول «النرفانا» أو «الإشراق»، يلاحظ ذلك بوضوح بالقارة الهندية حتى العصر الحديث، حيث نجد الإمام أحمد السرهندي ١٠٣٤هـ / ١٦٢٦م، المشهور في الهند بمجدد الألف الثاني يحدد موقفه وموقف الإمام الدهلوي بقوله: (بأنهما كانا في مقام استولت عليهما فكرة وحدة الوجود، وكانت هذه النظرية تبدو لهما مؤيدة بالمقدمات الكشفية والدلائل اليقينية، ولكنه أدركهما التوفيق الإلهي فسا بها إلى مقام أسمى من هذا المقام رجعا عنها)^(٢).

والذي يشد انتباهنا متابعة تلميذه الشيخ عبد الباقي الدهلوي له أيضًا ويتضح ذلك من رده على سؤال خلاصته الاستفسار عن إمكان العقل بعد التزكية والتصفية والاقتراب من الله تعالى من غير حاجة إلى نبي يبعث ويتلقى الوحي بواسطة الملك.

وكانت إجابته عن السؤال متضمنة نفس الرأي الذي انتهى إليه ابن تيمية، مما يدل على استقلال المنهج الإسلامي في المعرفة بذاتية الخاصة وتحذير علماء السنة من الجري وراء المناهج تقليدًا ومتابعة هنا وهناك.

(١) الرد على المنطقيين ص ٥١، ويذكر أيضًا أن المعرفة لا بد لها من شرطين؛ أحدهما قدرة العبد، ثم السبب الآخر: كالقوة في السهم والقبول في المحل، ولا ريب أن النظر هو السبب، فإن كان ذلك في دليل هاد - كالقرآن - تضمن ذلك النظر العلم والهدى «نقض المنطق ص ٣١-٣٢».

(٢) أبو الحسن الندوي: بين الدين والمدنية ص ٣٣-٣٤ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

وبذلك أوصد الشيخ عبد الباقي الباب أمام كل صوفي يحاول اتباع طريقة الكشف المستوحى من «النرفانا»، قال: (مهما اقترب العقل واتصل بالله تعالى إلا أن علاقته بهذا الجسم المادي لا تزول بتاتا، ولا يستطيع أن يتجرد عنه تماما، فلا بد من حدوث الأوهام والشبهات بصفة دائمة، ولا تفارقه القوة المتخيلة والشهوانية والغضبية بأي حال، وكذلك رذائل الطمع والشره ترافقه بصفة مستمرة، أضف إلى ذلك صفات السهو والنسيان والخطأ التي هي من لوازم النوع البشري لا تنفك عنه أبداً.

ولذلك فإن العقل ليس موضع ثقة في قضية الأحكام الإلهية، إذا تلقاها لم تكن بنجوة عن موضع الشك والارتياب، ولا تفارقه شائبة النسيان ومظنة الخطأ بخلاف الملك الذي هو مصون عن جميع هذه الصفات البشرية، ويبعد عن هذه الرذائل، فلا بد من أن يكون محفوظاً عن كل شائبة من شوائب الوهم والخطأ والنسيان)^(١).

انتهينا إذن من عرض النرفانا كطريقة للمعرفة والإشراق عند بوذا وصدائها عند الصوفية، وسنبحث الآن في البوذية كمذهب أخلاقي، ومنهج إصلاح اجتماعي.
المذهب الأخلاقي في البوذية

إن السمات الأخلاقية بارزة أمام دارسي البوذية، بما تشتمل عليه من الحث على الفضائل واجتناب الرذائل.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: (الجزء الخصب في البوذية هو مذهبها في الأخلاق وإصلاح المجتمع وتخفيف ما فيه من شقاء)^(٢).

كذلك فإن بوذا أدرك -كشأن أصحاب الدعوات الذين يريدون نشرها بين الناس- دور الدعاة في نشر دعوته، فاعتنى بتربيتهم لاكتساب الخصال النفسية والفضائل الأخلاقية اللازمة لأداء رسالتهم على أحسن وجه، فأخذ يربيههم على الصبر واحتمال أذى المعارضين الخصوم، كما سترى بعد قليل، وإن لاحظنا أن التربية اقتصر على طرق

(١) المرجع نفسه ص ٣٥: ٣٦.

(٢) الديانات القديمة ص ٧١.

المعاملة والتفاهم - أي الوسائل دون الغايات - فلم تعد التربية بالعقائد في الأوقات المصيبة، كما تحدد الغايات بوعدها للطائعين بالثواب وبتوعدها للعصاة بالعقاب.

ومهما يكن من أمر، فإن الروايات المنقولة عن بوذا تضي فتذكر أنه تردد في أول أمره بين أن ينعم وحده بالمعرفة التي نالها، أو أن يبشر به وينشره ثم استقر رأيه على دعوة الناس إليه بعد أن تغلب الخير على نفسه.

وبعد ذلك جمع عددًا من الشبان بلغ تعدادهم الستين، وأخذ يعلمهم مبادئه ويلقنهم دعوته فاشتهرت دعوته بتسميتها «بالنظام» أو «عجلة الشريعة».

وهناك نموذج من اختيار أعوانه أو مريديه بعد تربيتهم، يعبر عن مدى التصميم على الدعوة والاستعداد لتقبل التضحية مهما كانت الصعاب^(١).

كان هذا المريد «ويسمى بودنا» يريد الذهاب إلى إحدى القبائل المعروفة بالشراسة والخشونة، فأراد بوذا اختبار مدى قدرته على التحمل، فقال له: إن رجال هذه القبيلة قساة سريعو الغضب فإذا وجهوا إليك ألفاظًا بذيئة خشنة ثم غضبوا عليك وسبوك فماذا كنت فاعلاً؟ فأجاب بودنا: أقول: لا شك أن هؤلاء قوم طيبون، لينو العريكة، لأنهم لم يضربوني بأيديهم، ولم يرموني بالحجارة.

فإن ضربوك بأيديهم ورموك بالحجارة، فماذا كنت قائلاً. أقول: إنهم طيبون لينون إذ لم يضربوني بالعصى ولا بالسيوف.

فإن ضربوك بالعصى والسيوف؟ أقول: إنهم طيبون لينون إذ لم يرموني الحياة نهائيًا.
فإن حرموك الحياة؟ أقول: إنهم طيبون لينون إذ خلصوا روحي من سجن هذا الجسد السيئ بلا كبير ألم.

فيعجب به بوذا ويطلب منه الذهاب إلى تلك القبيلة موجهًا إياه بالوصية التالية: (وكما تخلصت فخلصهم، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك، وكما تعزيت

(١) باختصار، من كتاب ديانات الهند الكبرى ص ١٤٦-١٤٧، للدكتور أحمد شلبي.

فعرزهم، وكما وصلت إلى مقام النرفانا الكاملة فأوصلهم إليها مثلك^(١).

وعلى أية حال، فإذا مرت بنا بعض الصعوبات في تحليل تجربة «نرفانا لغموضها، فربما استطعنا أن نتقدم خطوة جديدة لفهمها عن طريق تحليل المذهب الأخلاقي للبوذية وشرح الطريق الذي خطه للقضاء على الآلام، وتحقيق المسرات؛ لأن المذهب نفسه منبثق من النرفانا.

الفضائل الأخلاقية وطرق اكتسابها

تتدرج عناصر المذهب الأخلاقي حيث تبدأ بالنص على أركان أربعة، ثم تتلوها خطوات السير الحثيث في ثنائي شعب؛ أما أركان الأربعة فهي:

١- الاعتراف بوجود الألم والشقاء.

٢- التسليم بوجود سبب للألم والشقاء.

٣- التصميم بإمكان إزالة هذا السبب.

٤- وجود السبيل لتحقيق إمكان هذه الإزالة.

وتتلخص سبل إزالة الألم في (قتل الشهوة التي تربطنا بملذات الجسد وتدفعنا لطلبها، مع أن ما نطلبه يزول ويتغير، وكل ما يزول ويتغير ألم وشقاء، ولا نجاة ولا خلاص إلا بأن ننبذ ما تريده الشهوة، وفي ذلك قتلها، وفي قتلها النجاة والخلص)^(٢).

لهذا كان عماد بوذا في مذهبه الأخلاقي أن يجاهد الشخص الشهوات ويروض إرادته على الصبر على الحرمان من اللذات، ويتحقق ذلك بسلوك الجادة المستقيمة بتقييد حياته بشانية أمور هي:

١- الاتجاه الصحيح المستقيم إلى ما تريده، اتجاهاً خالياً من كل سلطان للشهوة واللذات وما تبعته من أمان.

٢- الإشراف الصحيح المستقيم، ذلك بأنه عندما يتجه الصحيح المستقيم، بناءً على

(١) دائرة المعارف لفريد وجدي جـ ٢ ص ٣٨٩-٣٩٠ نقلاً عن ديانات الهند الكبرى ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور ص ١٢٧، أحمد عبد الغفور عطار.

الأمر الأول، وتعتريه نورانية تجعله يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء.

٣- التفكير الصحيح المستقيم، وذلك أن العقل عند خلوه من شوائب اللذة أصبح تفكيره مستقيماً لا تؤثر فيه نزعة هوى ولا جموع شهوة.

٤- ويترتب على الخطوات الثلاث السابقة أمر رابع وهو اطمئنان العقل والقلب إلى الاعتقاد الصحيح الذي يطمئن له القلب.

٥- يأتي بعد ذلك نطق الإنسان وأقواله مطابقة تماماً لاعتقاده ولما ارتاح إليه.

٦- يصبح السلوك مستقيماً فيكون العمل مطابقاً للعلم، لا مجافاة بينها.

٧- تتحقق بعد ذلك الحياة الصحيحة، وقوامها هجر اللذات هجراً تاماً ولا تشذ عن السلوك القويم.

٨- ويتوج ذلك كله المثابرة على بذل جهود الإنسان كلها في سبيل أن تكون الحياة مستقيمة^(١).

وهنالك أيضاً الوصايا العشر التي تشكل آداباً عامة صالحة وهي:

١- لا تزهق روح أحد.

٢- لا تكذب.

٣- لا تزني.

٤- لا تأخذ مالاً محرماً.

٥- لا تتناول مسكراً.

٦- لا تأكل طعاماً غير ناضج.

٧- لا تشهد حفل رقص وغناء.

٨- لا تتزين ولا تستعمل عطرًا.

٩- لا تتخذ أي فراش وثير.

(١) الديانات القديمة: محمد أبو زهرة من ص ٧٢-٧٤ باختصار.

١٠- لا تقبل من أحد ذهباً أو فضة^(١).

وقبل تناول المذهب الأخلاقي بالتحليل والنقد التفصيلي، نلاحظ على عموم المذهب خلو الخطوات الثانية من تجديد أو تعريف للصحيح، فكيف تتجدد الصحة؟ وما مقدارها وحدها؟ فإن الناس قد يختلفون في الاتفاق على الصحيح.

كذلك لا نجد ما يقابل الثواب أو العقاب لمن يطيع أو يخالف الوصايا العشر فكيف نلزم الناس على أتباعها؟!

ترك الإجابة على هذه الأسئلة الآن، مكتفين بتأمل توجيهاته لأتباعه المنحصرة في «الألم»، إنه يقول لهم: (أيها المریدون لا تفكروا كما يفكر الناس بل فكروا هكذا: هذا الألم، هذا مصدر الألم، هذا إعدام الألم، هذا سبيل إعدام الألم)^(٢).

ومما يلفت النظر - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - اقتصاره على توجيه أتباعه إلى الآلام والإلحاح عليها والدوران حولها بشكل يورث التشاؤم، ويصبغ النفس بالكآبة حيث يصبح في مستقرها الآلام، وتدور في داخلها معركة التخلص منها بحيث يظل شغلها الشاغل.

وربما يؤدي استمرار هذه الحالة ألا يتخلص المرء من الألم، بل ربما ازداد؛ لأن المثابرة على ذلك تجمع وتعمق الإحساس بالألم أكثر وأكثر، إن التفكير بهذه الطريقة والاقتصار على متابعة الألم وحده تجعل الإنسان وكأنه يغرق في دوامة من دوامات البحر فتغوص بالسابع ولا تترك له فرصة الطفو على السطح؛ لأنها لا تقدم له طوق النجاة.

وطوق النجاة في رأينا هو النصح بالتوازن في رؤية الحياة، لأن رؤية الألم وحده لا تعبر عن واقعية الخبرات الإنسانية التي تمر بها ألوان من السرور ولا ينكرها أحد؛ فإن الحياة - بالرغم من آلامها - تكتنفها ألوان من السرور والبهجة أيضًا متعددة المصادر؛ كالصحة والمال والأهل والأولاد والتمتع بالنعم التي لا تحصى من مآكل ومشارب

(١) المرجع نفسه ص ٧٦ وانظر الديانات والعقائد في مختلف العصور ص ١٢٧، أحمد عبد الغفور عطار.

(٢) ديانات الهند الكبرى ص ١٦٧-١٦٨.

وملابس، بل هناك أيضًا مصادر للسرور والبهجة غيرها، تتمثل في رؤية آيات الله تعالى في الكون والمخلوقات من حوله على الأرض، في رؤية البحار والأنهار والشمس والقمر والنجوم وغيرها من آيات الجمال التي تبهج النفس وتحبب لها الحياة.

وكان الإمام ابن حزم أكثر توفيقًا وواقعية بما اقترحه لنا من علاج نداوي به آلام الحياة، ويرجع توفيقه إلى الانطلاق أولاً من عقيدة إيمانية راسخة، ثم رؤية للحياة أشمل ثانيًا، تتسع لحياة الدنيا والآخرة، فأرشدنا إلى (كل ما يعصم من الدنيا من جميع المخاوف والمكاره، ونخلص في الأخرى من كل هول ومضيق)^(١).

ويخبرنا ابن حزم في المقدمة عن خلاصة تجاربه التي كان يراقب خلالها أحوال الناس بغية العثور على غرض واحد يجمعون على استحسانه والسعي إليه، فعثر على غرض واحد سماه «طرد الهم» أي الحزن^(٢) أو القلق بلغة عصرنا، فإن الناس في رأيه لا يسعون في تحقيق أهدافهم من الأكل والشرب واللبس والأسفار والزواج واللعب وغيرها إلا ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال، ومع ذلك فإنها قد لا تتحقق بسبب عوارض كثيرة تعترضها كالعجز وظهور الآفات والخوف من التنافس وطعن الحساد وغيرها من العقبات التي تحول دون تحقيق الأغراض، وفي الوقت نفسه لم يجد عملاً سالمًا من كل عيب خالصًا من كل كدر، موصولًا إلى طرد الهم على الحقيقة إلا العمل لله تعالى؛ لأن العامل للآخرة (إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يُسر إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب وزايد في الغرض الذي إياه يقصد)^(٣).

فأين ذلك من آراء بوذا؟!

إننا إذا أفضنا في الشرح والمقارنة فلنكتفي بتصحيح أحكامنا أدنى إلى الصحة بدلًا من الفتنة ببوذا وآرائه التي دفعت بأحد الباحثين إلى القول بأنه نبي، وهو ما لا يمكن تقديم

(١) «كتاب الأخلاق والسير» في «مداوات النفوس» المقدمة، تحقيق أحمد عمر الحمصاني، مطبعة السعادة

بمصر.

(٢) يفسر الأصفهاني الهم بأنه «الحزن الذي يذيب الإنسان» المفردات ص ٥٤٥.

(٣) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص ١٢.

الدليل عليه، بل إن صحت روايات إنكاره الألوهية تجعله أحد الملاحدة^(١) وأمام هذه الفتنة نرى ضرورة وضع الأخلاق البوذية في مكانها الصحيح بعد النقد والمقارنة، إذ لا نستطيع الإغضاء عن أثر المديح الذي يملأ الكتب في نفوس القراء ما لم يتسلحوا بالمعارف الصحيحة.

مآخذنا على المذهب البوذي في الأخلاق

١- من الفاحية النظرية

عندما اطلعنا على المذهب بدا في ظاهره لامعًا جذابًا؛ لاحتوائه على إرشادات قويمه في شُعبه الثماني تتصل بمحاربة أهواء النفس ورغباتها في اجتناب اللذات - إذا قصد بها اللذات المحرمة وحدها- لأن الاستغراق في اللذات يورث الآلام، فضلًا عن الوصايا العشر الإيجابية، وتقابلها الرذائل المنهي عن الاتصاف بها.

كل ذلك حسن، ويبدو في مظهره أنيقًا أخاذًا، ولكن إذا دققنا النظر فيه وكانت لدينا فكرة عن النظم الأخلاقية المتكاملة وجدنا المذهب البوذي يتهاوى ويتساقط أمامنا، وهاكم نتائج تأملنا المدقق للمذهب البوذي:

(أ) تنقصه الفضائل المتنوعة بتنوع الحياة الإنسانية في علاقتها المتشعبة؛ كالفضائل في العلاقات الاجتماعية، والفضائل العامة، والعلاقات الدولية وأيضًا في مجال الفضيلة الشخصية نفسها، كمبدأ «النية» باعتبارها لب العمل الأخلاقي^(٢).

(ب) تنقصه أيضًا ما يسمى في علم الأخلاق بعناصر الإلزام «أو وسائل الردع»، وهي التي تلزم الناس بسلوك الطريق القويم، وتردع المتحرفين الخارجين عنها.

(ج) ويخلو المذهب أيضًا من العقيدة التي لولاها لما استطعنا إقامة بناء أخلاقي

(١) تنظر الدراسة التي أجراها الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار بكتابه «الديانات والعقائد في مختلف العصور» ص ١٣٦-١٣٧ وما بعدها حيث ناقش الدكتور محمد توفيق صدقي صاحب كتاب «الصلب والفداء» الذي سجل فيه هذا الرأي.

(٢) انظر الدراسة المستفيضة للدكتور محمد عبد الله دراز بكتابه «مدخل إلى القرآن الكريم» ص ١٠٥ وما بعدها.

متكامل، فقد رأينا بوذا أميل إلى إنكار الإله، وكان يتحاشى كل ما يتصل ببحث ما وراء الطبيعة «أو عالم الغيب»، فإنه جعل كل همه صرف أتباعه عن البحث في هذه القضايا، وحثهم على الخوض فقط في أعمالهم ودواعيها وميولهم وعواطفهم^(١).

ونحن نرى في ذلك هروباً من مواجهة الإجابات عن الأسئلة المنبعثة من بواعث النفس السوية، فضلاً عن ضرورة العقيدة في أي مذهب أخلاقي، فهناك من ألوان السلوك ما يكون الدافع إليها بعيداً عن تحقيق أي نفع عاجل، ويتضح ذلك في عقيدة الإسلام خاصة؛ كعقد النية والإخلاص في العمل ابتغاء مرضاة الله تعالى وأملاً في ثوابه، إلى جانب الترهيب من عقابه ﷻ.

وستجلى ذلك بصورة أوضح وأشمل إذا ما عرضنا للسمات الأخلاقية في الإسلام بعد أن نستكمل نقدنا للمذهب البوذي لتعذر تنفيذه كمنهج للحياة اليومية.

٢- المنهج البوذي والتطبيق العملي في حياتنا اليومية

والآن، نأتي إلى مرحلة التجريب، فنحاول تنفيذ المنهج البوذي لإصلاح الأخلاق، فماذا نفعل لتحقيق السعادة المنشودة ونتخلص من الآلام؟

إذا بدأنا في التنفيذ، فإن أول ما نلاحظه أن الطريقة البوذية أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، حيث تجمع بصورة تكاد تتشابه بين الاتجاه والإشراق والتفكير والاعتقاد، وكلها ذات صبغة تأملية نظرية، يختلط فيها الإدراك بالخيال، فلا نقف أولاً على حدود مميزة تعرفنا كيفية اجتياز مرحلة الاتجاه إلى مرحلة الإشراق ثم التفكير فالسلوك... إلخ.

هذا، بينما يبدو من الأمور الثمانية التي يتقيد بها الشخص في شؤون الحياة أنها على شكل مراحل متدرجة.

وإذا ما توقفنا لإعادة النظر ومحاولة التطبيع العملي مرة أخرى، اتضح لنا أن هذا المران العقلي التأملي المتخيل عند بوذا يفترض إنساناً ألياً يسير على قضبان كالمقاطرة، ويتنقل تلقائياً من محطة إلى أخرى، ويقطع مسافة ما، لينتقل إلى غيرها، لا ينحرف يميناً أو

(١) أديان الهند الكبرى ص ١٦٧-١٦٨.

يسارًا بحكم طبيعة الخط الحديدي الذي يحكم حركته.

وإذا سلمنا جدلاً بإمكان نجاح البعض جزئياً في رياضة إرادته على النحو الذي اقترحه بوذا، فلا يصلح تعميم الحكم على صنوف البشر جميعاً، أي إذا صلح هذا البرنامج في مرحلة عمر الإنسان المتأخرة وبواسطة الرجال الحكماء الذين يغلبون صوت العقل وتضعف شهواتهم وانفعالاتهم، فلا يصلح لمرحلة الشباب المتسمة بالحوية والنشاط المليئة بالأمال والطموحات.

وإذا ناسب المشتغلين بالفكر والأدب والعلوم فإنه لا يناسب العاملين في حقول الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من الأنشطة الإنسانية التي تستنفد جهود أصحابها ولا تترك لهم وقتاً للتأمل النظري البحت إلا فيما ندر!

أما إذا أريد للإنسان أن يتجه دائماً «الاتجاه الصحيح» فلا بد من توافقه مع فطرته السوية التي خلق بها، لأن حرمان النفس من اللذائذ المباحة يمنعها من الاستمرار في الاتجاه الصحيح والحياة الصحيحة أيضاً.

ونحن نملك البديل الإسلامي الكفيل بالمضي قدماً في الاتجاه الصحيح - أي عبادة الله تعالى في أعمال الإنسان وسلوكياته أثناء اجتيازه للحياة الدنيا - كما سبق الإشارة عند حديثنا عن مفهوم «العبادة» الواسع.

لا يصلح إذن المنهج البوذي للتقويم الأخلاقي أو تدعيم النفس «المطمئنة»، ولكن الذي يصلح منهج آخر «مفصل» بحكمة بالغة على تركيبة الإنسان الروحية والجسدية، وملائم لأنشطته وحركاته، ويمده بالذخيرة الإيمانية لمواصلة حياته مهما كانت طبيعتها، يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي: (وقد اتبع القرآن في تربيته لشخصيات الناس وفي تغيير سلوك العمل الممارسة الفعلية للأفكار والعادات السلوكية الجديدة التي يريد أن يفرسها في نفوسهم؛ ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى العبادات المختلفة؛ الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وإن القيام بهذه العبادات في أوقات معينة بانتظام يُعلّم المؤمن الطاعة لله تعالى، والامتثال لأوامره، والتوجه الدائم إليه في عبودية تامة، كما يُعلّمه الصبر، وتحمل

المشاق، ومجاهدة النفس، والتحكم في أهوائها وشهواتها^(١).

نبذة عن السمات الأخلاقية في الإسلام

يطول بنا الحديث لو استقصينا السمات الأخلاقية في الإسلام، وكفيينا عرض بعض الملامح، ثم نترك للقارئ حرية الموازنة مع الأخلاق البوذية، التي تبدو حينذاك كقطرات في مياه المحيط. ومن هذه السمات:

أولاً: أن الشريعة الإسلامية نفسها بأوامرها ونواهيها تصطبغ بالصبغة الأخلاقية، يقول الأصفهاني: (ومكارم الشريعة هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس والحلم والإحسان والفضل، والقصد منها أن تبلغ إلى جنة المأوى وجوار رب العزة تعالى)^(٢).
والشريعة في هذا المجال لها دوراً:

(أ) دور الردع والإلزام كما يرى ابن حزم، حيث تكف الناس عن القتل الذي فيه فناء الخلق، وعن الزنا الذي فيه فساد النسل وخراب الموارث، وعن الظلم الذي فيه الضرر على الأنفس والأموال وخراب الأرض، وعن الرذائل من البغي والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والغش والخيانة وسائر الرذائل^(٣).

(ب) دور الحث على الاتصاف بمكارم الأخلاق؛ كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ كُمُ إِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى انقضاء تلك الخصال.

والآيات كثيرة في هذا الغرض، حيث تحقق الأخلاق الفاضلة، بحيث تجعلنا نؤيد الرأي القائل بأن: (الشريعة إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق)^(٤).

(١) القرآن وعلم النفس ص ٢٥٥، ط. دار الشروق ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٩١ تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، ط دار الوفاء ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(٣) الفصل في الملل والنحل ج ١ ص ٧٩-٨٠ صبيح ١٣٤٧ هـ.

(٤) تفسير القاسمي «محاسن التأويل» ج ١ ص ٩٠ تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، عيسى البابي الحلبي

ثانيًا: تنوع الفضائل بتنوع شعب الحياة الإنسانية

(أ) ففي مجال الفضيلة الشخصية يكشف لنا الدكتور دراز عن مبدأ جديد لم تقره الشرائع من قبل، ألا وهو مبدأ «النية» باعتبارها لبَّ العمل الأخلاقي، فقد كان موسى ﷺ يغري قومه بأرض الميعاد، والرخاء في الحياة الدنيا والنصر على أعدائهم، ويظهر من دعوة عيسى ﷺ طلب الانصراف عن الحياة الدنيا لأن السعادة لا تتحقق فيها ولكن في ملكوت السماء^(١).

ويجمع القرآن الكريم بين هذين الوعدين، لا كباعث أخلاقي وإنما باعتبار أن الغاية التي يقصدها الإنسان الفاضل أعلى من هذا كله (إنه في الخير المطلق، أي في ابتغاء وجه الله تعالى الذي يجب استحضاره في القلب عند أداء العمل الإنساني بتنفيذ أوامره)^(٢).

(ب) الفضيلة في العلاقات بين الأفراد، وتتضح من الآيات القرآنية العديدة التي أتت بتقنين عالٍ في الأدب والذوق الاجتماعي، ومن هذا الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّمْتُمْ بِثَغِيبَةٍ فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]^(٣).

(ج) الفضائل الجماعية والفضائل العامة: يعلمنا القرآن أنه توجد خارج الأخوة في الله تعالى الأخوة في آدم ﷺ، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال ﷺ: ﴿لَا يَتَهَنَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يَخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبْرَهُمْ وَتُقَسِّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ حُبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

وفي الوقت نفسه ينبغي إعداد القوة الكافية لقمع العدو والقضاء عليه، وقد قال

= ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

(١) د. محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن ص ١٠٥.

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٦.

(٣) وينظر أيضًا آية ٢٢ سورة النور، وآية ٥٩ سورة الأحزاب.

تعالى في هذا الأصل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأمر بالحذر والتحرز من مكائد العدو وانتهازه الفرص فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُوعًا حَذَرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] (١).

أما داخل الجماعة الإسلامية فإن القرآن الحكيم يحدد مبادئ:

أحدهما: دعوة المؤمنين ليكونوا جماعة واحدة متماسكة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والثاني: مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصِّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

(د) الفضيلة في المعاملات الدولية وبين الأديان، لم تتح للديانتين اليهودية والمسيحية إقامة علاقات مع دول معادية ولكن الوضع اختلف في عصر النبي ﷺ، حيث أصبح أسوة في مجال الأخلاق، وقائداً في مجال السياسة أيضاً.

ونورد بعض المبادئ التي وضعها القرآن -بالإضافة إلى ما سبق- في الحرب الشرعية لدفع العدوان: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَبِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]، ثم تتوقف الحرب عند انتهائها: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، والأمر باحترام العهود والمواثيق في العلاقات الدولية: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

لقد اقتضت مهمة الرسول ﷺ كسياسي وقائد تشريعاً أخلاقياً لظروف الحرب والسلم، كما تبين لنا هذه الآيات وغيرها، إلى جانب القواعد التي حددتها السنة (٢).

ثالثاً: جاءت طرق الإلزام في القرآن الكريم متنوعة كاملة، ففي الدراسة التي أجراها

(١) الإسلام دين كامل، محمد الأمين الشنقيطي ص ٢٢-٢٣ مكتبة ابن تيمية - الجزيرة.

(٢) المرجع نفسه ص ١١٣.

الشيخ نديم الجسر في هذا الصدد بين طرق الإلزام التي فصلها القرآن الحكيم وشعبها، كما أوضح الكبائر والصغائر والأخلاق والآداب، مفصلاً أبواب الترهيب والترغيب، متبعاً طرق التربية الأخلاقية التي تهذب النفس وتقومها.

وتكاد تنحصر طرق الإلزام في القرآن الكريم في ستة أنواع، كما استخلصها الشيخ نديم الجسر في بحثه الجامع بين دراسة النفس والأخلاق في الإسلام، نلخصها فيما يلي^(١)

١ - الإلزام بوازع العقل

إن مزية الإسلام الكبرى على باقي الأديان هو منحة العقل السلطة في الفهم واستنباط الأحكام، والآيات القرآنية التي تحث على تحكيم العقل وترك اتباع الظن لا تكاد تخصي، ذلك لأن عقل الإنسانية في بدايته وأثناء مراحلها الأولى كان عاجزاً أمام التجارب المحدودة أن يدرك الخير، وأن يجدد مكارم الأخلاق ومساوئها، وكان الوحي السهوي يتولى هذا التحديد بواسطة الرسل، وعندما تكامل العقل الإنساني، وبلغ حدّاً يستطيع أن يعرف الحق والخير (أنزل الله سبحانه وتعالى آخر كتبه على آخر رسله ﷺ وجعل للعقل بمقتضى هذه الشريعة الأخيرة السلطان الأعلى في إدراك حكمة ما حدده القرآن من المبادئ العامة لخدمة الحق والخير ومكارم الأخلاق)^(٢).

إن آيات النظر العقلي، والحض على النظر والتفكير والتدبر كثيرة في القرآن الحكيم، مع وصفه للغافلين بأنهم يعيشون كالأنعام، لا حظّ لهم في تزكية الأنفس أو تثقيف العقول، وهكذا أبطل القرآن الحجر على حرية التكفير، حيث كانت التقاليد الدينية قد كبّلت بهذا الرق البشرية (وأن أكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على

(١) القرآن في التربية الإسلامية، للشيخ نديم الجسر، وهو بحث جامع عميق يحتوي على دراسة قضايا حيوية في النفس، والأخلاق، ويقع في نحو ٧٥ صفحة من القطع الكبير، منشور في مجلة مجمع البحوث الإسلامية، عدد خاص بعنوان التوجيه الإسلامي للشباب (١٣٩١هـ / ١٩٧١م)، ويُعرف الإلزام بأنه إلزام المكلف بتصديق ما قرره من الحق وتنفيذ ما شرعه من الأحكام، والأخذ بما وصى به من مكارم الأخلاق، والعزوف عما نهى عنه من مساوئها.

(٢) نفس المصدر ص ٨٨.

آيات الله، وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويبتدون بها هم العقلاء^(١).

ولئن كان من (أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته، والكف عن معصيته)^(٢)، فإن من البديهي أيضًا الإلزام بوازع العقل في المحيط الأخلاقي^(٣).

٢- الإلزام بوازع التضمير «أو النفس اللوامة»

ولكن الإلزام العقلي لا يتم إلا للقلّة من الحكماء، الذين يعبدون الله تعالى، ويطيعون أوامره؛ لأنه سبحانه مستحق بذاته للعبادة، وأن أوامره مستحقة الطاعة.

ولكن الكثرة الغالبة لا يكفيها وازع العقل، وتحتاج إلى وازع الضمير كزاجر يبعدها عن الذنوب التي تخفى على أعين الناس، ولا ينالها العقاب الأرضي بواسطة البشر، وضمير المؤمن موصول بالله سبحانه وتعالى، فهو يعيش في حراسة ضميره، ويقظة «نفسه اللوامة»، وهي بمثابة «محكمة أمن» داخل الإنسان (لا يمكن خداعها ولا الإفلات منها ولا تجدي عنها المعاذير، لأنها مرتبطة برقابة عليا، إنها لوامة دائمة، توجه إلى صاحبها إنذارات التأييب، حتى ترده إلى الخير)^(٤).

٣- الإلزام بالترهيب والترغيب

تنوعت أساليب القرآن الحكيم من حيث الترهيب والترغيب؛ ففيما يتصل بالترهيب فإن الله سبحانه وتعالى يحذر العاصي من انتقامه في النفس، والأولاد، والثمرات، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالتحذير من أهوال القيامة وعذاب النار.

وفي جانب الترغيب وعد بخير الدنيا وزيادته لمن يشكر، وحفظ النعمة على من يحافظون على سلوك الطريق المستقيم، ووعد المتقين بالجنة في الآخرة بما فيها من نعيم دائم، فتعويض المحرومين من خير الدنيا في المآكل والمشرب، والمسكن، وغيرها (وهو

(١) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص ١٨٣، المطبعة السلفية.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني ص ٦٦.

(٣) القرآن في التربية الإسلامية، لنديم الجسر، ص ١٠٤.

(٤) دروس ونفوس ج ١، ص ٢١٠ للدكتور/ توفيق سبع، ط. مجمع البحوث الإسلامية.

وصف يعترض عليه بعض الجهال والمشككين، الذي يملأ الزينغ قلوبهم، أما الذين يدركون خفايا النفس البشرية في شدة حبها للخير والنعيم ونقمتها من الحرمان فإنهم ليعلمون أنه وصف لازم وضروري وفي منتهى الحكمة^(١).

٤ - الإلزام بوازع الكفارات^(٢)

ومن أساليب تربية الضمير، تفويض الله - سبحانه وتعالى - إلى العبد أن يعاقب نفسه جزاء لما اقترفت يده، وتكفيراً عن بعض الذنوب كالصوم، وهي عقوبة جسدية، أو عتق رقبة أو إطعام المساكين وهي عقوبة مالية، وهكذا يظهر لون من امتحان الإيثار وتعود الإنسان على محاسبة نفسه، بعد الإقرار بذنبه والإذعان لحكم ربه (وفيها تربية للضمير، واستحضار للرقابة الإلهية، وتعويد على حفظ الإيثار، والكف عن بعض المخالفات).

٥ - الإلزام بوازع الرأى العام

ومن الأساليب التي امتاز بها القرآن في التربية هو الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قدر الطاقة، ولا سيما في النهي عن منكرات الأخلاق التي لا تمتد إليها يد القوانين، والحديث أيضاً يؤيد هذا الأسلوب وهو قول النبي ﷺ: «من رأى منكماً منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه».

٦ - الإلزام بوازع السلطان

وقد لا يصلح مع بعض الناس أنواع الإلزام السابقة، لذلك كان لا بد من وازع أعظم وهو وازع السلطان، حيث قيل: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، (وهي

(١) القرآن في التربية الإسلامية، للشيخ نديم الجسر، ص ١٠٥.

(٢) ويرى الشيخ أبو زهرة أن الإسلام جعل كفارات الذنوب تعاوناً اجتماعياً، فمن أفطر في رمضان فعليه عتق رقبة، أو صيام ستين يوماً أو إطعام ستين مسكيناً، ومن قال لامرأته: أنت حرام عليّ فإنه لا يقربها إلّا إذا أعتق رقبة أو صام ستين يوماً أو أطعم ستين مسكيناً، ومن حلف وحنث في يمينه كان عليه عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، ص ٢١، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

العقوبات المختلفة التي فرضها القرآن على بعض الجرائم، وفوض أمرها إلى الحكام^(١)؛
وبعد هذه الدراسة المختصرة للأخلاق في الإسلام، رأينا كيف تتضاءل الأخلاق
البوذية إلى جوارها، وكيف تصبح متجردة من أية مقومات لترتفع بقامتها إلى المذهب
الأخلاقي المتكامل كما وجدناه بشموخه وكماله متحققاً في الإسلام، مما يؤكد مصدره
الرباني.

(١) المرجع نفسه ص ١٠٦.

وتتحول الآن لتعقد موازنة أخرى لكي نعرف منها كيف أثرت البوذية في الديانة المسيحية، مكتفين ببعض النصوص المتطابقة في المضمون، ولا تختلف إلا في اسم المسيح ^{عليه} بدل «بوذا».

المسيحية	البوذية
أقوال النصارى في المسيح ابن الله	أقوال البوذيين في بوذا
- ولد يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل.	- ولد بوذا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل.
- ولد يسوع ابن العذراء مريم التي حلَّ فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد «أي في ٢٥ كانون الأول - ديسمبر».	- ولد بوذا ابن العذراء مايا التي حلَّ فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد «أي في ٢٥ كانون الأول - ديسمبر».
- لما كان يسوع طفلاً قال لأمه مريم: «أنا ابن الله».	- لما كان بوذا طفلاً قال لأمه مايا: إنه أعظم الناس جميعاً.
- لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه يوسف: «لقد أتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل متعلم».	- لما أرسل بوذا إلى المدرسة وهو ولد أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل، وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسة والتنجيم والكهانة والعرافة.
- وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره.	- وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس، وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره.
- ولما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة غير اعتيادية؛ أي بقوة إلهية.	- ولما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية؛ أي بقوة إلهية.

- وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله على الأرض.	- وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض.
- ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها.	- ولسوف يأتي بوذا مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها.
- وقال يسوع: (لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل).	- قال بوذا: (إنه لم يأت لينقض الناموس، كلا، بل أتى ليكمله وقد سره عد نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء).
- وجاء في كتب النصراني الدينية المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع علامة؛ أي آية ليؤمنوا به.	- وجاء في كتب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا آية كي يؤمنوا به ^(١) .

(١) مختارات من كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية»، محمد طاهر التنير، الفصل الثامن عشر،

مقابلة النص الصريح بين بوذا ويسوع المسيح من ص ١٣٢: ١٤٧، مكتبة ابن تيمية بالكويت.

وهناك مقارنات أخرى أجراها السير آرثر فندلاي بكتابه «صخرة الحق» حيث سجل به اكتشاف

لوحة أثرية في بابل تثبت أن إلههم «بعل» كان يتصف بنفس الصفات التي ألحقت بعيسى عليه السلام،

وأن هذه اللوحة كتبت حوالي ١٢٠٠ ق.م. كما قارن أيضًا بين المسيحية وعقيدة الفراعنة في

أوزوريس «من كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن» ص ٧٩-٨١، إبراهيم خليل أحمد،

مكتبة الوعي العربي بمصر.

ويقول يواكيم برنز: (وبما أن أكثرية المسيحيين كانوا وثنيين متحولين لهذا فإن مسيرة المسيحية نحو

الوثنية كانت تقتضي وتستدعي عدة تسويات وتنازلات ... وبالنسبة لكثير من الوثنيين اعتبرت

مريم العذراء اسمًا جديدًا لربة الخصب التي كانوا يعبدونها، فالمجموعة الأولمبية اليونانية من الآلهة

الوثنية اتخذت أسماء جديدة بتغير بسيط، أو حتى دون تغيير في قلوب ونوايا المؤمنين، «من كتابه:

بايات من حي اليهود ص ٩٣».

خاتمة

لقد حققنا - بعد هذا العرض الوجيز والموجز للبوذية - بعض الأهداف على طريق دراستنا للأديان، منها:

١- زيادة الإيثار بأن الإسلام يتفوق على غيره ﴿يُظَاهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨]، وقد لاحظنا ذلك حتى في الجزئيات والفروع، فإن المذهب الأخلاقي البوذي بدا متهافتاً أمام المذهب الأخلاقي في الإسلام.

٢- تسليح الدعاة بالمعارف اللازمة لمعرفة المدخل إلى دعوة أصحاب الأديان الأخرى إلى الإسلام، أي معرفة المحاسن والمساوئ في عقائدهم، وتقديم البديل الأكثر إقناعاً وواقعية وملاءمة للإنسان أياً كان عصره وبيئته، وبخاصة ونحن في عصر يتشوق أهله لمعرفة الحق وتحقيق الحياة الطيبة في هذه الدنيا بعد إخفاق الأنظمة الوضعية، يقول جارودي: (فللإسلام اليوم إمكانيات واحتمالات للانتشار في العالم أكثر حتى من الوقت الذي وصل فيه إلى ذروته، فالمنهج الأمريكي والمنهج السوفيتي قد أثبتنا فشلها، أما الإسلام فهو يمنح الإنسان الأمل في عالم يسوده الآن الخوف حتى على استمراره وعلى بقائه)^(١).

٣- إزالة الغشاوة عن أبصار البعض المفتونين بكثير من النحل التي تتمتع ببريق زائف كالبوذية، والتحذير من الوقوع في حبالها تحت ستار رياضة «اليوجا»^(٢)، أو توهم تحقيق السعادة عن طريقها، خاصة إذا جاءتنا عن طريق الكُتَّاب الأوروبيين والمروجين

(١) من محاضراته التي ألقاها بجامعة الأزهر بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي بعنوان «مستقبل الإسلام في الغرب» ص ٤٩، من كتيب صادر من وزارة الإعلام بمصر، ترجمة الدكتور رجاء ياقوت، رئيس القسم الفرنسي بكلية الدراسات بجامعة الأزهر.

(٢) يذكر الدكتور أحمد شلبي أن «منظمة اليوجا» ذات صلة بالصهيونية، وهي منظمة تدعي أنها تباشر ألوأناً من الرياضة البدنية والتدريبات الروحية أو ما يسمى «باليوجا الروحية»، وأهم ما تعني به محاربة الأديان، والعمل على تحقيق ما يسمى الرباط الإنساني، ثم يصلون بذلك إلى الدفاع عن اليهود باسم الإنسانية، ص ٣٥٩ من كتاب «اليهودية» ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ م، وينظر أيضاً كتاب «اليوغا في ميزان النقد العلمي» للدكتور فارس علوان.

لأفكارهم ترفل في ثوب المديح الزائد، ويفيدنا الاستشهاد هنا برأي الأستاذ العقاد حيث يقول: (وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية، لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراعاة) (١).

٤- وهناك ملاحظة أخيرة لا بد من ذكرها، إذ تحولت البوذية عندما انتقلت من الهند إلى اليابان، فبعد أن كانت في مصدرها الأصلي مليئة بالتشاؤم والانقباض والحزن، تحولت في اليابان إلى (ديانة مرحة ضاحكة متفائلة، فيها بشر وغبطة وفرح، وحفلات واجتماعات ومعابد وإلهيات وبهجة وأعياد وفيها وعد للمصلحين بالجنة وللأشرار بالجحيم) (٢).

وهذا يثبت أنه في غياب عقيدة محفوظة بالوحي ومصونة بمنهج ثابت تتلون العقائد بمزاج الأمم التي تدين بها.

كذلك لا يفوتنا في النهاية التحذير من رياضة «اليوجا» التي أغرم بها البعض تقليدًا ومحاكاة - لا سيما عندما دارت دورتها وانتقلت من الشرق إلى الغرب بزعم تحقيقها للشباب الدائم الصحة والسعادة، إذ أثبت الدكتور فارس علوان - وهو طبيب متخصص - أنها على النقيض من هذا، فهي علمياً وعملياً تؤدي إلى أضرار وأخطار تصيب الجسم، وتقوض عقيدة التوحيد لأنها تلتزم صاحبها السجود للشمس وترديد اسمها بانتظام: (وفيها تقليد للوثنيين، وتضرر بالصحة، وتضيع الوقت، وتدعو إلى التشبه بالحيوانات، وقد يتردى ممارسوها في تعاطي المخدرات...) (٣).

(١) «الله»، بحث في نشأة العقيدة الإلهية ص ٧٩، ط. دار المعارف بمصر عام ١٩٤٩م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور عطار ص ١٩٢.

(٣) اليوغا في ميزان النقد العلمي، د. فارس علوان.

الفصل الرابع

الزرادشتية أو «المجوسية»

زرادشت بين الحقيقة والخيال

تعد الزرادشتية من أديان الفرس ونحل المجوس، وقد فصل المسعودي هذه الأديان، فذكر منها ديانة الصابئة عبدة الكواكب ثم الزرادشتية، وما تلاها من مانوية -نسبة إلى ماني- وهو القاتل بالنور والبراءة من الظلمة، ومزدكية -نسبة إلى مزدك- وكان يدعو إلى المساواة في المال والنساء^(١).

وإذا أردنا الحديث عن زرادشت فسنجد أنفسنا أمام روايات مختلفة، كالأشأن عندما نفتقد الروايات التاريخية الموثقة الأسانيد بطريقة علمية، لذا فإننا أمام افتراضات حول حقيقة شخصيته وتاريخ حياته وعقائده، اختلط فيها أحياناً الواقع بالخيال: فمن الباحثين من أنكر وجوده بالكلية، واعتبره شخصية خرافية نُسجت حولها الأساطير والروايات الخيالية التي لا سند لها من الواقع.

وفريق آخر خلط بين زرادشت وبين إبراهيم الخليل عليه السلام لاشتراكهما في اتجاه كليهما (إلى التأمل في كواكب السماء وملاحظة بزوغها وأفولها والانتفاء من هذا التأمل، وهذه الملاحظة إلى أن كائنات هذا شأنها لا يمكن أن تكون آلهة، وما يتعلق بمحاربة كليهما لما كان يعكف عليه قومه من عبادة الكواكب وما يمثلها ويرمز إليها من أصنام، وما يتعلق بإلقاء كليهما في النار وجعلها برداً وسلاماً عليه)^(٢).

ويستبعد الدكتور وافي رأي هذا الفريق لعدة أسباب؛ منها أن زرادشت ظهر في أصح الروايات في القرن السابع قبل الميلاد، على حين أن إبراهيم الخليل عليه السلام كان ظهوره حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد، وأن إبراهيم عليه السلام نشأ في بلدة «أور» ببلاد «الكلدان»، وإنه سامي الجنسية، على حين أن زرادشت نشأ بأذربيجان في بلاد إيران، وأنه

(١) منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، د. هادي حسين جمود، ص ١٤٤، مطبعة عصام ببغداد ١٩٨٤م، دار القادسية للطباعة.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د. علي عبد الواحد وافي، ص ١٢٦/١٢٧.

أرى الجنسية، وأن القرآن الكريم يحدّثنا عن رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة، وإسكانه فيها ابنه إسماعيل عليه السلام، وأمه هاجر وبناء الكعبة، بينما يدل تاريخ زرادشت على أنه لم يرحل إلى بلاد الحجاز، ولم تكن له صلة بمكة المكرمة، ولا بالبيت الحرام.

وبعد استبعاد رأي الفريقين السابقين، يصبح الأرجح الأخذ برأي فريق ثالث يذهب إلى أن زرادشت شخصية حقيقية غير إبراهيم عليه السلام، وأنه إيراني الجنسية ولد حوالي ٦٦٠ ق.م. بأذربيجان، وأنه مات قتيلاً في بيت من بيوت النار في بلخ حوالي سنة ٥٨٣ ق.م. أثناء إغارة الطورانيين^(١).

وكتاب الزرادشتية هو «زندافستا»، والكلمة مركبة من كلمتين: «زند» ومعناها شرح، و«افستا»: النص الأصلي، فمعنى الكتاب: النص والشرح، والكتاب (يتضمن التاريخ الأدبي لأمة في مدة طويلة من الزمن، مثلهم في ذلك مثل كتاب اليهود المقدس أي العهد القديم، ومن المعروف أن هذا الكتاب المقدس ظل قرونًا طويلة يعتمد على الرواية الشفوية قبل التدوين)^(٢).

وعندما دانت دولة الفرس للمسلمين الأوائل، وبدأت تتسرب بعض الأفكار -أو ما نسميه بالغزو الثقافي كما سنرى- إلى المجتمع الإسلامي كان من أبرز الآثار التي سجّلها المسعودي المؤرخ هذا التمييز بين الأصل والشرح أو النص والتأويل، يقول المسعودي: (وكان من أورد في شريعتهم شيئاً بخلاف المنزل الذي البستاه، وعدل إلى التأويل الذي هو الزند، قالوا: هذا زندي، فأضافوه إلى التأويل، وأنه منحرف عن الطواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل، فلما جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس، وقالوا: زنديق، وعربوه، والثبوية هم الزنادقة، وألحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم، وأبى حدوث العالم)^(٣).

(١) المرجع نفسه ص ١٢٨.

(٢) في العقائد والأديان -الديانات الكبرى المعاصرة، د. محمد جابر عبد العال، ص ١٦٤، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ م.

(٣) منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، د. هادي حسين ص ١٤٨.

وإننا لنجد تضاربًا كبيرًا بين الباحثين في الديانات عند تناولهم للعقائد الزرادشتية، وربما يرجع ذلك إلى عدة عوامل، منها صعوبة قراءة كتابها المقدس، (فإذا حاول الإنسان قراءة الأوستا فإنه يدرك لأول وهلة أن قراءتها مستحيلة؛ ذلك لأن الفصل فيها لا يتلاءم ليكون وحدة، ولا يتسق أي جزء مع جزء آخر، فهي أجزاء مفككة يتلو بعضها بعضًا، يصدق عليها القول بأنها مجموعة جمل مفككة لا ينظمها عقد واحد)^(١).

ومنها النقص في الأسانيد والاضطراب في الروايات التي نقلت لنا عقيدة زرادشت، مع اختلاف وجهات النظر بين من رأى أن عقيدته مستوحاة من تأملاته في الحياة والصراع الدائر بين الخير والشر، ومن رأى أنها جاءت بطريق الوحي باعتباره نبيًا!

ومن يميلون إلى الرأي الأول جيمي هنري برستد، الذي تحدث عن عناصر العقيدة الزرادشتية بقوله: (تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر، هذا الصراع الذي كان يراه حوله أينما سار... وبدا له أن هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر، واعتقد أن الخير ليس إلا كائنًا إلهيًا أطلق عليه اسم «مازدا» الذي كان اسمًا لأحد الآلهة القدامي، أو «أهورا مازدا» ومعناها رب الحكمة، الذي رأى فيه أنه هو الله... ويقف ضد أهورا مازدا وأعوانه جماعة شريرة قوية أطلقوا عليها اسم «أهريمن»، وهو الذي أخذه اليهود ثم المسيحيون من بعدهم وعرفوه تحت اسم «الشیطان»^(٢).

أما الرأي الثاني الذي يستند إلى بعض النصوص المرجح أصالتها وتصور زرادشت على أنه نبي فقد ورد فيها ما يدحض الرأي الأول حيث يقول فيها مناجيًا ربه: (إلى أي أرض أفر؟ وإلى أي اتجاه يكون المهرب؟ إلى النبلاء والسادة وهم يقاطعونني؟ ... أم إلى الناس وهم غير راضين عني؟ أم إلى حُكَّام الأرض الخونة؟ كيف أبلغ رضاك يا أهورا مازدا)^(٣).

(١) في العقائد والأديان للدكتور محمد جابر عبد العال ص ١٦٤.

(٢) انتصار الحضارة، جيمس هنري برستد، ترجمة د. أحمد فخري، ص ٢٦٠، نقلًا عن المصدر السابق.

(٣) في العقائد والأديان ص ١٦٦.

العقيدة بين زرادشت والإتباع

يذكر الشهرستاني أن زرادشت دعا إلى التوحيد وإبطال الأصنام، حيث أورد وصفًا كاملاً لعقيدته، ملخصًا إياها في عبارة قال فيها: (وكان دينه عبادة الله والكفر بالشیطان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث).

كذلك فصل عقيدته حيث وصف الله تعالى بأنه واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند، وأنه خالق النور والظلمة، لا يجوز أن ينسب إليه تعالى وجود الظلمة.

أما عن نظرتة للعالم أو المخلوقات فهي خاضعة لمبدئي النور والظلمة، حيث فسر عنصر الوجود من نور وظلمة وخير وشر؛ فالأول أي «النور» له وجود حقيقي، والثاني أي «الظلمة والشر» ليس لها وجود حقيقي، مثل ظل الشخص حيث يرى أنه موجود ولكن ليس وجودًا حقيقيًا كوجود الشخص نفسه.

كذلك يفسر حركة الموجودات بواسطة نظريته عن النور والظلمة كأصلين متضادين، فالخير والشر، والصلاح والفساد، والطهارة والخبث إنما حلت حسب تفسيره من امتزاج النور والظلمة، ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم، والبارئ تعالى هو الذي مزجها وخلطهما لحكمة رآها في التركيب.

وبينما يحدثنا عن امتزاج النور والظلمة ينقل عنه أيضًا أنها يتصارعان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة، والخير الشر، ثم يتخلص الخير فيرقى إلى عالمه الأعلى، وينحط الشر إلى عالمه الأسفل.

وينسب إلى زرادشت أيضًا تكليف الإنسان بحركات ثلاث هي:

١- الاعتقاد

٢- القول

٣- العمل^(١)

(١) الملل والنحل، للشهرستاني - القسم الأول - تحقيق محمد فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، شوال ١٣٧٥ هـ - مايو ١٩٥٦ م.

وإذا قصر الإنسان فيها خرج من الدين والطاعة، أما إذا جرى في هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر.

ويبدو من عرض الشهرستاني للزرادشتية أنه يلتزم بالوصف ويقرر مشاهداته ويسجل معلوماته المستقاة من مصادرها، إذ يقول: (هذا ما وجدته من مقالات أهل العلم ونقلته على ما وجدته، فمن صادف خللاً في النقل فأصلح، أصلح الله ﷻ بفضلته حاله، وسدد أقواله وأفعاله).

لذلك فإن تمييزه بين عقيدة زرادشت وعقيدة أتباعه لا بد أن تؤخذ في الاعتبار عند النظر في تعليل الاختلاف بين العقيدتين، فنلاحظ أن الشهرستاني ميز بين زرادشت الذي نص على أن للعالم قوة إلهية هي المدبرة لجميع ما في العالم، وبين الفرق المنتسبة للزرادشتية بعقائدها التفصيلية الخارجية عن هذا الأصل.

ونحن نرى أن هذا التغيير ربما استحدث بفعل الأتباع والمريدين - لا سيما المتأخرين منهم عن عصر زرادشت - وهذه هي الآفة الغالبة على معظم أصحاب الديانات والعقائد والنظريات الفلسفية، إذ تحدث على أيدي الأتباع تحولات ملحوظة، منها ما يتناول الفروع، ومنها ما يتحول عن الأصول الجوهرية ويقطع الصلة بها قاله واعتقده الأوائل، فلا يبقى إلا الاسم والنسبة، والدليل على تحول الزرادشتية أن الاعتقاد في النار أخذ يتدرج خطوة خطوة، فبعد تعظيمها في أول الأمر بالاتجاه إليها وإلى الشمس ساعة الصلاة؛ لأن «النور» رمز الإله في زعمهم، انحرف بهم طائفة رجال الدين إلى اتخاذها بذاتها قبلة في العبادات، ثم جاءت الخطوة الأخيرة فعبدوا النار، وصاروا يبنون لها الهياكل والمعابد، بحجة أنها جوهر شريف علوي، وأنها لم تحرق الخليل ﷺ، ويظنون أن تعظيمها سينجيهم من عذابها يوم القيامة!

ومن المؤيدين لهذا الرأي أيضاً في العصر الحديث الدكتور علي عبد الواحد وافي، إذ يرى أن الديانة الزرادشتية كانت في أصلها ديانة توحيد، تدعو إلى عبادة إله واحد هو «أهورا مزدا» وتحارب الشرك وعبادة الأصنام والكواكب وقوى الطبيعة، فأهورا مزدا يطلق في «البستاق» على الذات المتصفة بصفات القدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم، وإنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، ويعلم حقيقة ما في السموات والأرض، ولا

يصل أحد إلى معرفة حقيقته، بل إن اسم «أهورا مزدا» يدل معناه في الفارسية على ذلك، فهو مركب من ثلاث كلمات وهو «أهو» و«را» و«مزدا». ومعناها على الترتيب: أنا- الوجود- خالق، أي أنا وحدي خالق الوجود^(١).

وجاءت المرحلة التالية في تغيير العقيدة بسبب دخول الرمز على الذات الإلهية في الزرادشتية حتى تقوى الجماهير على إدراكها باعتبارها ذاتاً روحانية خالصة مجردة من شوائب المادة، فأشير إليها برمزین أحدهما ساهوي وهو الشمس، والآخر أرضي هو النار، فكلاهما عنصر متلألئ مضيء طاهر مطهر، لا يتطرق إليه الخبث ولا الفساد، وتتوقف عليه الكائنات، وهذه الصفات تشبه طائفة من صفات نفسه، وترمز إليه^(٢).

وانتهت الزرادشتية كما بيّنا آنفاً إلى تقديس النار في ذاتها وعبادتها بعد أن كانت رمزاً للإله^(٣).

منهج العامري (٣٨هـ) في دراسة الزرادشتية

بقدر اتساع منهج دراسة الأديان وشموله بقدر ما يتمكن الباحث من تقويمها، فإن بعض العلماء من ينظر إلى الأديان بأفعال المتدينين، ومن يقومها بعقائدها وتصوراتها، وهناك من يقدرها بقيمها ومثلها العليا وما تحث عليه من فضائل الأعمال وترك رذائلها، وهناك من ينظر إلى آثارها في إقامة المجتمعات وبناء الحضارات.

وربما انفرد عالمنا العامري بتقويم الزرادشتية من هذه الجوانب كلها، مقارناً بينها وبين الأديان الستة الواردة بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّرِيّٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧].

ولكن تظهر جدة الدراسة التي أجراها العامري في تناوله للعنصر السياسي التاريخي ولذلك يشير إليها على أنها (الأديان الستة التي لها خطط وممالك)، أي أن كل دين منها قد

(١) الأسفار المقدسة ص ١٤٣.

(٢) نفسه ص ١٤٣ / ١٤٤ وترجمة معنى الإله، نقلاً عن كتاب «زرادشت الحكيم» لحامد عبد القادر.

(٣) نفسه ص ١٤٦.

يكون مجتمعًا، وأقام دولة في فترة من فترات التاريخ^(١)، غير أن المجتمعات التي نشأت عن الأديان الستة تختلف فيما بينها، فلما جاء الإسلام، ناصبته باقي الأديان العداء لأسباب مختلفة، منها أنه أطاح بنفوذ رجال الدين كما أنه ألغى النظام الطبقي الجائر، لا سيما في المجتمع الفارسي، حيث قسّم ملوك الفرس رعاياهم إلى خمس طبقات؛ أعلاها رجال الدين، يليها الوزراء، ثم قواد الجيش، ثم الكُتّاب، ثم الشعب أو الطبقة العاملة.

يقول العامري: (إن دين الإسلام لما كان ناسخًا للأديان كلها وكان ملكه قادمًا في الرياسات بأسرها، وقد امتلأت القلوب غيظًا عليه؛ لهدمه كراسي علماء الكتّابين، وطيه مقاعد الملوك والسلاطين، ثم كان مع ذلك في نهاية الحسن) ويعني بذلك أنه جاء بمبادئ تهدم هذه المزايا المصطنعة من وضع البشر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]^(٢).

وقال الرسول ﷺ: «إن الناس كلهم لأدم وآدم من تراب» وقال أيضًا: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسمى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(٣).

وإذا كان الفرس قد أقاموا مدينة الأكاسرة، إلا أنهم ابتلوا - في رأي العامري - بمحتتين عظيمتين لا يدانيهما شيء من المحن الدنيوية في الفضاة والنكر:

إحدهما: عوق الموازنة (وهم أعلى طبقة من رجال الدين الزرادشتي) لدهمائهم - بالقهر - عن اقتناء الحكمة الإلهية؛ أي احتكارهم لتفسير الدين ومنع العامة من النظر والاستدلال، ويفسر العامري هذا الاحتكار بحرصهم على الإبقاء على نفوذهم وسيطرتهم على العامة، وحتى لا يكتشف الناس - إذا ما نظروا وتحققوا - زيف اعتقادات زرادشت (وكان سببه أن زرادشت المتنبئ لما أسمى لهم في الأبواب الاعتقاد بتلك الأصول الدالة على نزارة حظه من الحكمة للنظرية؛ نحو كون العالم من قديمين، وحول

(١) مقدمة كتاب العامري «الإعلام بمناقب الإسلام» للدكتور أحمد عبد الحميد غراب، ص ٤٣، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بمصر ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

(٢) نفسه، المتن ص ١٩٤.

(٣) نفسه ص ١٧٦.

جبلته من امتزاج الضدين وأنواع هديانه في العفارت والشياطين، وخطئه الفاحش في شكل الأرض وتخطيط الأفلاك - صيرهم بالمأخذ التقليدي مزجورين عن الحكمة الإلهية، تحرزًا من أن يتنبه الناظر فيها، والمتحقق لبراهينها، على سخافة دعاويه^(١).

والأخرى: التمييز الطبقي، فإن طبقاتهم بأسرهم كانوا مضطهدين بسياسة الاستعباد، ويزيدنا البيروني إيضاحًا فيصف النظام الطبقي الصارم الذي طبقه الملوك القدماء، فكانوا يلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة أو حرفة، ولا يرخصون لأحد في تجاوز رتبته ويعاقبون من لم يكتف بطبقته^(٢).

إن الفكرة التي تنبئ إليها العامري سبق بها عصره - لا لأنه عرف فكرة المساواة التي نص عليها الإسلام - فهي مطروقة منذ نزول الوحي، وطبقت في العصور الأولى، ولكن العامري تنبئ إلى صلة العقيدة الدينية بالبنية الاجتماعية، وقد ثبت أنه بغير الدين الحق لا تتماسك المجتمعات، بل تظهر فيها إحدى الأفتين؛ إمَّا النظام الطبقي المرذول الذي وجدناه في المجتمع الفارسي، وقيام فئة بالإمساك بزمام الأمور في مجتمعاتها، والتسلط على غيرها من الفئات بوسيلة أو بأخرى، أو التعرض للفتنة.

ويتطبيق ذلك على مجتمعاتنا المعاصرة نجد أنموذجًا متحققًا في المجتمعات الغربية:

ويتلخص التحليل العلمي الذي قام به الدكتور حسين مؤنس إلى أن الدين جزء من البنية، بل هو نواة البنية نفسها، فهو وحي من الله وإرادة إلهية، لا ظاهرة اجتماعية أو فكر بشري، وعلى ضوء افتقاد هذه البنية بهذا المفهوم فإنه بالنظر إلى المجتمعين الروسي والغربي نجد أن كليهما استعاض بالبنية الدينية وسائل أخرى، فلم تصل روسيا إلى ما وصلت إليه بواسطة المركسية - كما زعمت من قبل (ونحن الآن نراها تتهاوى) - بل بالمذابح التي أنزلها الشيوعيون بالناس في المجتمعات التي يسودونها، وتخلل البنية الدينية في الحضارة الغربية بدأ الانحدار الذي يعلله «أرنولد توينبي» بسبب التوسع والسيطرة على البشر

(١) نفسه ص ١٧٤، ونلاحظ أنه اعتبر زرادشت من المنتهين الكذبة!

(٢) نفسه ص ١٧٥ وتعليق محقق الكتاب د. أحمد عبد الحميد غراب.

جعلت منها ما يسميه «الحضارة العالمية أو الجماعة العالمية» نتيجة لابتلاعها لكل ما استطاعت ابتلاعه من عناصر الحضارة المعاصرة، فدخلت في تركيبها اليوم عقائد غير مسيحية مثل البوذية والهندوكية البدائين .. وأخذوا من الهند والصين أشياء مثل: اليوجا والكارايتيه، وكل ذلك ناشئ من أن بنية مجتمعاتهم تخلخلت وفقدت تماسكها الأول^(١).

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن حالة التقلقل في قواعد المجتمع نتيجة فساد البنية أدت إلى محاولة البحث عن وسائل أخرى ما دامت المناعة الداخلية للمجتمع قد ضعفت ولم تعد كافية للحفاظ على المجتمع، فاتجهت الكتلة الغربية إلى الحماية الخارجية عن طريق التسلح والإنفاق في غير حساب على غزو الفضاء وما إلى ذلك.

ونعود إلى العامري في كتابه «الإعلام بمناقب الإسلام» الذي التزم بمنهج المقارنة متبعاً الأدلة، باحثاً عن آثار الدين الحق وثمراته على الفرد والمجتمع، مميّزاً بين ذلك وبين صور التدين المنحرف وآثاره الاجتماعية، وقد شغل أيضاً بتعليل مواقف الخارجين على الدين الصحيح أو المنكرين له، ورأى أنهم لا يتعدون أسباباً ثلاثة:

١- المشرك وأكثر آفاته هو ما يظهر لحاستي سمعه وبصره في الأوثان المنحوتة من أنواع الأعجوبات، ثم (بمرور الزمن يتطور تعظيم الأصنام إلى عبادتها)^(٢).

٢- الملحد بسبب استحباب اللذات الحسية التي تعميمه عن تأمل العواقب وتدعوه إلى إشباع نفسه بالشهوات.

٣- الكتابي وأكثر آفاته هو ما وقع في كتبهم من التأويلات المختلة وتسلط على إنجيلهم من الأهواء المضلة.

ويضيف إليهم كلاً من المجوس والثنوية الذين يشبهون المشرك مرة، والكتابي مرة أخرى^(٣).

(١) التاريخ والمؤرخون، د. حسين مؤنس ص ٤٤١ / ٦٤١ باختصار، ط. دار المعارف بمصر ١٩٨٥.

(٢) الإعلام بمناقب الإسلام ص ١٦٦ / ١٦٧ وتعليق د. غراب.

(٣) نفسه ص ١٦٧.

أثر الفرس في بعض عقائد الشيعة

يبدو أن بعض الفرس ظلوا مستمسكين بعقائدهم الأصلية، محافظين على شعائرتهم، حتى بعد اعتناق الأغلبية للإسلام، وكان هذا دأبهم منذ غزو اليونان لبلادهم، فإن الإسكندر الأكبر عندما غزا بلاد الفرس بعد موت زرادشت بنحو ثلاثمائة عام، مزق الأفتسا وأقام بدل الزرادشتية عقيدة اليونان، ولكن الشعب الفارسي ظل محافظاً على ديانتهم، يعلمها سرّاً لأبنائه وأحفاده.

وبعد انتهاء الاستعمار اليوناني - أي بعد نحو خمسمائة عام - جمع الشعب ما تبقى من الأفتسا في كتاب واحد، بالرغم من ضياع أجزاء كثيرة منها، وبني معابد جديدة للنيان^(١)، مما يدل على أن الغزو اليوناني لم يفت في عضدهم، ولم يستطع اجتثاث العقائد المجوسية من قلوبهم، بالرغم من مضي نحو خمسة قرون، (وبعد أربعمائة عام أخرى غزا العرب فارس وجاءوا بدينهم الجديد الذي أرسل به محمد ﷺ وهو الإسلام، ولكن عدداً من الناس في إيران فضّلوا الموت على اعتناق الدين الجديد، وإن فضل عدد آخر منهم اعتناق الإسلام، أما الآخرون فقد هربوا إلى بلاد سُمح لهم فيه بممارسة طقوس عبادتهم كما يشاءون)^(٢).

لذلك فإن بعض الباحثين في عقائد فرق الشيعة - لا سيما الباطنية - يلاحظون تشابهاً بينهم وبين الفرس، بل أطلق اسم «المجوس» على «القدرية» أيضاً كما سنرى.

قال الأستاذ أحمد أمين: (والحق أن التشيع كان مأوى لجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آباءه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ... وتستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية وما في نفوسهم إلا الكره للعرب ودولتهم، والسعي لاستقلالهم)، ويستند أيضاً إلى ما ذهب إليه المقرئ في تعليقه لاختفاء بعض الفرس وراء الإسلام بعامة والتشيع بخاصة بمحاربة الإسلام؛ لأنهم كانوا أهل ملك وعلو على جميع الأمم، يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما

(١) قصة الديانات، سليمان مظهر، ص ١٣٨، ط. دار الوطن العربي، بدون تاريخ.

(٢) نفسه ص ٣١٩.

انتصر العرب المسلمون عليهم - وكانوا يعتبرون العرب أقل الأمم خطرًا - تضاعفت لديهم المصيبة، فرأوا كيد الإسلام بالمحاربة عن طريق الحيلة لعجزهم عن المواجهة الصريحة المباشرة (فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علي، ثم سلخوا بهم مسالك شتى أخرجوهم بها عن طريق الهدى^(١)، ولكنهم لو فحصوا ما دار حول الخلافة منذ توليها أبو بكر لعلموا أن عليًا لم يُظلم كما يتوهمون، بل إنه بايع وأقر بخلافة الخلفاء قبله ﷺ جميعًا.

ويرى المستشرق «دوري» أن الشيعة كانت في حقيقتها فرقة فارسية، مستندًا إلى أن الفرس لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم، لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمد ﷺ لم يترك ولدًا يرثه، فإن عليًا ﷺ هو الذي يجب أن يخلفه وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية في آل علي، ويضيف أيضًا أنهم اعتادوا أن يروا في ملوكهم أحفادًا منحدرين من أصلاب الآلهة الدنيا، فنقلوا هذا التوقير الوثني إلى علي وذريته!^(٢)

ولا نجد للشيعة سندًا يعتد به في هذا الانحراف العقدي، ولو درسوا التاريخ بأمانة لوجدوا الاعتراض التام عليه، إذ عبّر المغيرة بن شعبة ﷺ عن دهشته واعتراضه على اتخاذ الفرس بعضهم أرباب بعض، حيث كان الأكاسرة يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، ولذلك علّق المغيرة على ما لاحظته من تلك المظاهر مخاطبًا «رستم» قائدهم: «وإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم، فلا نفعله» معبرًا بذلك عن عقيدة التوحيد التي تجعل من المسلم عبدًا لله تعالى وحده.

ولما زحفت تأثيرات الزرادشتية على العالم الإسلامي في عصور متأخرة رأينا ابن تيمية يحذر من الوقوع في برائنها مذكّرًا المسلمين بالحديث الصحيح: «لنأخذن مأخذ

(١) فجر الإسلام، أحمد أمين ص ٢٧٦/٢٧٨ نقلًا عن «الشيعة والتشيع - فرق وتاريخ»، إحسان إلهي ظهير ص ٤٠١، ط. إدارة ترجمان السنة بباكستان ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٢) ويرى ذلك المستشرق الألماني ولهورن المتعاطف مع الشيعة، فيذكر أنه لا سبيل للشك في أن آراء الشيعة كانت ثلاثم الإيرانيين، نفسه ص ٣٩٤.

الأمم قبلكم؛ شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: فارس والروم؟ قال: «فمن غيرهما».

ويرى شيخ الإسلام أن هذا الحديث ينطبق على كل من اتخذ عقيدة أو سلك سلوكًا مشابهًا لهاتين الأمتين، ونحن نعلم أنهما في عقيدتهما يعبران عن الشرك في جميع صورته، والمتدبر للقرآن الحكيم يدرك لم لم يعن بالرد على منكري وجود الله ﷻ؟ وكأنه لم يفرض وجودهم أو كأنه نظر إليهم على أنهم خارجون عن نطاق البدهاء والعقل، ولذلك لم يوجه إليهم قولاً يشعر بأن له وزنًا، وإنما وجه حديثه الأكثر إلى المشركين مع الله تعالى آلهة أخرى.

ويقول الدكتور جميل عبد الله: (وكان للزرادشتية الثنوية أثر فعال في طوائف الشيعة والباطنية من قرامطة وحشاشين ونصيريين ودروز وغيرهم، ثم اعترفت به البهائية أخيرًا، ووجدت في الزندافسته - كتاب الزرادشتية - بشارات بالبهاء والباب، في نصوص نقلها البهاء عن الشهرستاني!)^(١)

مكانة الشيطان ودوره في الزرادشتية

كان الفصل القاطع بين الخير والشر والتمييز بين فاعل كل منهما في العقيدة الزرادشتية الوثنية أثره في المغالاة في دور الشيطان وتأكيد فاعليته، فمما عرف عن زرادشت أيضًا اعتقاده (أن «أهورا» هو الخالق أو هو الحياة، أو هو خالق الحياة، أو هو الخير، وأن «مازدا» خالق المادة أو هو الشر أو هو الشيطان أو مدمر الحياة أو هو المميت)^(٢).

لهذا فقد وصف الأديب الإيطالي «جوفاني بابيني» ما فعله زرادشت بقوله: (إن زرادشت هو أول من ارتفع بمستوى الشر في التاريخ، فهو الذي جعل الشيطان شريكًا في

(١) ص ٩٧ من كتاب «الإسلام في مواجهة الحركات زمن الدولة الأموية» للدكتور جميل عبد الله محمد المصري، دار أم القرى، الأردن - عمان ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

(٢) ديانا أخرى، أنيس منصور ص ٢٦ / ٢٧.

الخلق، وملحًا لكل طعام، ومرضًا لكل جسم، وهيبًا يحرق كل شيء»^(١).

ولتصحيح هذا الوضع الخاطيء الذي التبس على الكثيرين فلا بد من الاستنارة بعقيدة أهل السنة والجماعة، إذ يتضح على ضوءها أن الإنسان هو الفاعل الحقيقي للشر إذا ما اقترفه وفعله، وليس الشيطان هو الفاعل، فللشيطان الهاتف والوسوسة فقط، ولكنه لا يمسك بتلابيب الإنسان أو يدفعه مستخدمًا قوته أو يجذبه من يديه أو رجليه، كل ما هنالك أنه يغري ويغوي ويظل يهتف حاضًا على فعل الشر.

أما «السلطان» الوارد في الآية: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فإن العلامة ابن مفلح يفسر السلطان المنفي في هذه الآية بالحجة والبرهان، واستنادًا إلى قول ابن عباس: (إني ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي وصدقتم مقالتي واتبعتموني بلا برهان ولا حجة)، وأما السلطان الذي أثبتته الله تعالى في قوله: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ [النحل: ١٠٠]، فهو تسليطه عليهم بالإغراء والإضلال وتمكنه منهم بحيث يؤزهم إلى الكفر والشرك ويزجهم إليه كما

(١) نفسه ص ٣١.

وقد وجد المؤلف صدى لزرادشت عند الفيلسوف الألماني «نيتشه» بكتابه «هكذا تكلم زرادشت»، الذي نسب أقوالًا إلى زرادشت لم يقلها ولكنه -أي نيتشه- أراد أن يتجاوز الإنسان إلى عبادة الإنسان الأعلى، إلى عبادة النبل والقوة والسمو في الإنسان نفسه... أليس الإنسان أسمى مخلوقات الله؟ إن عبادة الإنسان للإنسان هو تقديس لأقدس ما خلق الله، ومن المعروف أن «نيتشه» كان فيلسوف القوة ومنظر النازية. نفسه ص ٣٣.

ولا بد من الإشارة أيضًا في عجالة إلى العمل الأدبي المشهور للشاعر الألماني «جوته» الذي صور في رواية شعرية موضوع غواية إبليس لآدم عليه السلام، وانتقل به إلى الأرض، مصورًا مأساة الإنسان مع الشيطان معبرًا عن ذلك في الصراع الذي دار في كيان «فاوست» العالم المسن، حيث انشطر كيانه نصفين وأصبح «مفستوفيلس» هو الشيطان و«فاوست» هو «الإنسان» ويصور انتصار الشيطان في النهاية بعد أن أغراه بفتاة جميلة، ومات العالم في النهاية على أسوأ صورة، لأنه باع روحه واتبع خطوات الشيطان.

الإسلام حضارة، للدكتور حسين منصور، ص ١٤/١٥، واسم العالم في الرواية الشعرية «مفستوفيلس فاوستوسي» ط. الدار السعودية بجدة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُوهُمْ أُزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]^(١).

ولكن لا يحملنا ذلك على الاستهانة بالشیطان، أو التهوين من شأنه، بل ينبغي الحذر منه والتحصن ضده بأنواع الأدعية والأذكار الواردة في السنة، يقول ابن مفلح: (اعلم أن الشيطان يقف للمؤمنين في سبع عقبات؛ الكفر فإن سلم منه ففي عقبة البدعة، ثم في عقبة فعل الكبائر، ثم في عقبة فعل الصغائر، فإن سلم منه ففي عقبة فعل المباحات فيشغله بها عن الطاعات، فإن غلبه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، فإن سلم من ذلك وقف له في العقبة السابعة، ولا يسلم منها المؤمن إذ لو سلم منها أحد لسلم منها رسول الله ﷺ وهي تسليط الأعداء الفجرة بأنواع الأذى)^(٢).

ولكن في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة لا يستقل الشيطان بفعل ما بغير مشيئة الله تعالى وإرادته، مع نسبة فعل الشر إلى الإنسان الفاعل حقيقة، ونكتفي بمثال واحد ضربه الأصفهاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ تَحْنُ قَدَرْنَا بِيْتَكُنَّ الْآمُوتِ ﴾ [الواقعة: ٦٠]، فإنه تنبيه أن ذلك حكمة من حيث إنه هو المقدر، وتنبيه أن ذلك ليس كما زعم المجوس أن الله يخلق وإبليس يقتل)^(٣).

(١) مصائب الإنسان من مكائد الشيطان، ابن مفلح ص ٤٩، الناشر: علي رحمي، دار مرجانة للطباعة بمصر ١٩٨٠م.

(٢) نفسه ص ٦٩.

وينظر مادة «شطن» بكتاب المفردات للراغب الأصفهاني ص ٢٦١، إذ قال: (شطن: الشيطان النون فيه أصلية، وهو من شطن؛ أي تباعد، ومنه بئر شطون وشطنت الدار وغربة شطون. وقيل: بل النون فيه زائدة من شاط يشيط احترق غضبًا، فالشيطان مخلوق من النار كما دل عليه: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ [الرحمن: ١٥]. ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة وامتنع من السجود لآدم، قال أبو عبيدة: (الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات، قال: ﴿ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيْطَانِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤].

(٣) المفردات ص ٣٩٥.

المجوس، ونفاة القدر «أو القدرية»

وهذا ما أدى إلى تشبيه نفاة القدر (أو القدرية) بالمجوس، وتضمنت كتب العقائد الإسلامية آراء علماء الإسلام في ذمهم وبيان انحرافهم عن العقائد الصحيحة، بل أثبت بعضهم صحة الحديث المروي عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «القدرية مجوس هذه الأيام» رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم ^(١).

ومهما كان الاعتراف في تصحيح هذا الحديث فإن المتن يعني أن هؤلاء الذين ينفون القدر يشبثون للإنسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تقع الأفعال بقدر الله تعالى وقضائه!

وفي حديث آخر روي مرفوعاً عن أبي هريرة رضي الله عنه: «تكون قدرية ثم تكون زنادقة ثم تكون مجوس، وإن لكل أمة مجوساً وإن مجوس أمي المكذبة بالقدر، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم ولا تتبعوا لهم جنازة». وقال الخطابي في شرح الحديث: (إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين، وهما: النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره، والله تعالى خالق الأمرين جميعاً) ^(٢).

ويأتي فصل الخطاب على لسان شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أوضح الموقف العقدي الصحيح بين فريقي الجبرية والقدرية، مرجحاً عقيدة أهل السنة والجماعة باستعراضه

(١) لوامع الأنواع البهية وسواطع الأسرار الأثرية، للسفاريني، ج١، ص ٣٠٥، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة أسامة، الرياض.

وإن كان ابن الجوزي قد عدّه من الموضوعات، وذكر الحافظ المنذري أن في سنده انقطاعاً، إلا أن السفاريني يميل إلى تصحيحه.

(٢) نفسه ص ٣٠٥، وينظر أيضاً الحديث المروي بصيغة أخرى مع اتفاق المضمون، حيث ورد بلفظ:

«والمكذب بقدر الله»، ورواه الإمام أحمد عن ابن عمر ولفظه: «لكل أمة مجوس، ومجوس أمي الذين يقولون: لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» حسّنه الشيخ الألباني ص ٣٨ من كتاب «منهاج السنة النبوية» رجائي بن محمد المكي المصري - مكتبة التوعية الإسلامية بالجيزة

لقصة خلق الإنسان منذ البداية، وطاعة آدم ﷺ لربه ﷻ وعصيان إبليس، مبيّنًا أن الإيمان بالقدر لا يتنافى مع الإقرار بمسئولية الإنسان عن أفعاله.

قال ابن تيمية: (فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابهاً للمشركين، ومن نظر إلى الأمر والنهي وكذّب بالقضاء والقدر كان مشابهاً للمجوسيين، ومن آمن بهذا وبهذا فإذا أحسن حمد الله تعالى، وإذا أساء استغفر الله تعالى، وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره، فهو من المؤمنين، فإن آدم ﷺ لما أذنب تاب فاجتبه ربه وهدهاه، وإبليس أصرّ واحتج فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدمياً ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيّاً، فالسعداء يتبعون آباءهم والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس) (١).

دور الفرس في الغزو الثقافي

ونأتي أخيراً إلى بعض الأدلة التي نقدمها لمن يشكك في الغزو الثقافي الغربي المعاصر، إذ إنه في حقيقته كسلسلة في حلقات الغزو المتكررة في تاريخنا، ولكن لم تستطع تفرغ نتائجها كاملاً أيام سطوة الحضارة الإسلامية، فحوصرت وضعفت فاعليتها بما لا يقاس بما أدته في العصر الحاضر بسبب سطوة الحضارة الغربية وانحسار حضارتنا.

وعلى أية حال فإننا نقدم في هذا الحيز من البحث بعض الأدلة من تاريخ احتكاك ثقافتنا بثقافات الأمم قبلنا - كالفرس واليونان - وأماننا علامات ودلالات على طريق الغزو الديني والثقافي، رأينا شقه الأول - أي الديني - في التشيع، وسنراه الآن بشقه الثاني - أي الثقافي - في بعض الأعمال الأدبية وقد يجتمعان معاً ويختلطان بحيث يتعذر فرزهما؛ كما قام العامري بإبراز حقيقة ربما كانت خافية من قبل، وهي أن كتاب «الأدب الكبير» لابن المقفع، يحتوي على ترجمة ملخصة للوصايا الأخلاقية والآداب الموجودة في «الأوستا» الكتاب الديني للزرادشتية (٢)، ويذكر المسعودي ضمن الأخبار الموضوعية من خرافات مصنوعة بكتب منقولة إلينا من الفارسية، والهندية والرومية، مثل: كتاب «خزار أفسانه» وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية «ألف خرافة» والخرافة بالفارسية يقال لها:

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ٨، ص ٦٤ طبعة الرياض.

(٢) مقدمة كتاب «الإعلام» للدكتور أحمد غراب ص ٦١/٦٢.

أفستانه، والناس يسمون هذا الكتاب «ألف ليلة وليلة»، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرزاد وبنازاد^(١).

كذلك أورد الجويني بكتابه «الشامل في الأصول» ما ذكرته طائفة من الثقات المعتمدين بالبحث عن البواطن أن الحلاج والجبائي القرمطي وابن المقفع تواصلوا على قلب الدول وإفساد المملكة واستعطاف القلوب، وارتاد كل منهم قطراً، فقطن الجبائي في الإحساء، وتوغل ابن المقفع في أطراف بلاد الترك، وقطن الحلاج ببغداد^(٢).

وجاء ابن تيمية فنوه بجهود العلماء قبله الذين قاموا بالكشف عن أستار هؤلاء المتأمرين على عقائد الوثنية ضمن عقائد المسلمين بإلباسها ثوباً إسلامياً خادعاً لستر حقيقتها الباطلة، قال: (وكذلك ذكر الكاشفون لأسرار القرامطة وألا تكون لأستارهم كالقاضي أبي بكر بن الطيب ٤٠٣هـ والقاضي أبي يعلى ٤٥٨هـ وطوائف كثيرة ما وجدنا مصداقه في كتب القرامطة من أنهم وضعوا لأنفسهم اصطلاحات روجوها على المسلمين، ومقصودهم بها مقصود الفلاسفة الصابئين والمجوس الشنوية)^(٣).

وكشف الدكتور عبد القادر محمود النقباب عن دور كل من الفرس واليهود في تأسيس الحركة الشعبية بزعم أرستقراطية الدم الفارسي وعقيدة شعب الله المختار، وكان دور علماء وأدباء وشعراء الفرس إفساد الدين بالزندقة وإفساد العلم بالأكاذيب، وكان أصحاب رسائل إخوان الصفا وابن المقفع وبشار بن برد وابن الراوندي والرازي الطيب والمعري^(٤).

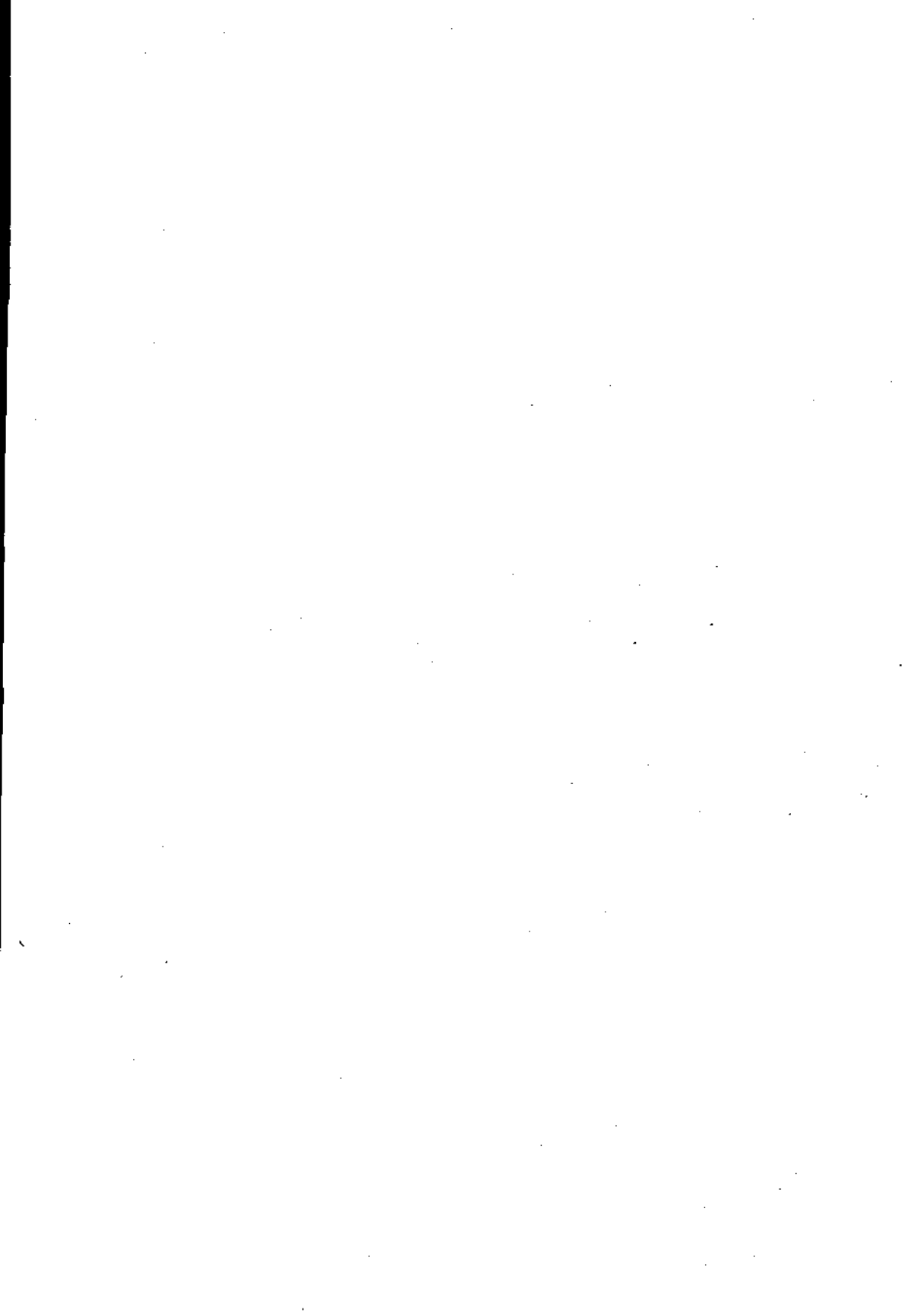
(١) مروج للمسعودي ج٢، ص ٢٦٠ ط دار الفكر ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص ٥٨٤، وإن صح النقد الموجه منه للجويني في الخطأ التاريخي، ولكن ألا يتفق الثلاثة في الهدف ولو اختلفت عصورهم؟ مع العلم بأن زمان الحلاج والقرمطي متقاربان.

(٣) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ص ١٩٣/١٩٤، تحقيق ودراسة / موسى بن سليمان الدويني - مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٤) يُنظر كتابه «الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث» ص ١٤/١٥، ط. الهيئة

المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م.



الفصل الخامس

اليهودية

تمهيداً

إن ما يغنيننا عن الاستطراد في عرض العقائد والأديان باستقصائها جميعاً أننا اكتفينا بتلك التي سادت في أقطار واسعة من العالم واعتنتها الملايين كالهندوسية والبوذية والزرادشتية، وبقي علينا أن نعرض للديانتين؛ اليهودية والنصرانية.

وتمهيداً للحديث عنها نود أن نبين أولاً الغرض من هذه الدراسة في دائرتين:

الأولى: في داخل مجتمعاتنا، لتصحيح المفاهيم العقائدية في ضوء حملات التشكيك والتجهيل، حيث تخرجت أجيال وفق المناهج التعليمية التغريبية التي كان من أغراضها إمّا أن تصبح العقيدة باهتة منزوع منها إيجابية الجهاد والاضطلاع بمسئوليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من سُعب الإيمان الكفيلة بتحقيق المجتمع الإسلامي الذي يعين الأفراد على الحياة وفق تعاليم الإسلام وآدابه، أو إشاعة فكرة التقريب بين الأديان، أي تمييع فكرة ذاتية الحق تفرده دون صور الباطل المتعددة.

الثانية: في التعامل الخارجي، ونقصد بذلك معرفة نفسيات وأخلاقيات من نتعامل معهم من أهل الكتاب، فلا نتخذنا الكلمات والعبارات المعلنة لأغراض سياسية وأهداف اقتصادية أو دعاوى للتقارب والنقاش وتبادل الرأي لمواجهة الإلحاد، بينما خطط التبشير تمضي قدماً لاجتياح الأقطار الإسلامية في أفريقيا وآسيا، لا ينبغي أن نتخذنا هذه المظاهر وتحول بيننا وبين الفهم الحقيقي للنسيات والأغراض، ويصبح المفتاح المؤدي للفهم هو معرفة العقائد^(١) الدينية التي يحملونها في قلوبهم، وتنطوي عليها جوانحهم، فإن اليهود مثلاً عندما يبالغون في القتل والتمثيل والتعذيب، فإنها ينفذون التعاليم المدونة في كتبهم

(١) قالت «جولدا مائير» ذات يوم: (إن هذه الدولة -إسرائيل- موجودة نتيجة وعد أعطاه لها الله، ويكون من السخف أن يطلب الاعتراف بشرعيتها) من مقال «بيتر مانسفيلد» الشرق الأوسط،

المقدسة بتأكيد وإصرار، مع التهديد بسوء مصيرهم إن هم أخلوا بتطبيقها^(١) ويعلق الأستاذ كمال عون على ذلك بقوله: (لو كان ما يأتيه اليهود من جرائم بشعة عملاً طارئاً يخالفونه تهيئةً لحكومة أو تأكيداً لسياسة، أو دفاعاً عن النفس، ولو أن تلك القسوة التي يمثلونها كانت من وحي الظروف المحيطة بهم أو من آثار الولايات التي طالما كرثتهم على مدى تاريخهم، أو من باب المعاملة بالمثل لرجى أن تزول بزوال الباعث عليها، أما أن تستمد روحها من تعاليم الدين - وتنزل من نفوسهم منزلة اليقين، وتسقاها قلوبهم منسوبة إلى الهداة المرشدين - فذاك الداء الذي لا أمل معه في دواء، ولا يرجى منه شفاء، ما دام للدين أتباع، وما قامت باتباعه تلك التعاليم)^(٢).

يحدث هذا على مسمع من العالم وبصره، وفي العصر الذي راجت فيه - إلى وقت قريب - طنطنة زوال صراع العقائد والأديان، وأنه عصر التسامح.

وأسفرت الأحداث أننا كنا نعيش في أوهاام، فإذا كان الاستعمار العسكري قد انتهى، فإنه يحاول استعادة نفوذه - كما يذكر الدكتور أحمد شلبي - بطريق المبشرين أحياناً، وأحياناً بطريق عملائه من السكان الأصليين، ويقول: (وكان كثير من السكان الأصليين يتجمعون حول راية الإسلام إبان الصراع للتحرر، إذ كانت المسيحية تعد دين المستعمر، والإسلام دين المقاومة، فلما انتهى الاستعمار خفت صوت التجمع الإسلامي، وقلت شوكته بوصفه أدى مهمته، وانتهت أغراضه، في حين زاد التجمع لنشر المسيحية وكثرت وسائله)^(٣).

(١) اليهود من كتابهم المقدس - أعداء الحياة الإنسانية، ص ٤٣، كمال أحمد عون، ط. دار الشعب بالقاهرة ١٩٦٩م.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) مقارنة الأديان «٢- المسيحية» ص ٣١، مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٦٥م وينظر كتابه «الحروب الصليبية: بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن» مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦م، وقد صدره بعنوان «تحذير للمسلمين» أورد فيه كلمة نيكسون الرئيس الأسبق لأمريكا بمجلة الشؤون الخارجية عام ١٩٨٥م قال فيها: (روسيا وأمريكا يجب أن تعقد تعاوناً حاسماً لضرب الصحوة الإسلامية).

كذلك ينبهنا الدكتور أحمد شلبي إلى آثار عمليات التنصير في بلاد المسلمين التي تستغل جهل بعض المسلمين بدينهم أو تنتهز فرص الفقر والمرض لجذب المعوزين والمحتاجين، وأثار ذلك سياسياً واقتصادياً؛ لأن المسيحية التي يُعلّمها المبشرون ليست المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام، (إنها هي التي نسميها «المسيحية السياسية» التي ترمي أولاً: إلى ربط دول آسيا وأفريقية بعجلة الغرب عن طريق نشر الدين، وترمي ثانياً: إلى خلق فكر مسيحي يقف أمام المسلمين وأمام الفكر الإسلامي في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والدولية)^(١).

وتقتضي المناسبة شرح بعض أبعاد الحركة المسكونية^(٢) المتولدة من الحركة التبشيرية التي تبناها المؤتمر التبشيري العالمي بأذنبرة سنة ١٩١٠م، وقد حضر هذا المؤتمر ١٢٠٠ مندوب أغلبهم من الإنجليز والأمريكان، من بينهم «بلفور» واعتذر «روزفلت» الرئيس الأمريكي الأسبق في آخر لحظة.

ورأس المؤتمر «جون موت» الأمريكي ومخطط أعمال التبشير في المؤتمرات على مدى نصف قرن، وكان شعاره: تنصير العالم خلال ٣٠ عامًا، ومن أقوال بلفور عقب انتهاء المؤتمر: (إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات في أمور هامة، ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيرًا من العقبات)^(٣).

وعندما تقوم بدراسة الديانتين اليهودية والنصرانية لا ننسى الصلة بين عقائد اليهود والبروتستانت من النصارى.

وسنبداً أولاً باليهودية، ممهدين لذلك بإعطاء فكرة عامة عن تاريخ بني إسرائيل.

(١) المسيحية ص ١٣، وما يُذكر أن شركة قناة السويس خصصت ٣ ملايين جنيه للتبشير في بلاد الشرق الأوسط قبل تأميمها ص ١٥٧، من كتاب «أوروبا والإسلام»، للدكتور عبد الحليم محمود، ط. دار الشعب، ١٩٧١م.

(٢) من خطاب اللواء أحمد عبد الوهاب إلى جريدة الأهرام في ٢٣ / ٢ / ١٩٨٩م.

(٣) ويُطلق على باب روما أنه مسكوني، أي له نفوذ يمتد إلى جميع الأرض المسكونة، كما يُعد مجمع نيقية أول مجمع مسكوني. ص ٩١، ص ١١٦ من كتاب: بابوات من الحى اليهودي.

تاريخ بني إسرائيل

إن دراسة تاريخ بني إسرائيل يشكل ركناً مهماً في دراسة العقيدة اليهودية والتطورات التي مرت بها، حيث حرفوا الوحي الإلهي بالتوراة الأصلية الضائعة التي أنزلت على موسى ﷺ، فقد اصطبغت العقيدة اليهودية بصبغة الأحداث على مراحل تاريخ الإسرائيليين، وصاغها الحاخامات في كتبهم، ومنها «التلمود»، و«بروتوكولات صهيون» اللتين تعد محتوياتهما المفتاح الحقيقي لفهم شخصية الصهيوني المعاصر، يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: (الأسفار الخمسة بالتوراة مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة، تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل)^(١).

كذلك فإن الإحاطة بتاريخهم يوضح الحقائق المحيطة بقضايا كثيرة، فإن من أبرز معالم تاريخهم صور العداة مع الشعوب المختلفة، يقول الأستاذ العقاد في وصفه لطباعهم: (لا يعرف التاريخ هؤلاء القوم فترة واحدة جمعتهم على ألفة ووثام مع جيرانهم، فدخلوا مصر ونفر منهم المصريون، وعادوا إلى كنعان ونفر منهم الكنعانيون، وقامت لهم في عهد النبي داود ﷺ فشغلتهم الإغارة على جيرانهم، واتقاء الغارة من أولئك الجيران، ثم جاء سليمان الحكيم ﷺ فبنى لهم الهيكل فثاروا عليه ... ثم انقسموا بعده قسمين: إلى الشمال وإلى الجنوب، وحفظت كتبهم ما قاله الشماليون في الجنوبيين، وما قاله الجنوبيون في الشماليين، ثم سباهم البابليون، وحملوهم إلى أرض بابل، فلم تعتقد الألفة بينهم وبين جيرانهم، وسرحهم «كورش» عاهل الفرس بعد حين ... إلى أن يقول في ختام وصفه لهم: (وجملة تاريخهم بعد العودة من السبي تكرر لهذا التاريخ، ولما تفرقوا في البلاد بعد هدم الهيكل حدث لهم في كل بلد ما حدث في البلد الآخر)^(٢) ... هذا هو

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، الدكتور علي عبد الواحد وافي، مكتبة نهضة مصر بالفيحالة، مصر، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٢) الصهيونية العالمية، عباس محمود العقاد ص ٤١ مكتبة غريب بالقاهرة ١٩٦٨م، أما الانقسام المذكور فالمقصود به: إسرائيل في الشمال، ويهوذا في الجنوب، وقامت الحروب بينهما وظلت مشتتة الأوار يرثها خلف عن سلف، حتى لتقرأ في ختام الحديث عن كل ملكين متقابلين في يهوذا وإسرائيل هذه

التاريخ العام لهم، وسنعود له مرة أخرى معللين مفسرين.

أما عن القسوة، والوحشية في الحروب فحدّث ولا حرج عن بشاعتها مما سجّلته التوراة نفسها، كما قرر العلامة غوستاف لوبون: (ويعرف جميع قراء التوراة وحشية اليهود التي لا أثر للرحمة فيها، وما على القارئ ليقنع بذلك إلا أن يتصفح نصوص سفر الملوك التي تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار، وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قل، وكان الأهالي الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة فييادون باسم «يهوه» من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن، وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء)^(١).

وإذا عرفنا من هذه اللمحات في تاريخ بني إسرائيل بعض الحقائق المتعلقة بنفسياتهم وطبائعهم التي لم تتغير في واقعهم المعاصر، فإننا نريد بعد ذلك الوقوف على بعض الوقائع المهمة في تاريخهم توطئة لاستقراء وقائعها وتحليل أبعادها، بل إن الديانة اليهودية نفسها قد تأثرت بديانات ومعتقدات بابل بإقرار أحد مراجعهم وهو قاموس التوراة الذي يقرر (أن تفهم الديانة العبرية مستحيل ما لم تؤخذ بعين الاعتبار، وبشكل مستمر الديانات والثقافات الأخرى التي نمت وترعرعت في وادي الفرات ... إن الأصول القضائية البابلية، وكذلك الطقوس المعمول بها في المعابد البابلية، يجب أن تؤخذ كعوامل حاسمة التأثير على الشرائع العبرانية في الأصول القضائية والطقوس الدينية)^(٢).

= العبارة بنصها: (وكان بينها حرب كل الأيام)، وقال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بِيَتَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، ص ٦٦، وينظر كتاب «اليهود من كتابهم المقدس» للأستاذ كمال أحمد عون، ص ٦٦، ط. دار الشعب عام ١٩٦٩م.

(١) اليهود في تاريخ الحضارات ص ٤٧، غوستاف لوبون ترجمة عادل زعير، ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٧٠م، وإننا نقد براءة داود عليه السلام مما نسب إليه، ولعل صاحب هذا النص يحاول تبرئة قومه من هذه الأفعال بنسبتها إلى النبي داود عليه السلام وقد أشار لوبون إلى أن التوراة كتاب ألف في أدوار مختلفة أشد الاختلاف، ينظر ص ٧٢ من المرجع السابق.

(٢) قاموس التوراة - منشورات سكرينبر - نيويورك ١٩٠٩م نقلًا عن: التوراة - تاريخها وغاياتها ص ٢٨، سهيل ديب، ط. دار النفائس ١٤٠٦هـ.

إن هذا الخليط من الديانات والثقافات والطقوس أفقد التوراة وحدة الموضوع؛ لأنها ترجع إلى مصادر متعددة (وهو الرأي الذي يجمع عليه العلماء اليوم سواء كانوا من رجال اللاهوت أو غيرهم)^(١).

أهم الوقعات التاريخية لبني إسرائيل

سنقتصر على أهم الوقعات التاريخية لبني إسرائيل بغية الإجابة عن السؤال التالي: هل أقاموا حضارة مستقرة بفلسطين، وكانت لها صفة الاستمرار، ومن ثم تصيح دعوى إعادتها دعوى مقبولة على ضوء تاريخ الحضارات التي أقامها غيرها من الأمم؟

وربما كان التطلع إلى إجابة سؤال آخر أهم وهو.... إذا أقيمت لهم دولة مرة أخرى، هل تلتزم بالقيم الأخلاقية وتقيم كيانًا حضاريًا يفيد البشرية، أم تستأنف نشاطها الهدام العدائي للأمم والشعوب كدأبها طوال تاريخها، ومن ثم يصبح مصيرها إلى الزوال ما دامت قائمة على الاستعمار والظلم واغتصاب الأرض -فلسطين- من أهلها الأصليين^(٢)؟

إذا بدأنا بتاريخ هجرة يعقوب عليه السلام «الملقب بإسرائيل» من بلاد كنعان «فلسطين وما إليها» إلى مصر بسبب المجاعة، قد كان الوزير حينذاك بمصر هو يوسف عليه السلام وظلت سلالات بني إسرائيل بمصر تنعم بالحياة هناك، ثم تغير موقف المصريين القدماء حيث اتخذوا من بني إسرائيل خدماً وعبداً.

وبقي بنو إسرائيل كذلك إلى أن أرسل الله تعالى إليهم وإلى فرعون وقومه رسولين من نسل «لاوى» «ليفي Levi» أحد أبناء يعقوب هما موسى وأخوه هارون عليهما السلام، يدعوانهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الكواكب وأرواح الموتى والملوك والحيوان والنبات، وظل موسى وفرعون وقومهما في مشادات مع فرعون حتى أتىح لهم

(١) التوراة الهيروغليفية ص ٤٦.

(٢) زوال إسرائيل حتمية قرآنية، الشيخ أسعد التميمي، ط. المختار الإسلامي بمصر.

الخروج من مصر إلى سيناء^(١).

وخلال أربعين سنة كان بنو إسرائيل «يتيهون» في صحراء سيناء عقاباً لهم على رفض الانصياع إلى أوامر موسى ﷺ، بدخول الأرض المقدسة فلسطين^(٢).
وبعد فناء هذا الجيل نشأ جيل آخر تمرس بشئون القتال، فأكمل الله تعالى دينهم وأتم عليهم نعمته بعد أن تلقى موسى ﷺ من ربه ﷻ التوراة.

ثم يأتي الانتصار على يد يوشع خليفة موسى ﷺ، بعد وفاته، على بلاد «كنعان، فلسطين» واحتلوها بعد إبادة معظم أهلها.

ويرى جوستاف لوبون أنه (لم يكن هنالك فتح بالمعنى الصحيح، على الرغم من أفاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخاً ومن تعداد الانتصارات وتقتيل الأهالي وانهايار أريحا)^(٣)، ويفسر سبب نجاح بني إسرائيل بانقسام العشائر الكنعانية قائلًا: (ويفسر انقسام العشائر الكنعانية الكبير حقيقة النجاح الذي ناله بنو إسرائيل القليلو الذوق والضعيفو الأهلية للحرب والسيئو السلاح)^(٤).

(١) يقول الدكتور عمر فروخ بكتابه «الإسلام والتاريخ» ص ١٦٢: ١٦٣، ط. دار الكتاب العربي ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، يقول: (إن الأمة التي تزول حضارتها عن سطح الأرض لا تعود مرة ثانية إلى سطح الأرض وبالحضارة التي زالت معها، بينما الأرض تموت «ويذوى نباتها ثم يتيسر ويكون حطامًا» ولكنها ترجع في «العام التالي» إلى الحياة بالنبات الذي كان لها في العام السابق).
(٢) باختصار من كتاب «الأسفار المقدسة في الأديان السابقة قبل الإسلام» ص ٧ للدكتور عبد الواحد وافي.

(٣) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٣٤، جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ط. الحلبي بمصر ١٩٧٠ م، ويدلل لوبون على مدى تضخيم الانتصارات بقوله: (إن من يقرأ سفر صموئيل وسفر القضاة بشيء من روح التقدير يصبر دور العنت الذي جاوزه بنو إسرائيل في استقرارهم بفلسطين، غير أن هذه الأفاصيص نفسها إذا ما نظر إليها من خلال أبخرة الحماسة الدينية ألفت في النفوس وهما قائلًا: إن ذلك الفتح ساطع معجز) ص ٣٦.

(٤) المرجع نفسه ص ٦ (ولا يقر لهم بإنشاء أمة إلا ببداية شاول - أو طالوت) فاستحقوا أن تفتح لهم صفحة صغيرة من التاريخ الحقيقي الذي كان لهم في العالم.

ولا يقر جوستاف لوبون لبني إسرائيل بإسهامهم في أية حضارة، معللاً ذلك بأن فلسطين أو أرض الميعاد لم تكن غير بيئة مختلفة لهم، فالبادية كانت الوطن الحقيقي لهم^(١)، ويحدد بداية تاريخ اليهود الحقيقي في عهد ملوكهم، وربما يقصد بذلك الفترة التاريخية التي أصبح فيها رؤساؤهم ملوكًا ذوي سلطان كبير ومنهم داود وسليمان عليهما السلام بعد أن كان رؤساؤهم السياسيون هم القضاة^(٢).

أما النكبات التي حلت بهم فإن من أشهرها غارة بُختنصر ملك بابل في سنتي ٥٩٦ و٥٨٧ ق.م، بما يعرف في التاريخ «بنفي بابل» حيث ظلوا في الأسر زهاء خمسين عامًا حتى تغلب قورش ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٨ ق.م؛ فوقعوا تحت سيطرة الفرس زهاء قرنين كاملين، ثم تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الإسكندر الأكبر ثم تحت سيطرة الرومان، وعندما قاموا بثورة في عهد الإمبراطور أدریان ١٣٥ م أخذ الرومان ثورتهم وأخرجوهم من ديارهم؛ فأصبحوا مشتتين في مختلف بقاع الأرض^(٣).

وإذا عدنا إلى الفترة التي سمح لهم قورش بدخول فلسطين، وإعادة بناء هيكلهم، فإنهم لم يتمتعوا خلالها باستقلال حقيقي؛ لأنهم كانوا مهتدين من قبل ملوك فارس الذين كانت يساورهم الريب حول كل حجر يضاف إلى الأسوار أمرين قساة بوقف العمل في غير مرة^(٤).

لهذا حق لجوستاف لوبون في تأريخه للحضارات والأمم أن يستخلص أن استقلال اليهود لم يكن غير اسمي، ويستطرد فيقول: وما فتى الفرس والأغارقة والرومان يسيطون سلطانتهم المرهوب بالتتابع على تلك المملكة الهزيلة، فتميز هذه المملكة غيظًا من هذا

(١) المرجع نفسه ص ٣٢، ويقول في مقدمة كتابه: (ولم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة) ص ١٥.

(٢) الأسفار المقدسة للدكتور وافي ص ٨.

(٣) الأسفار المقدسة للدكتور وافي ص ٩.

(٤) اليهود في تاريخ الحضارات، جوستاف لوبون ص ٤١.

الاستعباد المتصل، فلا تجد ما تتعزى به عن عجزها سوى إلقاء فارغ الخطب^(١).

ويبدو أن لوبون اكتفى بظاهر الوقائع والأحداث، ولم يتتبع النشاط الخفي لليهود طوال تاريخهم، إذ من دأبهم العمل من وراء الستار وتكوين الجمعيات السرية التي تضم لها الشخصيات من ذوي النفوذ والسلطان، وتعويض النقص في عددهم باستخدام غيرهم من أعضاء الأحزاب والجماعات والأندية، ولكن المتابع لأنشطتهم الخفية يقف على محاولاتهم الدائبة للاستحواذ على الثروات، والسيطرة على الأمم، وسعيهم الحثيث للوصول إلى مراكز السلطة السياسية فضلاً عن مسئولياتهم عن الكثير من الثورات والحروب في تاريخ العالم، ولقد صدرت في السنوات الأخيرة -عقب نكبة فلسطين- الكثير من الكتب والبحوث والدراسات حول دور اليهود في أبرز الأحداث التاريخية والمعاصرة.

ومن الوثائق التي تسربت من أحد اجتماعاتهم السرية ما يكشف النقاب عن بعض هذا الدور تلك الوثيقة المتضمنة لخطبة أحد كبار الخاخامات في روسيا، قال فيها: قد بلينا بسبي بابل، وذقنا به مر العذاب، أما الآن فقد صرنا وحدثنا القادرين على كل شيء، هُدمت هياكلنا، وحرقت مذابحنا؛ ولكننا شيدنا منها كثيراً، وأقمنا بدلها الآلاف المؤلفة، مضى علينا في العبودية ثمانية عشر قرناً، وخرجنا من وهدة الذل وعلونا على كل الشعوب^(٢).

وعلى أية حال، فقد خدع اليهود الأمم عندما بنوا حركتهم على صلتهم التاريخية بفلسطين، مع أن هذه الصلة قد انتهت نهائياً منذ تخريب الإمبراطور تيطس للهيكل سنة ٧٠م وتشتيتهم في أنحاء الإمبراطورية الرومانية سنة ١٣٥م في عهد الإمبراطور هادريان^(٣).

(١) المرجع نفسه.

(٢) مكائد يهودية عبر التاريخ - عبد الرحمن حنيكة، ص ٤١٦، ط. دار القلم بيروت.

(٣) إسرائيل فتنة الأجيال، إبراهيم خليل أحمد ص ٣٣١، مكتبة الوعي العربي ١٩٧٠م.

كما ظهر من بينهم من يعارض هذا الزعم، يقول أدوين مونتاجو الوزير البريطاني ١٩١٦ - ١٩٢٢: إنني يهودي، ولكنني أعترف بأنه لا توجد قومية يهودية وأن فلسطين ليست لها علاقة باليهود^(١).

وقد وظفت العقيدة الدينية اليهودية في تحقيق إقامة الكيان الصهيوني باسم «إسرائيل»، واتفق على ذلك المتدينون والعلمانيون معاً، وهي ظاهرة تبدو غريبة؛ لأنها تخالف ما عهدناه من الخصومة التقليدية بينهما في بلاد العالم، وأرغمت إسرائيل العالم كله على الاعتراف بها، بل أصبحت محط الأنظار وموضع التبجيل والتقدير من الدول الكبرى قبل الصغرى، ويتضح ذلك من مراسم تشييع أحد رجال السياسة والحرب هناك^(٢) شارك في جنازته خمسون رئيس دولة، إضافة إلى أربعة آلاف من الشخصيات الرسمية من إسرائيل وأحاء العالم، بينهم وفد أمريكي من مائة مسئول في الإدارة على رأسهم الرئيس كليتون، ولم تكتف بريطانيا بإرسال رئيس الحكومة جون ميغور، بل كان هناك أيضاً ولي العهد الأمير تشارلز... إلخ.

أما عن السرّ في التقاء المتدينين مع العلمانيين فيوضحه الكاتب اللبناني وجيه كوثراني الذي قسّم الثقافة الإسرائيلية إلى نموذجين:

(أ) ثقافة تقليدية وتلمودية تتجه نحو أصول يهودية متعصبة وغير قابلة للتعايش مع الآخر، وهي متواصلة في أصولها المرجعية ومصالحها الراهنة مع الحركات الإنجيلية الأصولية الأمريكية التي انبعثت في عهد ريجان.

(١) نفسه ص ٣٠٨.

(٢) مقالة غادة الكرمي «الحياة ٢٣/١١/٩٥» نقلًا عن كتاب «آليات الاختراق الإسرائيلي للمنطقة العربية» ص ٢٨٧ مصطفى عبد الرزاق، كتاب الغد، دار الغد العربي، نوفمبر سنة ١٩٩٦.

(ب) ثقافة صهيونية علمانية مأزومة تحاول أن تكيّف وتفسر التراث اليهودي الديني منذ انتصار عصر القوميات في أوروبا حتى الآن في فكر سياسي علماني معاصر مبرر لنشأة إسرائيل ومواقب لتطورها السياسي والديني وبين حداثتها وتراثها^(١).

(١) ص ٨٩ من كتاب آليات الاختراق الإسرائيلي، مصطفى عبد الرازق، دار الغد العربي، نوفمبر سنة

مصادر العقائد والأفكار والخطط اليهودية

سنعرض في هذا البحث لمصادر العقائد والأفكار والخطط عند اليهود وهي تتكون من:

أولاً: العهد القديم

ثانياً: التلمود

ثالثاً: بروتوكولات حكماء صهيون

أولاً: العهد القديم

وستتكلّم بإيجاز عن كل واحد منها بادئين بالعهد القديم، مستندين إلى تقسيم الدكتور وافي بكتابه «الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام» حيث قسّم العهد القديم إلى أربعة أقسام^(١):

القسم الأول

كُتِبَ موسى ﷺ، أو الأسفار الخمسة، وهي سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وتشتمل هذه الأسفار الخمسة على التوراة في نظر اليهود.

(١) سفر التكوين: ويقص تاريخ العالم من تكوين السموات والأرض إلى استقرار أولاد يعقوب في أرض مصر، مع تفصيل في قصص آدم ﷺ وحواء ونوح والطوفان ونسل سام أحد أبناء نوح، وهو الذي انحدر منه شعب بني إسرائيل^(٢).

(١) ولكن الدكتور حسن ظاظا يحصره في ثلاثة أقسام: التوراة والأنبياء والكتب أو أسفار الحكمة أما التوراة والأنبياء فإنها سيران في نسق تاريخي متصل، ويحكيان قصة حياة العبريين منذ البداية إلى عودتهم من السبي البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، أما القسم الثالث وهو الكتب فإنه تراث أدبي يكثر فيه الشعر والأمثال والقصص. ص ١٢-١٣ من كتابه الفكر اليهودي أطواره ومذاهبه. دار القلم - دمشق ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د/ علي عبد الواحد وافي، ص ١٤، مكتبة نهضة مصر ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

(٢) سفر الخروج: يعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر، وقصة موسى عليه السلام وخروجه مع بني إسرائيل، وتاريخهم في أثناء مرحلة التيه التي قضوها في صحراء سيناء واستغرقت أربعين عامًا، وبجانب هذه القصص يشتمل الخروج على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات.

(٣) سفر التثنية: شُغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة وشئون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات.

(٤) سفر اللاويين: شُغل معظمه بشئون العبادات وخاصة ما تعلق منها بالأضحية والقرايين والمحرمات من الحيوانات والطيور، وقد نُسب هذا السفر إلى اللاويين، وهم نسل «لاوي Levi»؛ لأنهم سدنة الهيكل، والمشرفين على شئون الذبح والأضحية والقرايين، والقوانين على الشريعة اليهودية.

(٥) سفر العدد: تضمن إحصائية عن قبائل بني إسرائيل وجيوشهم وأموالهم^(١).

القسم الثاني

ويسمى بالأسفار التاريخية، وهي اثنا عشر سفرًا، تعرض لتاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين في فلسطين، وتفصل تاريخ قضاتهم وأيامهم والحوادث البارزة في شئونهم.

القسم الثالث

يسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، وهي أناشيد ومواعظ معظمها ديني وعددها خمسة أسفار.

(١) المرجع نفسه ص ١٥.

أما عن اللغة التي دونت بها التوراة أصلاً فهي ليست العبرية، حيث يرى الدكتور فؤاد حسنين أنها دونت بالمصرية القديمة، بل إن موسى عليه السلام وسائر الإسرائيليين لم يتكلموا العبرية بل «الآرامية» ص ٥٨ من كتابه التوراة الميروغليفية.

القسم الرابع

يسمى أسفار الأنبياء، عددها سبعة عشر سفرًا، يعرض كل منها لتاريخ نبي من أنبياء بني إسرائيل، الذين أرسلوا إليهم بعد موسى وهارون^(١). وبعد عرض هذا البيان الإحصائي يأتي دور عرض آراء الباحثين بالأعين الفاحصة المدققة.

موجز لآراء بعض الباحثين

يلاحظ أنه لم يتعرض باحث - قديمًا أو حديثًا^(٢) - في مقارنة الأديان لموضوع مصادر العهد القديم أو التوراة^(٣) إلا وأثبت أنها ليست التوراة الأصلية التي تلقاها موسى ﷺ، بالوحي^(٤).

وفي مقدمة من فحص هذه الأسفار علماء الكنيسة الكاثوليكية أنفسهم، حيث بحث المجمع المسكوني الثاني للفتاياتكان ١٩٦٢-١٩٦٥ هذه المشكلة التي تتعلق بوجود أخطاء

(١) المرجع نفسه ص ١٥: ١٦.

(٢) وسعترض في بحثنا هذا النموذج من كل منها: أحدهما صاحبه الإمام ابن حزم، والثاني موريس بوكاي.

(٣) يرى الأستاذ إبراهيم خليل أحمد أن التوراة كلمة عبرية بمعنى قرآن «كتاب محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٣٥»، بينما يفسرها الدكتور أحمد شلبي بأنها تعني: الشريعة أو التعاليم الدينية «كتاب اليهودية ص ٢٣٨».

(٤) وبناء على الدراسة النقدية للفيلسوف اليهودي سيينور أثبتت أن موسى ﷺ لم يكتب الأسفار الخمسة؛ بل كتبها شخص عاش بعده بقرون عديدة ص ٢٧١، ويقرر أننا نجهل مؤلفي كثير من الأسفار، ولا نملك هذه الأسفار في لغتها الأصلية ص ٢٥٥ / ٢٥٦ من كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة ترجمة د/ حسن حنفي.

وينظر أيضًا كتاب «التوراة المهيروغليفية» الدكتور فؤاد حسنين علي، حيث عرض لعدة شواهد تؤيد الرأي القائل بأن التوراة التي بأيدينا ليست لموسى ﷺ، ص ٤٢. كذلك يرجح أنها وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التي بشر بها إخناتون ص ٥٩ - ط دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة - بدون تاريخ.

في بعض نصوص أسفار العهد القديم، وأصدر صيغة تشير إلى وجود شوائب به؛ وفيما يلي نص الفقرة المدرجة بالوثيقة المسكونية الرابعة: بالنظر إلى الوضع الإنساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح تسمح الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته مع الإنسان، غير أن هذه الكتب تحتوي على شوائب وشيء من البطلان، ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي^(١).

وتقول دائرة المعارف الأمريكية: لقد كان هناك نشاط أدبي بين الإسرائيليين في عهد مبكر فسجلوا تقاليدهم القبلية، وقوانين الجماعة الإسرائيلية، وهذا بجانب الأغاني الشعبية وترانيم العبادة، وما ينطق به الكهنة والأنبياء من كهانة ووصايا، وبعد أن استقرت حياة طائفة الإسرائيلية بدأت تظهر بالتدريج - وعن غير قصد - عناصر من هذه الآداب، اعتبرتها الطائفة ركائز لحياتها العقائدية، وبهذا أعطيت هذه العناصر وقارًا خاصًا تفردت به وتحولت بذلك إلى كتابات مقدسة، ولا شك أن الكتاب الأصليين لهذه الكتب لم يدر بخلداهم أن ما كتبوه وسجلوه سيكون له مثل هذه القداسة في حياة الطائفة الإسرائيلية في يوم من الأيام^(٢).

(١) النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٢٦٢، للمهندس/ أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة بمصر ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٥.

وإلى نفس المضمون تشير دائرة المعارف الفرنسية لاروس، فتقول تحت كلمة «توراة»: (العلم العصري ولا سيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى، وأنها من عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها، ألفوها على التعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سماعية) ص ٩٩ من كتاب: اليهود المقدس، كمال عون. ويقول رحمة الله الهندي: (لم يثبت كون الكتب المسلمة عندهم المنسوبة إلى الأنبياء بحسب زعمهم كتبًا إلهامية، بل ثبت عكسه، وثبت أن بعض مضامين هذه الكتب يجب على كل مسلم أن ينكره أشد إنكار، وثبت أن الغلط والاختلاف والتناقض والتحريف واقعة فيها جزمًا، فإني معذور في أن أقول: إن هذه الكتب ليست كتبًا إلهية، وأن أنكر بعض القصص مثل: إن لوطًا شرب الخمر وزنى بابنتيه وحللت بالزنا منه، وأن داود عليه السلام زنى بامرأة أوريبا وحللت بالزنا منه، وأشار إلى أمير العسكر لأن يدبر أمرًا يقتل به أوريبا.. وأن هارون صنع عجلاً وبنى له مذبحًا فعمده مع بني إسرائيل

ونفهم من ذلك أن القوانين والتقاليد وترانيم العبادة والأغاني الشعبية اختلطت بأقوال الأنبياء والكهنة، ثم استمدت قدسيته من كثرة ترديدها جيلاً بعد جيل، وطغت الروح العامة للجماعة فلم يتوقف البعض للفحص والتمييز بين الوحي وغيره، بينما تثبت الدراسة الفاحصة لنصوص كثيرة بالأسفار الخمسة من أول وهلة- كما فعل الأستاذ ديدات- أنها ليست من عند الله تعالى، وقد أثبت ذلك في أكثر من سبعمائة جملة، وما عليك -هكذا يوجهنا- إلا أن تفتح هذه الأسفار عشوائياً وسوف ترى «وقال الرب لموسى» سفر الخروج ٦: ١٣.

«وكلم الرب موسى» سفر الأخبار ١١: ١.

«فتكلم موسى بين يدي الرب» سفر الخروج ٦: ١.

«فقال موسى للرب» سفر العدد ١١: ١١.

«ثم قال الرب لموسى» سفر التثنية ٣١: ١٤.

ومن الواضح هنا أن هذه ليست كلمات الرب، ولا كلمات موسى ﷺ، فالضمير هنا هو ضمير الغائب كما هو واضح، مما يعني أن هذا الكلام لشخص ثالث يسجل أحداثاً سمع عنها^(١).

= وسجدوا له وذبحوا أمامه، وأن سليمان ارتد في آخر العمر وعبد الأصنام وبنى المعابد لها... وإنه كان مشركاً.. ص ١٢/١٣/١٤ كتاب «إظهار الحق..» ج١ تحقيق د/ محمد ملكاوي. رئاسة البحوث العلمية بالرياض ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص ٣٩، أحد ديدات، ترجمة نورة أحمد النومان، ط. مكتبة أبو القاسم/ جدة.

ويأتي الدكتور فؤاد حسنين أيضاً بعبارات أخرى تتعلق بموسى ﷺ، يستحيل صدورها منه أمثال: (وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض) أو (أيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر في عيون فرعون وعبود الشعب) كذلك الخبر الخاص بوفاته (فمات هناك موسى عبد الله في أرض موآب حسب قول الله ودفنه في الخواء في أرض موآب مقابل... ص ٤٢ من كتاب «التوراة المهيروغليفية».

بمثل هذا المنهج تعرض علماء كثيرون - مسلمون وغير مسلمين - للتوراة بالنقد العلمي، كالتثبت من صحة النصوص بالمقارنة بين السابق واللاحق أو مراجعة التسلسل للواقعات التاريخية، أو التحقق من مدى الاحتفاظ بالنسخة الأصلية التي كتبها موسى ﷺ، أو الموازنة بين بعض النصوص وبين الديانات والثقافات التي كانت سائدة في بابل^(١).

والحق أن كثرة المؤلفات الناقدة للتوراة توقعنا في حيرة: فأيا نختار وأيا ندع؟ وتزداد حيرتنا إذا كان أصحابها من أتباع اليهودية أو النصرانية أنفسهم فضلاً عن أسلم من كبار علمائهم^(٢).

(١) يقول الأستاذ موريس فودن ناظر المدرسة العليا في باريس والمدرس في القسم الديني بها عن التوراة: لو سألتنا في أي وقت جمع كل كتاب من كتب التوراة وفي أي حال وظروف، وبأقلام من كتب، لا نجد أحداً يبيّننا عن تلك الأسئلة وما شابهها إلا بأجوبة متخالفة جداً، وإن كافة ما كتب مشكوك في كاتبه وإن كل ما في التوراة هو عبارة عن خليط من كتابات عديدة جداً جمعت في أجيال متباينة، وأن المذاهب العلمية ترفض أغلب أقوال العلماء النقل، التي هي أساس اعتقاد اليهود والنصارى وتقوض ببيان ادعاء السابقين وتبرئ الأنبياء من تلك الكتابات، وأن تصحيح هذه الكتب كالنقش في الماء أو البناء على الهواء، ولكن ما الحيلة ونحن من مائة سنة حيارى بين أسانيد يمحو بعضها بعضاً، فالجديد يناقض سابقه والسابق يناقض الأسبق، وقد تناقض أجزاء الدليل الواحد، وأيسنا من الوصول إلى معرفة صاحب الكتاب الحقيقي، وقد صدق على شهادة الأستاذ موريس فودن ٥٠٠ عالم في جمعية دار المعارف الكبرى بباريس، من كتاب «محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن» ص ٧١: ٧٢، للمستشار محمد عزت الطهطاوي، مكتبة النور/ مصر الجديدة ١٩٨٦ م.

(٢) على سبيل المثال:

- «الدين والدولة، علي بن ربن الطبري، تحقيق عادل نويض.
- «في إثبات نبوة محمد ﷺ دار الآفاق الجديدة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣ م.
- «رجال ونساء أسلموا» ٣ حلقات، عرفات كامل العشي، دار القلم، الكويت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣.
- «محمد ﷺ في الكتاب المقدس للبروفيسور/ عبد الأحد داود، ترجمة فهمي شها، مراجعة أحمد محمد الصديق، رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م.

ومن بين هذه المؤلفات والبحوث سنقتصر على انتقاء بعض آراء كل من الإمام ابن حزم المتوفى ٤٥٦ هـ بكتابه «الفصل في الملل والنحل»، والطبيب الفرنسي المعاصر موريس بوكاي بكتابه «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم»، سنعرض باختصار لنقد الإمام ابن حزم للعقيدة اليهودية ومصادرها، وهو يعد من أبرز العلماء الذين استخدموا المنهج النقدي لمصادر المعلومات للعقائد؛ كاليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها، وبعد عرضها على الأدلة العقلية.

يقول ابن حزم: نذكر إن شاء الله تعالى ما في الكتب المذكورة من الكذب، لا يشك كل ذي مسكة تمييز في أنه كذب على الله تعالى وعلى الملائكة عليهم السلام وعلى الأنبياء عليهم السلام إلى أخبار أوردوها لا يخفى الكذب فيها على أحد كما لا يخفى ضوء النهار على ذي بصر^(١).

ويرى أن الإصرار على الاستمسك بها في كتبهم من أكاذيب وأباطيل يرجع إلى مكابرتهم لعقولهم وغلبة أهوائهم عليهم وتقليدهم لأسلافهم وعصبية واستدامة لرياسة دنيوية.

ولا يفوته المسارعة بالمقارنة بين مصادرهم ومصادر الإسلام الثابتة اليقينية، فيقول: نحمد الله كثيراً على ما هدانا له من الإسلام ونحلة السنّة واتباع الآثار الثابتة ونسأله تثبيتاً على ذلك، وأن يجعلنا من الدعاة إليه حتى يدعونا إلى رحمته ورضوانه عند لقائه... أمين^(٢)، ويعد الإمام ابن حزم من أوائل علماء مقارنة الأديان، حيث رسم المنهج ووضع

١ = < إفحام اليهود للسموءل بن يحيى المغربي، تقديم وتحقيق، د/ محمد عبد الله الشراوي، دار الهدية بمدينة نصر/ مصر / ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

< محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم خليل أحمد، مكتبة الرعي العربي.

< حوار في المسجد النبوي، رزق هيبه، مكتبة التراث الإسلامي بمصر ١٩٨٣ م، ويحكي قصة إسلام الأستاذ/ زكي عريبي عميد اليهود في مصر.

< رسالة في اللاهوت والسياسة، سينوزا، ترجمة وتقديم د/ حسن حنفي، مراجعة د/ فؤاد زكريا.

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ١١٦، ط. مكتبة المثنى بغداد.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧.

الأساس، كما ناقش بعض علمائهم وأفحمهم بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية^(١)، وسنلخص أبرز الانتقادات التي طعن بها التوراة التي بأيدي اليهود، حيث حُرِّفَتْ وُبُدِّلَتْ.

أما التوراة الحق التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ فإننا معشر المسلمين نُقرها؛ لأنه تعالى أخبرنا بذلك في كتابه الناطق على لسان رسول الله ﷺ ونقطع على أنها ليست هذه التي بأيديهم بنصها^(٢)، وأول ذلك أن التوراة التي بأيدي السامرية غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، يزعمون أنها المنزلة، ويقطعون أن التي بأيدي اليهود مُحَرَّفَةٌ مُبَدَّلَةٌ، وسائر اليهود يقولون: إن التي بأيدي السامرية مُحَرَّفَةٌ ومُبدَّلة، ويستند أول ما يستند إلى نص في التوراة منسوب إلى الله تعالى بقوله: «أصنع بناء آدم كصورتنا كشبهنا».

ويرى ابن حزم أنه لو لم يقل إلا كصورتنا لكان له وجه حسن ومعنى صحيح، وهو أن نضيف الصورة إلى الله تعالى إضافة الملك والخلق؛ كما تقول هذا عمل الله، وتقول للقرء والقيح والحسن: هذه صورة الله؛ أي تصوير الله، والصفة التي انفرد بملكها وخلقه، ولكن قوله: «كشبهنا» منع التأويلات وسد المخارج وقطع السبل وأوجب شبه آدم لله ﷻ ولا بد ضرورة، وهذا يعلم بطلانه ببديهية العقل، إذ الشبه والمثل معناهما واحد، وحاشا لله أن يكون له مثل أو شبه «ص ٩٥ ج ١ ط. صحيح».

وفي النص الذي يتناول لوط ﷺ وعلاقته بابنتيه، يروي الإمام القصة الواردة بالتوراة، ويعلق عليها بوصفها فضائح وسوءات تقشعر من سماعها جلود المؤمنين بالله تعالى، العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام^(٣)، وكذلك وصفه لإطلاقهم على نبي الله يعقوب ﷺ، أنه خدع أباه وغشَّه بأنه من الفضائح والأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات؛ لأن هذا التصرف مبعث عمن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء، فكيف من نبي

(١) انظر على سبيل المثال ص ٢٠٥ حيث يقول: (ولقد فضحت بهذا وجه بعض علمائهم).

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٣.

(٣) المرجع نفسه ص ١٣٣.

مع أبيه النبي أيضًا؟^(١)

ويلحق نقده للتوراة بنقده لسائر كتبهم التي يضيفونها إلى الأنبياء عليهم السلام؛ منها كتاب يوشع، ففيه براهين قاطعة بأن بعض متأخريهم ألّفه لهم، حيث يتضمن نصًا يفيد بناء سليمان بن داود لإبيت المقدس، ومن المحال الممتنع أن يخبر يوشع أن سليمان عليه السلام بنى بيت المقدس ويوشع قبل سليمان بنحو ستمائة سنة^(٢).

(١) المرجع نفسه ص ١٣٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٤، ويرى الدكتور حسن حنفي أن النقاد المسلمين اتبعوا هذه الوسيلة للكشف عن تلفيق الروايات، وأن الغالب على دراسات المسلمين هي إثبات التناقض في النصوص والتحريف في العقائد، وقد ضرب على ذلك مثلًا بابتين حزم، مقدمته لكتاب: رسالة في السياسة واللاهوت لسينوزا ص ٢٧، وبهذه المناسبة يحسن توضيح معنى الحديث النبوي المتصل بهذا الموضوع، ومصدرنا كتاب التوحيد للإمام ابن خزيمة حيث قال: أما الحديث «إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته» ص ٢٦، أولًا: «لا يقول أحدكم لأحد قبح الله وجهك ووجهها أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته». يقول الإمام ابن خزيمة في شرحه للحديث: أراد محمد صلى الله عليه وسلم أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب، ص ٢٦ من كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب صلى الله عليه وسلم للإمام ابن خزيمة، تحقيق د/ محمد مصطفى الأعظمي، ط. دار الكتب السلفية بمصر ١٤٠٣هـ.

وفي رواية: «لا تقبحوا الوجه، فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن» ص ٢٧. ص ٢٨: (أ) ومعناه عند الإمام ابن خزيمة أن إضافة الصورة للرحمن في هذا الخبر إنما هو من إضافة الخلق إليه؛ لأن الخلق يضاف إلى الرحمن إذا خلقه الله، وكذلك الصورة تضاف إلى الرحمن لأن الله صورها، ألم تسمع قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١] فأضاف الله صلى الله عليه وسلم الخلق إلى نفسه إذ الله تولى خلقه، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ [الأعراف: ٧٣] فأضاف الله الناقة إلى نفسه، وقال: ﴿ تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ فأضاف الله الأرض إلى نفسه إذ تولى خلقها فبسطلها... إلى أن يقول: فما أضاف الله إلى نفسه على مضافين: إحداهما إضافة الذات، والأخرى إضافة الخلق فتفهموا هذين المعنيين، لا تغالطوا.

(ب) فمعنى الخبر إن صحَّ عن طريق النقل مستندًا: فإن ابن آدم خلق على الصورة التي خلقها الرحمن حين صور آدم ثم نفخ فيه الروح، قال الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف: ١١]. ص ٢٨ من كتاب التوحيد، إثبات صفات الرب صلى الله عليه وسلم للإمام ابن خزيمة.

ويفحص الإمام ابن حزم -بعناية- نصوص الكتاب الذي يسمونه «الزبور» ويتضمن المزامير المنسوبة إلى داود عليه السلام، ويبين مخالفتها الصريحة لأدلة العقل الصحيحة؛ منها في المزمور الأول: (قال لي الرب: أنت ابني، أنا اليوم ولدتك)، ويتساءل الإمام في هذا الموضوع فيقول: فأى شيء تنكرون على النصارى في هذا الباب، ما أشبه الليلة بالبارحة!؟

وفيه في المزمور الرابع والأربعين منه: (عرشك يا الله في العالم وفي الأبد قضيب العدل قضيب ملكك أحببت الصلاح وأبغضت المكروه، ومن أجل ذلك دهنك إلهك بزيت القدح بين إشراكك) ^(١).

ويتضح من هذا النص إثبات إله آخر وهذا دين النصارى، وبعده يأتي نص آخر يخاطب الله تعالى: (وقفت زوجتك عن يمينك وعقاصها من ذهب، أيتها الابنة اسمعي وميلي بأذنيك وأبصري، وآتسي عشيرتك وبيت أبيك، فيهواك الملك وهو الرب والله فاسجد لي له طوعاً)، وعندئذ يعلق ابن حزم مبدئياً تعجبه الشديد على النص والسابق عليه فيقول: (ما شاء الله، كنا أنكرنا الأولاد فأتونا بالزوجة والأختان، تبارك الله، فما نرى لهم على النصارى فضلاً أصلاً، ونعوذ بالله من الخذلان) ^(٢).

(١) ويقول ابن حزم: هذه سوأة الأبد ومضبعة الدهر وقاصمة الظهر وإثبات إله آخر على الله تعالى، دهنه بالزيت إكراماً له ومجازاة على محبته الصلاح وإثبات إشراك الله تعالى. ص ٢٠٥.

ويلاحظ أن الفصل الثاني والعشرين من سفر الخروج يتكلم عن حكم الآلهة مراراً وتكراراً ولا سيما في المباهلة (وإذا لم يوجد السارق يقدم صاحب المنزل إلى الآلهة ليحلف)... (وكل دعوى جنائية فلئى الآلهة ترفع... ومن تحكم الآلهة عليه يعرض صاحبه مثلين). من كتاب «التوراة بين الوثنية والتوحيد» سهيل ديب، دار النفائس ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

وما زال اليهود إلى الآن يدعون مع الله آلهة أخرى، انظر وثيقة الخاخام جوهاشيم برن الذي شرح بها وثائق المخطط السري اليهودي الأخير، وقال: (أيها الرفاق، هنيئاً لكم قرب تحقق وعود «يهوه» و«أدوناي» الكبير رب الأرباب، هذه الوعود هي أكثر مما نستحق، فلتتضرع إلى الآلهة لتستجيب دعاءنا، من كتاب «مكاييد يهودية»، عبد الرحمن حنبكة ص ٣٩٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٦.

ويمضي في نقده على هذا المنوال مستنداً إلى عقيدة التوحيد والتنزيه لله سبحانه، ثم ينتقل إلى عرض بعض النصوص التي تتصل بالإيمان بالآخرة والبعث؛ فمنها ما يتفق مع قول الملحدين الدهرية مثل: (الناس كالشعب إذا خرجت أرواحهم نسوا ولا يعلمون مكانهم ولا يفهمون بعد ذلك).

ويرى الإمام ابن حزم أن دين اليهود يميل إلى هذا ميلاً شديداً؛ لأنه ليس في توراتهم ذكر معاد أصلاً ولا الجزاء بعد الموت وهذا مذهب الدهرية، ثم يستنتج أن ما حوته كتبهم من عقائد باطلة يصبح حجة لنا على قيامهم بالتبديل والتحريف، معجزة لنبينا ﷺ^(١).

وقد اطلع ابن حزم على ما كتبه الأخبار في «التلمود» مبيّناً أن اليهود أخذوا دينهم من الأخبار وإليهم يرجعون في نقلهم لتوراتهم وكتب الأنبياء وجميع شرائعهم، وهم الذين بدلوا الدين بأنهم عملوا لهم هذه الصلوات عوضاً مما أمر الله تعالى به من القرابين^(٢)، ثم يسرد بعض النصوص التي تعد -حقاً- من الخرافات التي كتبها الأخبار، وقد حصنوا أنفسهم بقداسة خاصة ومكانة يرتفعون بها حتى على الله تعالى، فما أجمع أخبارهم لعنهم الله أن من شتم الله تعالى وشتم الأنبياء يؤدب، ومن شتم الأخبار يموت؛ أي يقتل^(٣).

ومن أعجب الوقائع التي يسجلها ابن حزم وسمع علماءهم يذكرونه ولا يتناكرونه أن أخبارهم اتفقوا على أنهم رشوا بولس النياميني -لعنه الله- وأمروه بإظهار دين عيسى عليه السلام، وأن يضل أتباعهم ويدخلهم إلى القول بألوهيته، وقالوا له: نحن نتحمل إثمك في هذا، ففعل وأبلغ من ذلك حيث قد ظهر^(٤).

(١) المرجع نفسه ص ٢٠٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٢١٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢١.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٢١.

ثم يقارن بين ما أحدثه «بولس» في النصرانية وما حاوله عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء اليهودي الحميري لعنه الله ليضل من أمكنه من المسلمين (فنهج طائفة رذلة كانوا يتشيعون في علي عليه السلام أن يقولوا بالوهية علي) (١).

وإن كان اليهود قد نجحوا عن طريق بولس في إفساد دين النصارى فإنهم لم يحققوا أمالهم في الإسلام، إذ لم يؤثر ابن سبأ إلا في قلة ضئيلة، وهم الباطنية والغالية من الشيعة، وكان العاصم من الوقوع فيما وقع للنصارى سلامة منهج المسلمين في القبول والتلقي، حيث إننا لا نصدق في ديننا بشيء أصلاً إلا ما جاء في القرآن وما صح بإسناد الثقات ثقة عن ثقة، حتى يبلغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط، وما عدا هذا فنحن نشهد أنه باطل (٢).

ويتضح لنا مما تقدم براعة الإمام ابن حزم في نقده لنصوص الكتب الدينية عند اليهود، ومن ثم فإنه قد سبق عصره من حيث وضع المنهج في نقد نصوص الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى، بينما لم يعرف علماء الغرب هذا المنهج إلا أخيراً جداً في العصر الحديث، وفي هذا الصدد يقول موريس بوكاي: إن معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية للنصوص شيء قريب العهد في بلادنا، ففيما يخص العهد القديم والعهد الجديد، ظل الناس يقبلونها على ما هما عليه طيلة قرون عديدة (٣).

وفي التمهيد للحديث عن الأناجيل يذكر موريس بوكاي: إن قراءة النصوص الكاملة تثير اضطراباً عميقاً لدى المسيحيين وأغلبهم لا يعرف من الأناجيل إلا مقاطع مختارة تُقرأ عند القدّاس أو المواعظ، ولم تكن كتب التعليم تحتوي إلا على مقاطع مختارة من الأناجيل، ويقول: وإذا وضعنا حالة البروتستانت جانباً فإنه لم تكن قراءة الأناجيل في كتيبتها أمراً سائداً فيما عدا بعض المناسبات، ثم يحكي عن نفسه أيام الدراسة بالمرحلة الثانوية أنه لم توضع تحت يده نسخة من العهد الجديد بأكمله، وكان يتمنى الاطلاع على

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٤.

(٣) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، تأليف موريس بوكاي، الترجمة العربية، دار المعارف بمصر ١٩٨٧ م ص ٩.

النص اليوناني؛ ولكن يعلل حجه بواسطة أساتذته والامتناع عن تكليف الطلاب بالترجمة بأنه كان سيؤدي إلى طرح أسئلة، الرد عليها محرج (١).

وباتساع دائرة الروح النقدية عند قراءة الأناجيل بأكملها دفع الكنيسة إلى التدخل لمساعدة القراء للتغلب على حيرتهم، ويلخص بوكاي بعض أسباب الحيرة؛ فمنها كثير من المجاهيل لكُتَّاب لم يُتأكد من هويتهم، ومنها أن هذا المبشر أو ذلك كان شاهدًا عيانًا لأحداث محددة بينما تدعي دراسات متخصصة عكس ذلك، ومنها تقليل المسؤولين من شأن الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية رسالة المسيح ﷺ وبين ظهور النصوص؛ لإيهام الناس بوجود صيغة واحدة اعتمدت على تراث شفهي، بينما أثبت المتخصصون أن هذه النصوص أصابتها تعديلات كثيرة، ومنها محاولة تجنب الأمور غير المعقولة أو المتناقضات أو الأخطاء الصارخة بحجج مديحية بارعة.

ويضرب بوكاي مثالاً على مثل هذه المشكلات فيقول: لا متى ولا يوحنا يتحدثان عن صعود المسيح ﷺ، أما لوقا فإنه يحدده بيوم القيامة في إنجيله، وبعد أربعين يوماً في «أعمال الرسل» التي يقال: إنه كاتبها، أما فيما يخص مرقس فإنه يشير إليه -دون تحديد تاريخه- وذلك في خاتمة تعتبر حاليًا غير صحيحة، وعلى ذلك فليس للصعود أي قاعدة كتابية متينة، برغم ذلك فإن المعلقين يتعرضون لهذه المسألة المهمة باستخفاف لا يُصدَّق (٢).

ويعرض بعد ذلك للنتائج التي ترتبت على استخدام علم نقد النصوص، حيث تم اكتشاف مشاكل مطروحة وخطيرة؛ منها ما توصل إليه بعض المؤلفين من المتناقضات والأمور البعيدة عن التصديق لكل من يريد أنت يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير وحسَّه الموضوعي، وكان من المأمول التصريح بوجود هذه المتناقضات، ولكن نرى

(١) القرآن الكريم، والتوراة والإنجيل والعلم، ص ٦٥ دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة،

موريس بوكاي، ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩ م.

(٢) نفسه ص ٦٦/٦٧.

الدكتور بوكاي بأسف حقًا لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافًا لكل منطق.

ويختم هذا الأسف بقوله: ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادر على فضح بعض مواطن الضعف من هذا النوع فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف، وظلت في جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف الدنيوية التي تعتبر غالبًا من المعارف الأساسية جدًا^(١).

وكشأن إمامنا ابن حزم أقدم الدكتور موريس بوكاي على عقد مقارنة بين نصوص كتب اليهود والنصارى وبين القرآن الكريم، وخلص منها إلى التأكد بأن القرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام، وقد كتب فور نزوله، ويحفظه ويستظهره المسلمون عند الصلاة، وأنه لا يحتوي على مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث.

وكان لدى هذا العالم من الأمانة والشجاعة الأدبية بأن يُصرِّح بذلك معلنًا عن نتيجة بحثه المنهجي الموضوعي، فقال: لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة بحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظواهر الطبيعية؛ ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على آية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث^(٢).

(١) المرجع السابق ص ١٠.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣، وتأمل في بيان قوله تعالى: ﴿سُرِّبَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. ونحن نرى بوكاي في اتباعه هذه الطريقة في البحث عن الحق مستضيئًا بنور الفطرة؛ لينقذ نفسه من أسر البيئة وأغلال التقاليد حوله، بخلاف أتباعه الذين خضعوا لها، ويصور لنا الدكتور وولتر أوسكار لند برج التجربة التي يمر بها أثناء مراحل طلب العلم فيقول: وحتى عندما تتحرر عقول الناس من الخوف فليس من السهل أن تتحرر من

وسنعرض فيما يلي بإيجاز نقده للتوراة في ضوء المعارف الحديثة:

نقد موريس بوكاي للتوراة في ضوء المعارف الحديثة

تتكون التوراة من خمسة أجزاء كما بينا آنفاً حسب عقيدة اليهود، وهي: التكوين، والخروج، وسفر اللاوين، وسفر العدد، وسفر التثنية.

وتتناول التوراة موضوعات كثيرة، منها: أصل الكون وحتى دخول الشعب اليهودي أرض كنعان الأرض الموعودة بعد الخروج من مصر، وبالتحديد حتى موت موسى عليه السلام، وتستخدم حكاية هذه الأحداث كإطار لعرض التدابير الخاصة بالحياة الدينية، والحياة الاجتماعية للشعب اليهودي، ومن هنا جاء اسم التوراة؛ أي الناموس^(١).

وظلت اليهودية والمسيحية لقرون طويلة تعتبران أن موسى عليه السلام هو كاتب التوراة اعتياداً على ما ورد فيها من أقوال مثل قول الرب: «اكتب هذا تذكيراً في الكتاب»، وأما ما ورد في سفر العدد: «وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب»، أو الآية الواردة في سفر التثنية «وكتب موسى هذه التوراة».

التعصب والأهواء، ففي جميع المنظمات الدينية المسيحية بُذلت محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله هو صورة الإنسان، بدلاً من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة الله على الأرض، وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتندرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تسمح مع أسلوبهم في التفكير، أو مع أي منطق مقبول، وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنذ فكرة الله كلية. من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» ص ٣٨ ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة وتعليق د/ محمد جمال الدين الفندي.

ونحن نحمد الله تعالى، على أن علماءنا لا يمرون بهذه الأزمات؛ لأن الحقائق العلمية الكونية والطبيعية لا تتعارض مع الآيات القولية - أي القرآن الحكيم - كما أثبت بوكاي، وكما دللنا على ذلك علماءنا من قبل، ومنهم الإمام ابن القيم.

(١) المرجع نفسه ص ٢٦.

وابتداء من القرن الأول قبل الميلاد كان هناك دفاع عن الرأي القائل بأن موسى ﷺ قد كتب الأسفار الخمسة كلها، أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تمامًا، وبدأ العلماء يشككون فيه، حيث رأى أحدهم استحالة أن يكون موسى ﷺ قد كتب بنفسه كيف مات^(١)، وقد قام ريشار سيمون بدراسة هذه القضية بكتابه «التاريخ النقدي للعهد القديم» نشره ١٦٧٨م، وفيه يؤكد الصعوبات الخاصة بتسلسل الأحداث والتكرارات وفوضى الروايات وفوارق الأنساب في أسفار موسى الخمسة.

ثم قام جان استروك ١٧٥٣م بدراسة أخرى نشرها على الملأ بناء على ملاحظة أساسية، هي وجود نصين جنبًا إلى جنب في سفر التكوين، يحتوي كل منهما على خاصية مختلفة في تسمية الرب؛ إذ يسميه أحدهما ييهوه، ويسميه الثاني بألوهيم^(٢).

وهناك أخطاء أخرى ذات طابع تاريخي اكتشفها عدة مفسرين يهود ونصارى، حيث وقفوا على عدة تعديلات مختلفة وإضافات لاحقة للنصوص الأصلية.

(١) المرجع نفسه ص ٢٧، ويذكر الدكتور حسن حنفي أن آباء الكنيسة ظنوا قديمًا أن موسى ﷺ هو مؤلف التوراة، وظل هذا الاعتقاد في العصر الوسيط حتى جاء سيبينوزا ولوذز وشككا في نسبة الأسفار إلى موسى ﷺ، ثم ظهر نقاد كثيرون حتى أتى فلاوون وأعلن نظريته المشهورة القائمة على المصادر الأربعة متأثرًا بأفكار هيكل عن تطور التاريخ، مقدمة كتاب: رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا ص ٢٣-٢٤، وظهر نقاد كثيرون بفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة والدانمارك.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨-٣٩، ويرى الدكتور حسن ظاظا أن النصَّ التوراتي له سياق موحد، بل يرتد إلى أربعة يتابع هي:

- ١- مصدر يحمل اسم «يهوه» علمًا على رب العبريين الوطني القديم ورواته كانوا من الجنوب.
- ٢- مصدر يحمل اسم «ألوهيم» علمًا على الله باسمه المنتشر في أسباط إسرائيل بالشمال.
- ٣- مصدر تشريعي بحت.

٤- حواشي الكهنة «الفكر الديني اليهودي ص ٢٦-٢٧».

كذلك يذكر الدكتور فؤاد حسنين: أن نقاد التوراة أدركوا منذ قرنين أن قصص سفر التكوين تختلف فيما بينها حول لفظ الجلالة، فأحيانًا تستخدم لفظ «يهوه» وأخرى اسم «ألوهيم» أدى ذلك إلى القول باعتماد التوراة على مصدرين مختلفين. التوراة الهيروغليفية ص ٤٦.

وعلى سبيل المثال قدّم الأب ديفو بالنسبة لأسفار موسى الخمسة وحدها في المقدمة العامة التي تسبق ترجمته لسفر التكوين، قدّم تفصيلاً بكثير من النقاط المتنافرة التي لا يبدو لنا أن الفكرة العامة التي نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء هو أنه لا يجب أن نأخذ النص مأخذاً حرفياً^(١).

وقد خالص موريس بوكاي في دراسته القيمة إلى القول بأن سفر التكوين يتضمن أكثر المتناقضات وضوحاً مع العلم الحديث ويحصرها في ثلاث نقاط جوهرية:

١- خلق العالم ومراحله.

٢- تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.

٣- رواية الطوفان^(٢).

أولاً: خلق العالم ومراحله

(أ) نتحدث بعض الآيات في الإصحاح الأول عن «النور» الذي يضيء نهائياً في صباح اليوم الأول من أيام الخلق كما تروي التوراة، بينما لا تذكر التوراة «أنوار» السموات في سفر التكوين إلا فيما يتعلق بخلق اليوم الرابع، ويبدو من غير المنطقي هنا أن يوجد النور أولاً؛ ولأن الليل والنهار لا يتعاقبان إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت نجمها الخاص بها؛ أي الشمس^(٣)، فكيف يظهر ضوء الشمس أولاً؛ أي النور بينما لم تخلق إلا في اليوم الرابع حسب رواية التوراة!؟

(١) المرجع نفسه ص ٢٨-٣٩.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٠، والواقع أن الدراسة النقدية لم تقتصر على استروك والأب ديفو، حيث تولى العلماء والباحثون في نقد التوراة، الأمر الذي أدى بأن أنشأ الباب «لجنة التوراة» عام ١٩٠٦ م من أجل الحدّ من النظريات النقدية، ومع هذا توالى واستمرت، ينظر تعليق د/ حسن حنفي بكتاب سبينواز «رسالة في اللاهوت والسياسة» ص ٢٣-٢٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٤١.

(ب) تحتوي إحدى الفقرات التي نتحدث عن ترتيب المخلوقات على مزاعم لا يمكن قبولها في ضوء العلم الحديث، إذ يشير سفر التكوين إلى خلق الحيوانات الأرضية في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وهذا الأمر غير مقبول على ضوء المعلومات العلمية الحديثة كما يرى موريس بوكاي.

(ج) وتنتهي رواية الخلق بالنص على أن الله تعالى فرغ في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً»، ولا نستطيع المرور على هذا القول بغير تعليق، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وقد رد على هؤلاء المغضوب عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وبيت القصيد في النقد الموجه إلى النص التوراتي يتلخص في أنه يقسم روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق؛ أيام الأسبوع الذي نعرفه ونقدره في حياتنا الدنيوية، بينما من المعروف تمامًا من وجهة النظر العلمية في أيامنا أن تشكل الأرض والكون قد تم على فترات زمنية شديدة الطول، لا تسمح المعطيات الحديثة بتحديد مدتها حتى تقريبياً؛ لذلك فإن تعاقب الأحداث في النص الكهنوتي يناقض المعلومات العلمية الأصلية^(١).

وقد تنبّه الأستاذ موريس بوكاي -عندما قارن بين الأيام في التوراة والقرآن- إلى أنها تعني مراحل، أو فترة زمنية وليس الأيام المتداولة بيننا في الدنيا، ودليله على ذلك في آيات منها ما قاله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. وقوله ﷻ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، ويقرر بوكاي في النهاية: فمن حقنا إذن أن نقبل -فيما يتعلق بخلق العالم- بقول القرآن ضمناً بفترات زمنية طويلة رقمها بالعدد ٦، ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات هو ست مراحل؛ ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة

(١) المرجع نفسه ص ٥٤ والكهنوتي نسبة إلى الكهنة الذين أعادوا روايتي الخلق على مشيبتهم.

جداً تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها، وتصبح شيئاً تافهاً^(١).

ثانياً: تاريخ خلق العالم وتاريخ تظهور الإنسان على الأرض

يحدد التقدير العربي الوارد بالعهد القديم تاريخ خلق العالم بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد، وهو مخالف تماماً لما نعرفه بواسطة العلم الحديث، إذ من العسير معرفة ما يتعلق بخلق الكون، وكل ما يمكن تحديده على وجه التقريب هو تكوين النظام الشمسي تقريباً

(١) المرجع نفسه ص ١٦٠، ويقول سبينوزا: إننا نرى معظم اللاهوتيين وقد انشغلوا بالبحث عن وسيلة لاستخلاص بدعهم الخاصة وأحكامهم التسفوية من الكتب المقدسة بتأويلها قسراً، ويتدبير هذه البدع بالسلطة الإلهية، ويصفهم بأنهم الذين لم يتورعوا عن تحريف الكتاب في مواطن كثيرة، ص ٢٤١ من كتاب «رسالة في اللاهوت والسياسة». وبمناسبة الحديث عن التأويل كأحد الطرق لتحريف النصوص بطريقة غير مباشرة، فإننا نرى لزاماً علينا تصحيح الخطأ الذي وقع فيه الدكتور/ حسن حنفي في مقدمته لكتابه «سبينوزا» ص ٤٣ عندما عرض لمنهج ابن ميمون الفيلسوف اليهودي ومؤاده: إذا تعارض العقل مع النقل «المعنى الحرفي» وجب تأويل النص، ورأى تدعيمه بنص لابن تيمية ظن أنه يؤيد هذا المنهج، ويلزمنا تصحيح النص المقتبس بسبب اللبس الذي وقع فيه د/ حسن حنفي حيث ظن أنه رأى ابن تيمية، بينما الصحيح أن الشيخ أورده منسوباً إلى الرازي ومن هنا نحوه من المتكلمين الذين يرون تقديم الدليل العقلي على الدليل السمعي إذا تعارضوا في تصورهم.

والنص المنسوب لابن تيمية على هذا النحو مبتسر، ولو أكمله الدكتور حسن حنفي لوجد في نهايته ما ينقضه من أساسه؛ لأن ابن تيمية عقبه بالتعليق عليه بقوله: ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء -يقصد المتكلمين كالرازي ومن اتبعه- يضع كل فريق لأنفسهم قانوناً فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعاً، فما وافق قانونهم قبلوه، وما خالفه لم يتبعوه، وهذا يشبه ما وضعت النصراني من أمانتهم التي جعلوها عقيدة إيمانهم، وردوا نصوص التوراة والإنجيل إليها.

من كتاب «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» ص ٣. على هامش كتاب «منهاج السنة» أو «درء تعارض العقل والنقل» بتحقيق د/ محمد رشاد سالم. وينظر معجم أعلام الفكر الإنساني تصدير د/ إبراهيم مذكور المجلد الأول، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ١٩٨٤ مادة ابن تيمية ص ٧١-٧٤، بقلم د/ مصطفى حلمي.

بأربعة مليارات ونصف من السنوات^(١)، كذلك أخطأت التوراة في سفر التكوين عندما حددت الفترة الزمنية التي تفصل بين إبراهيم وآدم عليه السلام فأدت إلى الزعم بأن آدم عليه السلام كان قبل المسيح بثمانية وثلاثين قرناً، وقد ثبت أن هذه التقديرات الوهمية من عمل الكهنة اليهود في القرن السادس قبل الميلاد، وتعارض مع المكتشفات العلمية التي حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير^(٢).

ويقرر موريس بوكاي بأنه لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهور الإنسان، ومع ذلك فيمكن التأكيد بوجود أطلال الإنسانية مفكرة وعاملة وبحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين، وعلى أي حال فإن المعطيات العلمية تسمح بتحديد تاريخ الإنسان أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لأوائل البشر^(٣).

ثالثاً: رواية الطوفان

قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].

يبدأ موريس أولاً فيبين أن الإصحاحات ٦، ٧، ٨ من سفر التكوين مخصصة لرواية الطوفان؛ ولكنها تتضمن روايتين منفصلتين في مقاطع متداخلة كل في الآخر مما يجعلها تتناقض مع بعضها البعض تناقضاً صارخاً، حيث يحاول اليهود تعليل هذا التناقض بسبب اختلاف مصدريها، أي المصدر اليهودي والمصدر الكهنوتي، وعلى أية حال فإن الرواية في شمولها هي كما يلي:

(١) المرجع نفسه ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٧، ٥٠، ٥١، ونشرت جريدة الأهرام القاهرية في يوم ٨/٤/٢٠٠٥م، بأن فريقاً علمياً دولياً أعلن أن الجمجمة التي اكتشفت سنة ٢٠٠٢م في «تساد» يرجع عمرها إلى ٧ ملايين سنة مضت، قد تكون لأقدم إنسان عاش على سطح الأرض، والدراسة نشرتها مجلة «فيتشر البريطانية» العلمية.

لما عمَّ فساد البشر أراد الله تعالى تدميرهم فحذر نوحًا وأمره ببناء السفينة التي سيدخل بها زوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاث وكائنات أخرى حية، ويختلف المصدران بالنسبة للكائنات الحية، فهناك مقطع من الرواية «وهو كهنوتي الأصل» يشير إلى أن نوحًا قد أخذ زوجًا من كل نوع، ثم يحدد المقطع التالي «وهو الأصل اليهودي» أن الله قد أمر بأخذ سبعة من كل نوع من ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة، وزوجًا واحدًا من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة، ولكن بعد ذلك يتحدد أن نوحًا لن يدخل إلى السفينة فعليًا إلا زوجًا من كل نوع من الحيوانات، ويؤكد المتخصصون مثل الأب ديفو أن المعنى به هنا هو مقطع معدل من الرواية اليهودية^(١).

كذلك فما يدل على الاختلاف بين النص اليهودي والنص الكهنوتي أن الأول يشير إلى أن عامل الطوفان هو ماء المطر، بينما يشير الثاني إلى الطوفان مزدوج؛ أي ماء المطر والينابيع الأرضية^(٢)، كذلك هناك اختلاف بين النصين في مدة الطوفان، إذ تقول الرواية الأولى اليهودية: أربعون يومًا فيضًا، على حين يقول النص الكهنوتي: مائة وخمسون يومًا، وحسب تسلسل ميلاد الأنبياء الثلاثة؛ آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام فإن التوراة تحدد مولد إبراهيم عليه السلام بثلاثة قرون بعد الطوفان، ولكن حسب الرواية الواردة في التوراة تبين أن الطوفان عمَّ كل الجنس البشري، وكل الكائنات الحية التي خلقها الله تعالى قد فُتيت.

وعندئذ يتساءل موريس بوكاي: هل من المعقول أن البشرية -والأمر كذلك- قد أعادت تكوين نفسها ابتداءً من أولاد نوح وزوجاتهم في هذا الزمن القليل؟ ويقرر بناء على هذه الملاحظة البسيطة عدم معقولية هذا النص^(٣)، وتلك هي الملاحظة الأولى...

(١) المرجع نفسه ص ٥٢.

(٢) المرجع نفسه، ربما يقصد بوكاي بالمصدر اليهودي، المصدر الإلهي والكهنوتي نسبة إلى الكهنة.

(٣) ومما تجدر الإشارة إليه أن الآية القرآنية خصصت قوم نوح فحسب، قال تعالى: ﴿ وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سُلُوكًا لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].

أما الملاحظة الثانية فتتضح على ضوء المعارف الحديثة التي تثبت استحالة صحة رواية الطوفان الواردة في التوراة، وتوضح ذلك أن الطوفان حسب تقدير هذه الرواية يكون قد وقع في القرن الـ ٢١ أو الـ ٢٢ قبل الميلاد، أي في عصر كانت قد ظهرت قبله في نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التالية، وهو ما تؤكدته المعارف التاريخية الحديثة^(١)، ففي مصر مثلاً يقابل التاريخ ٢١٠٠ ق.م الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشر وفي بابل أسرة أور الثالثة، وعلى ذلك يتضح أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات، وبالتالي لم تفن البشرية كلها كما تقول التوراة.

وفي ضوء ذلك كله - كما يرى موريس بوكاي - فإن النصوص التوراتية التي وصلت إلينا لا تعبر عن الحقيقة، ثم يتساءل متعجباً: هل أنزل الله تعالى شيئاً غير الحقيقة؟

ولما كانت الإجابة قطعاً بالنفي، فلا بد من افتراض وجود تحريف بواسطة البشر، لا سيما إذا عرفنا أن مؤلفاً مثل: سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين على مدى ثلاثة قرون.

ويستطرد متسائلاً: فكيف تدهش حين نجد فيه أموراً غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء، منذ أن سمح تقدم المعارف البشرية، إن لم يكن بمعرفة كل شيء، فعلى الأقل بامتلاك معرفة كافية عن بعض الأحداث تسمح بإقامة الحكم على

= قال صديق خان وأصناف الأمم الشرقية ينكرون الطوفان، وأقر به بعض الفرس؛ لكنهم قالوا: لم يكن الطوفان يسوي الشام والمغرب، ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يتجاوز عقبة حلوان، ولا بلغ ممالك الشرق، ص ٨، واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان «لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان»، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

وقال ابن خلدون: واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان، وبعض الفرس يقولون: كان بابل والهند وأهل الصين وأصناف الأمم الشرقية ينكرون الطوفان، لم يكن الطوفان بسوى الشام والمغرب، ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس، ولم يجاوز عقبة حلوان.

ج ٤ ص ١٠٣٠ من كتاب «إظهار الحق لرحمة الله الهندي» تحقيق د/ محمد أحمد ملكاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية بالرياض سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(١) المرجع نفسه ص ٥٣.

درجة اتفاق الروايات القديمة بهذه المعرفة^(١)

وفي ختام حديثنا عن البحث العلمي النزيه الذي قام به موريس بوكاي واكتشافه بموضوعية تامة درجة اتفاق نص القرآن الكريم ومعطيات العلم الحديث فإنه استطاع أيضًا في نفس الوقت دحض مفتريات الزاعمين بأن القرآن من تأليف الرسول ﷺ وأنه نقل كثيرًا من التوراة، فيتساءل من الذي دفعه، أما الحجة التي أقنعت بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح ﷺ، ويادخال تصحيح في القرآن يضع نصه بعيدًا عن أي مرمى نقدي تثيره المعارف الحديثة، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرّة من وجهة النظر هذه^(٢).

لقد أثارت الجوانب العلمية في القرآن دهشته العميقة، فأخذ يقارن بينها وبين معطيات العلم الحديث، مدللًا على جهل القائلين بأن القرآن من تأليف الرسول ﷺ، وكيف يتسنى له الإتيان بهذه المعطيات التي تفوق الإدراك الإنساني ولم يعرفها عصره، ولا العصور التالية حتى العصر الحديث؟!

وهو أثناء كل خطوة يخطوها في بحث إحدى الظواهر الطبيعية أو في عالمي الحيوان والنبات أو مراحل خلق الإنسان يذلل بحثه بمثل قوله: نلاحظ وجود توافق رائع بين الاثنين؛ أي بين النص القرآني والظاهرة التي يبحثها^(٣)، ويقول في موضع آخر: والتوافق بين الطريقة التي يذكر بها القرآن الظل وبين ما نعرفه عن هذه الظاهرة في العصر الحديث^(٤).

(١) المرجع السابق ص ٥٤.

(٢) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل ص ٢٤٢ ... وينوه الدكتور موريس بوكاي إلى أن القرآن الكريم يضع المسيح ﷺ في سلسلة نوح وإبراهيم ﷺ وعمران، ولا يجد قارئ القرآن أخطاء في الأسماء كذلك التي يجدها في الأناجيل خاصة بأسلاف المسيح، واستحالات الأنساب في العهد القديم، وقد درسها بوكاي في الجزأين الأول والثاني من كتابه ص ٢٤٢.

(٣) نفسه ص ٢٠٣.

(٤) نفسه ص ٢١٠.

وعن غرق فرعون يسجل ملاحظته عن البيان الرائع للآيات القرآنية الخاصة ببدن فرعون، ووجه العجب أنه في عصر محمد ﷺ كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف جثث الفراعنة إلا في نهاية القرن التاسع عشر، بينما النص القرآني يقول بشكل واضح إن جسد فرعون قد أنقذ^(١).

ويسخر بوكاي من ترجمة الأب كوروايه من ترجمته لمعاني القرآن بشأن الآيات من سورة يونس من ٩٠ إلى ٩٢ إذ يقول: إن فرعون قد ابتلع بجيشه -خلاف الآيات- ويُتبع ذلك بخرافة مضحكة، فيزعم أنه يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة إنسان البحر أي عجول البحر، ويتعذر عرض مضمون كتاب موريس بوكاي في هذا الحيز من الكتاب، ولكن يكفينا عرض بعض المسائل التي تضمنها والتي درسها في ضوء المعارف الحديثة، منبهراً أمام توافقها مع الآيات القرآنية التي تناولها، فيقرر أنه لا يوجد تناقضاً بين المعارف الحديثة والآيات القرآنية، على حين أن نصوص الأنجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرّة من وجهة النظر هذه.

وللقارئ بعض رءوس هذه المسائل:

خلق السموات والأرض - علم الفلك في القرآن، الشمس والقمر - النجوم والكواكب - البنية السماوية، تعاقب الليل والنهار - توسع الكون والأرض - دورة الماء والبحار - تضاريس الأرض - الظل - عالم النبات وعالم الحيوان - النمل والعناكب والطيور - التناسل الإنساني - تطور الجنين في الرحم... وغيرها.

ثم تتابعت الدراسات المتصلة ببيان أوجه الإعجاز العلمي في الكثير من الآيات القرآنية مع تنوعها وغزارتها وشمولها للعلوم والمعارف المتنوعة، فشجعت بعض العلماء المتخصصين على إصدار مجلة فصلية، وهي تصدر عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

(١) نفسه ص ٢٦٨/٢٦٩.

وعرفنا في هذا المجال أيضًا الإنتاج الخصب للأستاذ الدكتور زغلول النجار، وهو يُلفت أنظارنا - لا إلى الإعجاز العلمي فحسب - بل إلى الإعجاز التاريخي بعد الاكتشافات الأثرية المعاصرة، والإعجاز التربوي والإعجاز الأخلاقي، وقد أثبتته في رأينا الدكتور محمد عبد الله دراز، «والإعجاز التشريعي» «والإعجاز النفسي» «والإعجاز النبوي»^(١).

كذلك لا يفوته الإعجاز البياني الذي تحدى العرب ولا يزال هذا التحدي قائمًا دون أن يستطيع عاقل أن يقول: نعم لقد استطعت أن أكتب سورة من مثل سور القرآن الكريم^(٢)، ومع تقديرنا الكبير للرسالة العظيمة التي يقوم بها علماءنا الأجلاء في بيان الإعجاز العلمي للقرآن، ومخاطبة غير المسلمين بلغة العصر، وهي الطريق المثالية الآن للدعوة إلى الله ﷻ... فإننا نرى أن الإعجاز البلاغي سيقى ملزمًا للناطقين بالضاد، والعناية ببيانه أمانة في أعناق علماء اللغة العربية، وبث قضاياها في كافة مناهج التعليم بحسب مستوياتها منذ المرحلة الإعدادية إلى المرحلة الثانوية، واتخاذ القرآن الكريم أساسًا للقيم الفكرية والأخلاقية في المجالات التربوية والإعلامية؛ للمحافظة على هويتنا، صمودًا أمام هجمات العولمة^(٣)، وبعد هذا التعريف بالتوراة ونقد بعض نصوصها نتقل إلى المصدر الثاني؛ أي التلمود.

(١) ص ٣٤ من كتاب «من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم» للدكتور زغلول النجار، تقديم

أحمد فراج، مكتبة الشروق بالقاهرة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) نفسه ص ٣٣/٣٤.

(٣) سبق أن أعلنت هذا الرأي أثناء مناقشتي لرسالة الدكتورة آمال فوزي أمين بأداب الإسكندرية

وموضوعها «جهود أبي حيان البلاغية في تفسيره البحر المحيط» في يونيو سنة ٢٠٠١م.

ثانياً التلمود

ويحتل التلمود المكان الأسمى كأحد مصادر العقائد والأفكار عند اليهود، وقد يفضلونه على التوراة نفسها أو العهد القديم، ويتخذونه دستوراً للعمل بهدف السيطرة على البشرية، واحتواء الأديان والأمم^(١).

والتلمود في تعريف جامع هو هذه الأحاديث الشفوية التي سجلت بعد ذلك -أي بعد التوراة- والتي كانت ثمرة النظر ودراسة الأسفار التي جاءت عن يهوه^(٢)، ويسمى متن التلمود «المنشأ»، وله شرحان أو «جمارتان» إحداهما جمارة أورشليم، والأخرى جمارة بابل^(٣).

وإذا أردنا فهم الشخصية اليهودية على حقيقتها والوقوف على خلفيات الأحداث الجارية الآن على مسرح السياسة العالمية أو المتصلة بجرائمهم التي يرتكبونها ليل نهار بفلسطين المحتلة فما علينا إلا دراسة هذا التلمود، وتحليل بعض نصوصه، ومعرفة كيفية تنفيذ تعاليمه بواسطة الجمعيات السرية كالماسونية.

وسنعرض لبعض النصوص ونحللها، ثم نبين كيفية تنفيذ تعليماته بواسطة جماعة الماسونية، إذ لا بد لمعرفة مكانة التلمود عند اليهود من إلقاء الضوء على بعض النصوص الواردة به، وهي بنفسها تصور هذه المكانة:

(١) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، أنور الجندي ص ١١، دار الاعتصام ١٩٧٧م.

(٢) في العقائد والأديان، للدكتور محمد جابر عبد العال ص ٢١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م.

(٣) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، د/ محمد على البار ص ٦١، ويذكر أن ما تدعي جمارة فلسطين أو أورشليم رغم أنها لم تكتب في أورشليم القدس، و«المنشأة» بمعنى المثنى أو المكرر، أي إنها تكرر وتسجيل للشريعة، ثم «الجمارا» أي الشرح والتعليق، والتلمود بمعنى التعاليم «الأسفار المقدسة» للدكتور وافي ص ٢٢.

ويُنظر كتاب «الكنز المرصود في قواعد التلمود» تأليف د/ روهنج-شارل لوران، ترجمة د/ يوسف حنا نصر الله، دراسة وتقديم د/ أحمد حجازي السقا، ط. مكتبة النافذة، الجيزة- فيصل، سنة ٢٠٠٣م.

- « اعلم أن أقوال الحاخامات هي أفضل من أقوال الأنبياء .
 « أن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجھارة « التلمود » فليس له إله .
 « أن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله .
 « أن مخافة الحاخامات هي مخافة الله^(١) .

ويتضح لنا من دراسة أحد نصوصه مدى التغيير الذي أحدثه الحاخامات بواسطة التلمود، حيث حولوا عيد الفطر الموجود في التوراة إلى طقوس يذبح فيها نصراني أو غيره، ويوضع دمه في هذا الفطير المقدس، قد جاءت في التلمود عندنا مناسبتان دمويتان ترضيان إلهنا يهوه؛ إحداهما عيد الفطر الممزوج بالدماء البشرية، والأخرى مراسيم ختان أطفالنا^(٢) .

وعندما نشر التلمود وقرأه بعض رجال الدين النصراني انفجرت عواطف المسيحيين؛ بسبب الشتم والقذف الموجود في التلمود لعيسى ابن مريم عليه السلام، وقامت مذابح كثيرة لليهود في أوروبا بإيطاليا وفرنسا وأسبانيا وروسيا، كذلك تكررت أوامر إحراق التلمود بسبب ما يتضمنه من احتقار للدين المسيحي.

كل ذلك أدى إلى قيام حركات إصلاحية بين اليهود حذفت بعدها المواد الموجهة إلى النصراني، أو ترك مكانها غفلاً، أو وضع رموز لمعانيها يشرحها الأخبار لتلاميذهم^(٣)، أي إن هناك إصراراً من جانبهم على التمسك بتعاليم التلمود كاملة وتنفيذها، وهذا ما تؤكد

(١) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، للدكتور محمد علي البار، ص ١٦١ / ١٦٢، وغيرها من النصوص التي تبين مكانة التلمود، إلى جانب نصوص أخرى كوصف الإسرائيلي عند الله بأنه معتبر أكثر من الملائكة، واعتبار الشعب اليهودي هو الشعب المختار، وباقي الشعوب فهم حيوانات، ولا يجيز التلمود أو يشفق اليهود على أعدائهم ولا يعتبر لأرواح غير اليهود حرمة، كما ينص على أن من العدل أن يقتل اليهودي كل أمي؛ لأنه بذلك يقرب قرباناً إلى الله «ينظر كتاب: اليهودية للدكتور شلبي ص ٢٧٥ وما بعدها».

(٢) المرجع نفسه ص ٧١.

(٣) نقلاً عن المصدر السابق ص ٥٦.

دائرة المعارف البريطانية التي تقول: وتشهد إسرائيل حاليًا عودة شديدة التمسك بالتلمود والأصولية^(١). (Fundamentalism)

وإننا نعبّر أمام هذه الأعمال عن ألمنا ودهشتنا معًا؛ أما ألمنا فإنه يرجع إلى مشاهدتنا بأعيننا ما يقع على أرض فلسطين هذه الأيام، وما حدث من قبل من مذابح مشهورة، كمذابح دير ياسين وصابرا وشاتيلا وغيرها، بحيث لا تعد ضحايا الأعياد ومراسيم الختان شيئًا يذكر إلى جانبها، وبالرغم من بشاعتها ومظهرها الإجرامي في حق الإنسانية.

وأما دهشتنا فإنه بالرغم من النصوص التلمودية المهيبة للمسيحيين فقد استطاع اليهود خداع الملايين منهم للانضمام إليهم فيما يسمى بحركة بناء الهيكل، على زعم أن المسيح المنتظر لن يظهر إلا بعد بئانه على أنقاض المسجد الأقصى، ومحاولات اليهود لهدم المسجد الأقصى أصبحت خبرًا مكرّرًا تنشره الصحف اليومية، مع وثائق متعددة عن الخطط الجهنمية لتنفيذ هذا المشروع وضمان عدم ثورة العالم الإسلامي^(٢).

وربما يخفف من درجة عجبنا أن نقف على بضع أسرار الماسونية التي يتخذها اليهود كأداة لتنفيذ أهدافهم، واتخاذ التلمود كمصدر للفكر الماسوني^(٣).

(١) نقلًا عن المصدر السابق ص ٥٦.

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٨ ويقول الدكتور محمد علي البار: وقد انضم إليهم ملايين النصارى في الولايات المتحدة الأمريكية وتبرعوا بمئات الملايين... إلخ. وكانت آخر خطوات إسرائيل أن أصدرت ما تُسمى بالمحكمة الإسرائيلية العليا موافقة في أغسطس سنة ٢٠٠١م لجماعة يهودية متطرفة على وضع حجر الأساس للهيكل المزعوم عند باب المغاربة في جنوب القدس القديمة... وقد وضعتنا هذه الجريمة جميعًا أمام مسئولية كبرى سنسأل عنها يوم القيامة وأصبح واجب حماية المسجد الأقصى فرض عين.

(٣) ينظر ص ١٤٧، ط. بيروت: ليس التلمود سوى قصة العهد الذي أصبح فيه الشيطان سيد العالم. هكذا وصفه وليم كار في كتابه «اليهود وراء كل جريمة»، أما ما يسمى بمخطط بايك فقد ورد به ذكر حروب ثلاثة:

الأولى: للإطاحة بالحكم الملكي في روسيا.

الثانية: لاجتياح روسيا لنصف العالم.

قلنا فيما سبق: إن اليهود لقلّة عددهم عوضوا هذا النقص بتكوين الجمعيات والهيئات والنوادي تحمل شعارات جذابة؛ لتجذب إليها أصحاب النفوذ والأموال ورجال الأدب والصحافة والفن والوزراء، وأساتذة الجامعات وغيرهم من رواد المجتمعات في مختلف البلدان.

ومن هذه المجتمعات جماعة «الماسون» أو «البناءون الأحرار»، والماسونية هي جمعية سرية ترجع في الرأي الأرجح^(١) إلى بداية القرن الأول الميلادي في عهد هيروودس أكربيا الثاني ملك الرومان، الذي أهمه ظهور المسيح ﷺ، فدعاه ذلك وبمعاونة مستشاريه إلى إنشاء جمعية سرية باسم «القوة الخفية» وكانت تتلخص مهمة هذه الجمعية في التخلص والقضاء على المسيحية وأتباعها^(٢).

قد حدد الملك هيروودس الهدف من إنشاء هذه الجمعية، ويتلخص في محاربة المسيحية التي تكاد تقوض الديانة اليهودية وتزعزع أركانها^(٣).

والبيان الذي ألقاه آنذاك طويل، إذا أوجزنا مضمونه فإنه يعبر عن عقائد اليهود نحو المسيح ﷺ، حيث ينكرون ألوهيته ونبوته، ويخشون منه على ديانتهم اليهودية، كما لا

= الثالثة: حرب ساحقة على الإسلام باعتباره القوة الأخيرة التي ستقف تجاه قوى الشر.
المصدر: كتاب «إني أرى الملك عارياً» للدكتور محمد عباس، ص ٥٨٧/٥٨٩، مكتبة مدبولي بالقاهرة سنة ١٩٩٩م.

(١) هذا هو الذي يريجه الدكتور عبد الرحمن عميرة، حيث هناك احتمالات أخرى، عن تاريخ نشأة الماسونية «كتابه: المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ص ٢٩» ويرى أن التلمود هو الأصل الذي يستقون منه أفكارهم (١ ص ٨١).

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠، ط/ دار اللواء بالرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
وينسب إلى موسى بن ميمون قوله: (إن واجب سائر الجنس اليهودي إعادة بناء الهيكل) وذلك بكتابه «شريعة اليهود». ويرى الأستاذ المودودي أن هدف الماسونية -وهي يهودية في أصلها- إعادة بناء الهيكل، بل إن هذه هي الفكرة المركزية لهذه الحركة كلها.

ص ٧ من كتاب «احذروا مخطط اليهود» ط. المختار الإسلامي سنة ١٩٧٧م.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠، ط. دار اللواء بالرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

يقرون بأنه المسيح الذي ينتظرونه؛ لذلك فإنهم حاكموه وأوقعوا عليه أشد العقوبات، فصلبوه - حسب اعتقادهم - ودفنوه بعد موته ونصبوا حراسًا على قبره^(١)، ونرى في هذا البيان العداوة العميقة للمسيحية والمسيحيين.

ثم قرر أن تكون أعمالهم خفية، واختار دهليزًا «سماه المحفل» لعقد الاجتماعات السرية فيه؛ لكي لا يرانا أحد ولا يسمعنا أحد ولا يعرف بنا أحد.

وفي المرحلة الثانية للماسونية - كما يذكر الدكتور الزغبى - والتي تبدأ سنة ١٧٥٥م - نشطت الماسونية، ودست على المسيحيين بعض عملائها؛ ليدخلوا في المسيحية وينسفوها، وربما كان منهم «بولس» الذي انحرف بالمسيحية^(٢)، كل ذلك كانت تأتيه الماسونية بدافع الحقد التلمودي الذي يصور المسيح ﷺ بأبشع الصور ونكتفي بإيراد النصين:

١- يسوع المسيح ارتد عن دين اليهود وعبد الأوثان، وكل مسيحي لم يتهود فهو وثني عدو لله وللإهود.

٢- يسوع الناصري موجود في لجج الحميم، بين الزفت والقطران والنار، وأمه مريم أتت به من زناها بالعسكري باندرنا - كذبًا وبهتانًا - والكنائس المسيحية بمقام القاذورات والواعظون فيها كلاب نابحة^(٣).

كذلك فإن الإسلام كان - ولا يزال - مستهدفًا لهجمات الماسونية، إذ يرى الدكتور عبد الرحمن عميرة أن الماسونية «أو اليهودية العالمية» وراء الكثير من الخلافات بين المسلمين، كاتجاهي نفي القدر والجبريين، وكذلك فكرة خلق القرآن التي يتصل سندها بليبيد بن أعصم اليهودي بخلق التوراة^(٤)؛ بل بدأ النشاط الماسوني مبكرًا بقيادة عبد الله بن سبأ الذي كان يؤسس «الخلايا الماسونية السرية» في تنقلاته بين العراق ومصر والشام وهو

(١) المذاهب المعاصرة، للدكتور عبد الرحمن عميرة ص ٣٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٣.

(٣) من كتاب «المسيح المنتظر وتعاليم التلمود» ص ١٥٧ للدكتور محمد علي البار. ط. دار السعودية،

بجدة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٤) المذاهب المعاصرة ص ٤٢.

يغري الرعاع، وينشر المبادئ الهدامة للإسلام، ومنها الزعم بألوهية علي بن أبي طالب عليه السلام (١).

مستولية الماسونية عن الثورات الكبرى في العالم

إذا كان التلمود مصدرًا للفكر الماسوني فلا بد من إزاحة الستار عن الجمعيات الماسونية التي تنفذ تعاليم التلمود وتحققها في الواقع، فقد ورد في أحد نصوصه ما يلي:

يجب على كل يهودي أن يبذل جهوده لمنع استملاك باقي الأمم في الأرض؛ لتبقى السلطة لليهود وحدهم، وقبل أن يحكم اليهود العالم بصورة نهائية يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم، وعندما يأتي المسيح ويحصل النصر المنتظر تكون الأمة اليهودية إذ ذاك في غاية الإثراء؛ لأنها تكون قد حصلت على جميع أموال العالم، وتحفظ هذه الكنوز في سرايا واسعة (٢).

وكنا قبل الاطلاع على هذا النص وغيره نظن أن التوسع في تصوير ذلك الدور للماسونية كأداة لهدم الحكومات وإثارة الحروب والنزاعات في العالم هو لون من المبالغة (٣)

(١) مقدمة كتاب الخطر اليهودي «بروتوكولات حكماء صهيون» للأستاذ محمد خليفة التونسي، ط. مكتبة دار التراث سنة ١٩٧٧ م.

(٢) نقلاً عن كتاب: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، ص ١٥٧ للدكتور محمد علي البار، وقد استخدمنا لفظ «الثورات» كمصطلح سائد، وهي في حقيقتها حركات انقلابية تهدم الأنظمة القائمة وتستحوذ على السلطة بطريقة غير شرعية؛ لتفتح الطريق لأتباعها من الماسونيين للاستحواذ عليها.

(٣) ويرى الأستاذ العقاد أن دور الصهيونية في الثورات لا خلقها؛ ولكن اغتنام الفرص، والتسلل من الثغرة المفتوحة، ويضرب على ذلك مثلاً بالشيوعية حيث سبقتها أسباب ومقدمات في المجتمع الروسي استغللتها الصهيونية واتجهت إلى وجهتها «الصهيونية العالمية ٧٩».

ويذكر الأستاذ التونسي أن نفوذ الدولة اليهودية قائم في كل مكان عن طريق جمعياتهم الدينية والسياسية والماسونية سرية وعلنية ونسائهم وخدامهم وبذور الفتنة بين الهيئات المختلفة في كل قطر في العالم معاً، ويشارفهم على الصحافة ودور النشر ووكالات الأنباء ومذاهب العلم والفلسفة والفن والمسرح والسينما والمدرسة ونظم التعليم والبنوك والشركات والبورصات وأهم منابع الثروة في معظم البلاد، واحتكار الذهب ونظمهم السرية التي لا يعرف أهدافها إلا أكابر حكائهم،

في تضخيم دور اليهود بصورة أكبر بكثير من حجمهم، ولكن الحق أننا كلما قرأنا أكثر عن تاريخ الثورات، وعرفنا شخصيات من المتأمرين الحقيقيين المختفين وراء الستار تبين لنا صحة التعليقات الأنفة، حيث يستغلون الأزمات القائمة ويستثمرون حركات الجماهير ويوجهونها لصالحهم.

ويرى الأستاذ أنور الجندي^(١) أن أبرز أهداف الماسونية هو احتواء المسيحية وتدميرها من الداخل والعمل على تزييف الإسلام والسيطرة على مجتمعاته، واستطاعت أن تحقق ثلاثة أعمال كبرى فتحت الطريق لإقامة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي وهذه الأعمال هي:

١- الثورة الفرنسية التي أتاحت لهم تملك وجوه النشاط الثقافي والصحفي والسيطرة على رجال السياسة والحكم.

٢- إسقاط القيصرية وإقامة البولشفية في روسيا.

٣- إسقاط الخلافة العثمانية.

وسنكتفي بأن ننزع من وقائع التاريخ بعض الشواهد الدالة على صحة هذه الاستدلالات؛ لنأخذ حذرنا من استفحال هذا الخطر الداهم علينا وعلى العالم ولكي لا

= وإن نفذ كبارهم وصغارهم خططها تنفيذاً دقيقاً «ص ٦٩ من مقدمة كتاب الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون» مكتبة دار التراث ١٩٧٧م.
(١) باختصار من كتابه «المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية» ص ٩، ط. دار الاعتصام بمصر عام ١٩٧٧م.

وكان وراء إسقاط الخلافة العثمانية ما وراءه من شروط وضعتها إنجلترا على لسان «كرزن» رئيس وفدها في مؤتمر توران؛ ومنها إعلان الدولة «اللا دينية» حيث ضرب الإسلام في كيانه السياسي، وقد عبر العلامة شلبي النعماني عن هذه الفاجعة أصدق تعبير بقوله: إن زوال الدولة العثمانية في الواقع زوال ملك المسلمين وملتهم، ص ٦٦ من كتاب «في مسيرة الحياة» للأستاذ أبو الحسن الندوي، ط. دار القلم، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، وينظر كتاب «حقيقة الماسونية» للدكتور محمد علي الزغبى، ط. دار العربية، بيروت، مارس ١٩٧٤م.

ننسى - والأجيال بعدنا- دور اليهود في إلغاء الخلافة العثمانية؛ لأن السلطان عبد الحميد رحمته الله رفض التنازل لهم عن أرض فلسطين.

فصياً يتعلق بالثورة الفرنسية، ظهر من خباياها أن «ميرابو» أحد نبلاء فرنسا في العهد الملكي - وهو من الماسون- أقنع «الدوق دورليان» بالاشتراك في الثورة للإطاحة بالملك لويس السادس عشر؛ لكي يستولي على عرشه، ولكن المتآمرين اليهود تخلصوا منها معاً بعد نجاح الثورة.

ولما قام «روبسيير» الذي اختاره اليهود لتولي الحكم بعد الثورة ليزيح الستار عن حقيقتهم ودوافعهم في كلمة ألقاها بالجمعية الوطنية أردته رصاصاً قاتلة فمات بسره الذي لم يبع به^(١).

ويبدو أنه عندما حقق اليهود الماسون أغراضهم - وأصبحت مقاليد السلطة في أيديهم أو أيدي أتباعهم - لم يعد يفزعهم إذاعة الأسرار، بل ربما أباحوا بها تفاخراً وتحدياً، ومثال ذلك الكلمة التي ألقاها رئيس محفل الشرق الأكبر الفرنسي ١٩٢٣، وقال فيها: نشر الآن النخب التالي نخب النظام الجمهوري الفرنسي ابن الماسونية العالمية^(٢).

وإذا تكلمنا عن دور اليهود في الثورة البولشفية وسيطرتهم على مقاليد السلطة في روسيا الماركسية، فيكفينا إحصاء عدد أعضاء المكتب السوفيتي هناك من اليهود؛ إذ كان يتألف من سبعة عشر عضواً؛ منهم أربعة عشر يهودياً صريحاً، وثلاثة من أصول يهودية أو من صنائع اليهود وزوجات الثلاثة يهوديات، وهم ستالين وفيرشيلوف ومولوتوف^(٣).

(١) المذاهب المعاصرة، للدكتور عبد الرحمن عميرة ص ٩٦، وقال في هذه الكلمة: (إنني لا أجرؤ على تسميتهم في هذا المكان وفي هذا الوقت... كما أنني لا أستطيع كشف الحجاب الذي يغطي هذا اللغز في الثورات منذ أجيال سحيقة. هذا وقد ورد بالنص بالبرتوكول الثالث (... تذكروا الثورة التي نسميها «الكبرى»، إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً؛ لأنها من صنع الدنيا...)
ص ١٣٨/١٣٩، بروتوكولات حكماء صهيون.

(٢) المصدر السابق ص ٩٧.

(٣) ص ٧١/٧٢ من مقدمة كتاب الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون، للأستاذ محمد خليفة

أما الحديث عن إلغاء الخلافة العثمانية فإنه حديث يُدْمِي القلب حقاً ويفتح أعين المخدوعين إلى أسباب الكوارث التي أصابت -وما زالت- العالم الإسلامي - ما لم يلتزم شمله من جديد، فقد زال بزوال الدولة العثمانية ملك المسلمين وملتهم، كما وصفه العلامة شلبي النعماني.

وما زالت الخبايا التي كانت وراء إلغاء الخلافة الإسلامية تظهر على السطح بمرور الزمن، وظهرت الوثائق التي تجعلنا نصحح بعض الأفكار والآراء التي ملأت كتب التاريخ بالأكاذيب والأغاليط المتعمدة أحياناً؛ كتصوير أتاتورك بالبطولة أو اتهام السلطان عبد الحميد بالدكتاتورية، أو وصف حركة جمعية الاتحاد والترقي بأنها أخذت بيد تركيا إلى التقدم والحضارة.

هذا بينما أظهرت الوثائق أن الأحداث كانت تمضي بخلاف ذلك تماماً، فقد خُلع السلطان عبد الحميد؛ لإخلاصه في الدفاع عن فلسطين ومواجهة اليهود، وكان أتاتورك من طائفة «الدونما» اليهودية التي تتظاهر بالإسلام نفاقاً، وتبين في نهاية المطاف لبعض المخدوعين الذين اشتركوا في المؤامرة ما تورطوا فيه، فهذا «أنور باشا» الذي قام بالدور الرئيسي في الانقلاب على الخلافة ١٩٠٨م، والذي تسبب في تدهور الدولة العثمانية يقول في حديث له مع «جمال باشا» إذ كانا يجلان أسباب الاندحار الذي أصاب الدولة التركية: أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟ وبعد تحسر عميق قال: نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية، فهذا ذنبنا الحقيقي^(١).

= التونسي، وقد كتب ذلك في سبتمبر ١٩٥١م، ولا نرتاب في أن نفوذهم ما زال كما هو حتى الآن، إذ يصعب تصور تنازلهم عن السلطة من تلقاء أنفسهم، ويلفت نظرنا الأستاذ التونسي إلى مؤشر مهم بقوله: وتأمل شعار اليهودي البلشفي في صدر هذا الكتاب وحوله النجمة المسدسة وهي شعار علم إسرائيل.

(١) مكائد يهودية عبر التاريخ، ص ٢٧٩، للدكتور عبد الرحمن حبنكة.

بروتوكولات حكماء صهيون

إذا بدأنا بتعريفها فإن الأقرب إلى الدقة وصفها بأنها مجموعة من المبادئ الأساسية الاستراتيجية، ولا يمكن تغييرها بحال، يزنون بها - وهم اليهود - تنفيذهم العملي^(١).

وهذه البروتوكولات - بالرغم من عدم الترابط الظاهر بين بنودها - إلا أن الدارس لها بمنهج تحليلي يتضح له في النهاية أنها اتخذت شكل منسق متكامل وتضمنت خطة عمل مترابطة ترمي إلى إيقاع الأميين - أي غير اليهود - في شباك النفوذ اليهودي، ووضعت السبل التي تحاصر فيه الأميين في كافة أوجه أنشطتهم وصنوف حياتهم؛ أي حياة الفرد ومعتقداته وسلوكياته، وحياة المجتمعات ونظمها الاقتصادية والسياسية والتربوية والثقافية، كذلك تبدو الصلات واضحة بين بعض نصوصها، ومحتويات التلمود والتنظييات الماسونية، وإلى القارئ بعض الشواهد:

«إننا مختارون من الله لنحكم الأرض.

«يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيوان.

«أن الأميين^(٢) كقطيع من الغنم وإننا الذئاب.

«إننا كنا الشعب الوحيد الذي يوجه المشروعات الماسونية^(٣).

أما عن تاريخها فيرجع إلى أخريات القرن الماضي، واكتنف ظهورها على العالم - بعد أن كانت في شكل وثائق سرية - كثير من الملابس المملوكة للأنظار، فقد طبعت لأول مرة في روسيا ١٩٠٥ م ثم انتشرت ترجماتها في سائر الأقطار الأوربية بلغات عدة، ولوحظ

(١) حقيقة اليهود، فؤاد بن عبد الرحمن الرفاعي، ص ٢٧، دار القسام بالكويت، رجب ١٤٠٦ هـ

(٢) وكلمة «أميين» التي تتردد دائماً فهي رمز لكل من هو غير يهودي، وهي في الأصل Lsome وتعني في العبرية: الأنجاس أو البهائم أو الكفار، ص ٨٩ من كتاب «انتبهوا... البشرية في خطر» جمع وتعليق سعاد منسي، مطابع دار الشعب - د.ت.

(٣) من كتاب «الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون» ترجمة محمد خليفة التونسي وتقديم الأستاذ العقاد، مكتبة دار التراث بمصر ١٩٧٧ م، الصفحات ١٤٥، ١٨٤، ١٧٢، ١٩٠.

- كما أشار الأستاذ العقاد - أنها لا تظهر في لغة من اللغات إلا اختفت على أثر ذلك، وأنها اختفت أو تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد^(١).

وعندما تم نشرها لأول مرة أعلن اليهود على لسان زعيمهم «هرتزل» التبرؤ منها، وأنها مزيفة، وضغط اليهود على بريطانيا للتدخل في روسيا لمصادرة نسخ الكتاب، وكذلك فعلوا أيضًا في فرنسا، وعملوا على إيقاف طبعها في ألمانيا وشاع أنه ما من أحد ترجم هذا الكتاب أو عمل على إذاعته بأي وسيلة إلا انتهت حياته بالاغتيال أو بالموت في ظروف مريبة^(٢).

وهناك شواهد كثيرة تُرجح صحة نسبة البروتوكولات إلى اليهود، منها الدراسة المقارنة التي قام بها الصحفي البريطاني «فكتور مارسون»^(٣) على أثر الانقلاب الشيوعي في روسيا ١٩١٧م، حيث رأى في هذا الانقلاب تحقيقًا عمليًا لتوقعات ناشرها الروسي نيلوس، منذ نشر البروتوكولات عام ١٩٠٥م، وكان يحذر الروس حينذاك من مؤامرات اليهود^(٤).

كذلك فإن من يراقب ويتفكر في أحوال العالم المعاصر - كما فعل هنري فورد في كتابه: اليهودي العالمي - يميل إلى تصديق ما ورد بهذه الوثائق السرية؛ لأن الواقع يشهد بآثارها على أحوال الأمم والشعوب، كما تشهد بصمات الأصابع على صاحبها، فقد صرح ذات مرة لأصدقائه قائلاً: مهما كانت حقيقة هذه البروتوكولات فإنها تتفق مع ما هو واقع

(١) تعقيب محمد خليفة التونسي على كتاب «الصهيونية العالمية» للعقاد ص ١٥٧، ط. مكتبة غريب بالفجالة بمصر عام ١٩٨٦م، ويعلق في الختام بقوله: وتفسير هذه الظاهرة فيما نرى أن اليهود يجمعون نسخها كلما عادت إلى الظهور، يفضح مؤامرة من مؤامرات «الصهيونية العالمية».

(٢) حقيقة اليهود، فؤاد بن سيد الرفاعي، ص ٣٩.

(٣) المصدر السابق ص ٣٧.

(٤) وما قاله نيلوس حينذاك: ولا يعلم إلا الله وحده كم كانت المحاولات الفاشلة التي بذلتها لإبراز هذه البروتوكولات إلى النور، أو حتى لتحرير أصحاب السلطان، وأن أكشف لهم عن أسباب العاصفة التي تتهدد روسيا البليدة التي تبدو من سوء الحظ أنها فقدت تقديرها لما يدور حولها ص ٢٤٤، البروتوكولات «تعقيب سرجي نيلوس».

الآن، ولا يختلف مضمون هذه البروتوكولات عما جاء في التلمود، ثم يمضي فيذكر أحد نصوصها الذي يتضمن أن الثورة الفرنسية من صنع الماسون^(١)، وكل من يرجح صحتها يستند إلى مطابقة الواقع لتعاليمها، وأن لسان الحال أصدق من لسان المقال^(٢).

البروتوكولات والحركات الصهيونية

ولكي لا يتشعب بنا الحديث عن البروتوكولات فإننا نعرض لمضمونها من بعض المسالك المتصلة بأهداف بحثنا، ومنها:

(أ) صلة البروتوكولات بمضامين تلمودية صريحة أو خفية، وغاية ما هنالك أن التلمود قد أجهلت حيث عمدت هذه الوثائق إلى التفصيل والتمثيل^(٣).

(ب) لعل هذه الدراسة المقارنة وما شابهها تجعلنا نُعيد تقويم بعض الشخصيات -وتفسير بعض الأحداث المؤثرة في عالمنا الإسلامي- تاريخياً، وفي العصر الحديث، وذلك ببحث مدى تطابقها مع تعاليم هذه الوثائق ونصوصها بين وقائع الأحوال والتصريحات المعلنة، أو السير بالشعوب إلى حتفها مع إيهامها بأنها تحضي نحو المستقبل المزدهر.

(ج) تحول اليهودية إلى دين سياسي في العصر الحاضر باسم الصهيونية، فقد برزت في نهاية القرن التاسع عشر تقريباً مفاهيم الصهيونية السياسية كتعبير عن اليهودية، غلفت نفسها بمنطق لغة السياسة وأساليب الوصول إلى الحكم^(٤).

(١) الماسونية تحت المجهر. د/ إبراهيم فؤاد عباس، ص ٢٨ دار الرشاد ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٢) مقدمة البروتوكولات للعقاد، ص ١٢.

(٣) مقدمة البروتوكولات للعقاد، ص ١٢.

(٤) د. حامد ربيع: سلوك المالك في تدبير المالك جـ ص ٤١، ط. دار الشعب بمصر ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

كذلك يحدد تاريخ ١٥/٥/١٨٩١م موعداً لإعلان البابا الكاثوليكي ليون الثالث عشر إرادة الكنيسة في أن تتدخل في الأحداث، وأن تدفع بالقوى السياسية المدافعة عن مبادئها في سبيل تحقيق أهدافها المدنية «نفس المصدر».

(١) إننا نجد أحد الأمثلة المعبرة عن التحام نصوص التلمود مع البروتوكولات فيما أورده أحد نصوص التلمود بعد وصف الأمم والأجناس بالحيوانات وكيفية السيطرة عليهم: يجب أن نزوج الجميلات للملوك والوزراء والعظماء، وأن ندخل أبناءنا في الديانات المختلفة، وأن تكون لنا الكلمة العليا في الدول وأعمالها، فنفتنهم ونوقع بينهم، ونجعلهم يحارب بعضهم بعضاً، وفي ذلك كله تجنى الفائدة الكبرى^(١).

ثم نقرأ عن النتائج المتحققة في البروتوكول الأول كالآتي: ومن المسيحيين أناس قد أضلتهم الخمر، وانقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكيات والمجون المبكر الذين أغراهم به وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهرماتنا - أي المربيات بالمنازل - في البيوتات الغنية، وكتبنا ومن إليهم، ونساؤنا في أماكن لهوهم - والهين - أضيف من يُسمَّين «نساء المجتمع» أو الراغبات من زملائها في الفساد والترف^(٢).

وربما كان النصيب الأوفر عند تنفيذ مثل هذه الخطط للمجتمع الأمريكي، فقد أورد هنري فورد بكتابه «اليهودي العالمي» ما يثبت بالأدلة كيف دمروا الأخلاق والقيم باحتكار تجارة الخمر والبغاء والأزياء الماجنة والأشرطة الوضيعة والمسرحيات البذيئة والآداب الساقطة^(٣)، بل لا يخلو مجتمع من المجتمعات بأقطار الأرض قاطبة من آثار أفعالهم، فكيف نجحوا؟!.

الحق أنهم تعمقوا في فهم النفوس البشرية ودوافعها وغرائزها، واستطاعوا بذلك قيادة عملائهم كيفما شاءوا، ولتقف قليلاً على تحليلاتهم النفسية لهؤلاء:

(١) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، د/ محمد علي البار ص ١٦١.

(٢) البروتوكولات ص ١٢٦ وينص البروتوكول الخامس على أنهم بذروا الخلاف بين كل واحد وغيره في جميع أغراض الأعمين الشخصية والقومية، بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال العشرين قرناً، ص ١٤٤، ويذكر أن هناك طائفة عددها نحو ٤٠٠ أسلموا في مصر عام ١٩٤٢م، تعليقه على البروتوكولات ص ١٥٤/١٥٥.

(٣) معركة الوجود بين القرآن والتلمود، د/ عبد الستار فتح الله سعيد ص ٥٤.

ينص البروتوكول الرابع عشر بإحدى فقراته على الآتي: ومعظم الناس الذين يدخلون في الجمعيات السرية مغامرون يرغبون أن يشقوا طريقهم في الحياة بأي كيفية، وليسوا ميالين إلى الجلد والعناء، ويمثل هؤلاء الناس سيكون علينا أن نتابع أغراضنا، وأن نجعلهم يدفعون جهازنا للحركة. وفي فقرة أخرى نراهم يصفون الأيمن الذين يكثرون من التردد على الخلايا الماسونية بالفضول أو رغبة الحصول على الأشياء الطيبة، كما يبحثون عن عواطف النجاح وتهليلات الاستحسان: وأنتم لا تتصورون كيف يسهل دفع أمهر الأيمن إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه بنفسه، وكيف يسهل من ناحية أخرى أن تثبط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة، ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك تدفعه إلى حالة خضوع، دليل كذل العبد^(١).

ولكن سلطان المطامع والمنافع والشهوات لا تعمل وحدها - كما يرى الأستاذ العقاد في تحليله لنفوس أولئك الأعوان - بل لا بد أيضًا من أساليب الهدم والخذاع أي هدم الأخلاق والأوطان والأديان، وهي كالحصون التي تحمي ضحاياها، أما إذا أصبح المسلم غير مسلم، وأصبح المسيحي غير مسيحي، وأصبح الوطني لا يبالي بوطنه، وأصبح الضمير الإنساني لا موضع فيه للحلال والحرام فهي على الأقل ميدان لا موانع فيه ولا عقبات، وإن لم يكن فيه أعوان وأذئاب^(٢).

(ب) إذا كان التلمود يغذي كما رأينا في اليهود روح العنصرية والامتياز عن باقي الأمم، وينمي في أنفسهم الاستهانة والاحتقار لغيرهم من الأجناس والشعوب والأديان، فإن الغاية هي بسط سلطانهم على العالم كله، إذا كان الأمر كذلك فإن قراءة البروتوكولات بهذا الفهم لا تزدد عن كونها برنامج تفصيلي للأهداف اليهودية المتحققة على أرض الواقع ومفتاحًا للوعي المتكامل لكثير من الوقائع التاريخية والمعاصرة،

(١) البروتوكولات ص ١٩١.

(٢) الصهيونية العالمية، عباس العقاد ص ٧٦، ويقول أيضًا: فحسب الصهيونية كسبًا أن تنهدم أركان الوطنية والدين وأن تنهار قواعد الأخلاق والآداب... فستريح من هذه العوائق في طريقها، وتفتح الأبواب لسلطان المال والخذاع بغير شريك ولا حسيب «المرجع نفسه ص ٧٩».

وحفزاً للهمم - وهذه هي غايتنا - لوضع البرامج العلمية والخطط الهادفة المضادة في سبيل استكمال وظهور اليقظة الإسلامية المرتقبة التي تنمو الآن في رحم الأمة.

وإذا أخذنا برأي ابن خلدون صاحب النظرية التي تدرس تاريخ الأمم وواقع المجتمعات والحضارات بتشبيهاها بالجسد الإنساني^(١)، رأى كجسد حي يتكون إجمالاً من رأس مفكرة وقلب نابض وجسد تتقاذفه الغرائز، إن لم يخضع لأوامر ونواهي الشرع فإننا نرى في تطبيق نظريته على مضمون البروتوكولات أقرب الطرق لاستيعابها، وهذا ما سنفعله بمنهج تركيبى في القوالب الآتية:

١ - تغيير العقائد والأفكار بإزاحتها وإحلال بدلها نظريات زائفة.

٢ - صنع القيادات وجعلها تابعة للخلايا الماسونية السرية، وقد عرفنا نفسياً كيف يسوقون الأعوان والأتباع إلى ما يريدون.

٣ - صرف جماهير الشعب عن المتابعة والاهتمام بما يدور حولها، حتى تخرج من حلبة الصراع وتتفسخ إرادتها وتصبح طوع البنان كالسائمة لا تدري من أمرها شيئاً.

١ - العقائد والأفكار

ورد بالبروتوكول الثاني أن نجاح دارون وماركس ونييتشه كان بترتيبهم مع ترقبهم للأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأعمى^(٢)، ويبدو أن بعض الأعضاء كانوا مكلفين بتتبع آثارها الأخلاقية، فسجلوا في البروتوكول التاسع هذه الملاحظة: ولقد

(١) ويرجع الفضل إلى الدكتور حامد ربيع الذي لفت النظر إليها وبيان أثرها التطبيقي في الممارسة على النظريات السياسية الغربية، وربما كان مصدر ابن خلدون عبارة حنين بن إسحاق (إن الدماغ ابتداء الحس والحركة الإرادية والسياسية)، ويرى د/ عبد الصبور شاهين أن صفة «السياسة» تعني قيادة الجسد وتوجيهه، ثم جاء المعنى الحديث فوسع مجال استعمال الكلمة بنقله من إدارة الجسد البشري إلى إدارة الكيان الاجتماعي «ص ١٢٩ من كتابه: العربية لغة العلوم والتقنية» ط. دار الاعتصام بالقاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) البروتوكولات ص ١٣٢.

خدعنا الجيل الناشئ من الأميين وجعلناه فاسدًا متعفنًا بما علّمناه من نظريات معروف لدينا زيفها التام، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها^(١).

كذلك حرصوا على الترويج لما سموه بالنظريات المبهجة، أي التي تبدو في ظاهرها تقدمية أو تحررية، وهي في حقيقتها ليست كذلك ولا يوجد عقل واحد بين الأميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة التقدم يخفي ضلال وزيف عن الحق ما عدا الحالات التي تشير فيها هذه الكلمة إلى كشف مادية أو علمية، إذ ليس هناك إلا تعليم حق واحد^(٢).

ويسجل البروتوكول الأول أنهم أول من صاغ فيها الناس قديماً الحرية والمساواة والإخاء، فأخذت الجماهير ترددها كالبيغاوات، بينما حرمت الفرد من حرته الشخصية الحقيقية التي كانت من قبل في حمي يحفظها من أن يخنقها السفلة^(٣)؛ ولكنهم يفخرون بأن هذه الصحيحة جلبت إلى صفوفهم فرقاً كاملة، بينما هي في الواقع تحطم سلامتهم واستقرارهم ووحدتهم، مدمرة بذلك أسس الدول^(٤).

٢- القيادات

تمضي الخطة في هذا الصدد خلال ثلاث شعب:

أحدها: إزاحة الفئة الممتازة التي تستحق تولي زمام الأمور عن جدارة واستحقاق؛ لتفوقها واستبدالهم بوكلائهم التابعين لهم وستنضع الرعاع لهذا النظام؛ لأنهم سيعرفون أن هؤلاء القادة مصدر أجورهم وأرباحهم وكل منافعهم الأخرى^(٥).

والثانية: الخط من كرامة رجال الدين من الأميين في أعين الناس باعتبارهم عقبة كؤد في طريق اليهود وأن نقيذ نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوماً فيوماً^(٦).

(١) المرجع نفسه ص ١٥٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٨٣.

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٨.

(٤) المرجع نفسه ص ١٢٩.

(٥) المرجع نفسه ص ١٦٣.

والثالثة: السيطرة الاقتصادية، بالحصول على الاحتكار المطلق للصناعة والتجارة، مع تجريد أصحاب الأراضي من الأميمين من أراضيهم؛ لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم، مع العمل على استنزاف الثروات بحيث تصبح في أيدي اليهود، فيعم الفقر الطبقات العاملة وعندئذ يخر الأميمون أماننا ساجدين؛ ليظفروا بحق البقاء^(١).

٣- جماهير الشعب.

ربما تتضح فاعلية البروتوكولات الخطيرة في التنفيذ بشكل واقعي أكبر إذا طالعنا الفقرات المتصلة بالجماهير، وكيفية قيادتها بعد إفقادها الوعي وخلخلتها إرادتها، حيث تتشابك النصوص بعضها ببعض كالسلاسل الحديدية التي تقيد أيدي الإنسان وأرجله، هذه السلاسل الشيطانية وحدها لتحقيق الإفساد الذي يسعى إليه اليهود، فما البال بها كلها؟!

إنها تتشابك وتتعدد فلا تترك عضوًا من الأعضاء في جسد الأمة الممثل في جماهير الشعب إلا وقد أحاطت به والتفت حوله، فبدءًا من تدمير الحياة الأسرية وإفساد أهميتها التربوية إلى السيطرة على الصحافة بنشر التعصبات الدينية والقبلية وبت الفوضى الاجتماعية، إلى تضليل الرأي العام وإيقاعه في الحيرة بتغييرات من جميع النواحي لكل أساليب الآراء المتناقضة حتى لا يكون له رأي في المسائل السياسية^(٢).

وإمعانًا في صرف الجماهير عن الاهتمام بالمسائل السياسية فإنهم يلهونها بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومزجيات الفراغ وغيرها، ولا ينسون أيضًا تدبير الأزمات الاقتصادية وإلجاء الحكومات إلى القروض وتحميلها بالفوائد^(٣).

(ج) كيف أفلح اليهود - وهم أصحاب الدين المغلق - من إقامة دولة وكيان قائم على عقيدة دينية؟

(١) المرجع نفسه ص ٢٠٤.

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٩.

(٣) ينظر البروتوكولات الصفحات ١٦٣، ١٧٩، ١٤٦، ١٥١.

(٤) المرجع نفسه ص ١٨٣: ٢١٨.

تمهيداً للإجابة عن هذا السؤال نستطلع بعض مواد البروتوكولات؛ ومنها إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء^(١)؛ وفي نص آخر يشير إلى ضرورة سحق كيان حكومة الأقلية الفاضلة العادلة التي تقف ضدهم، ثم تأتي الخطوة التالية أي نستثير مرض ضحايانا من أجل المنافع، وشرهم ونهمهم، والحاجات المادية للإنسانية، وكل واحد من هذه الأمراض يستطيع وحده مستقلاً بنفسه أن يحطم طليعة الشعب، وبذلك نضع قوة إرادة الشعب تحت رحمة أولئك الذين سيجرونه من قوة طليعته^(٢)؛ أي: يؤسد الأمر إلى غير أهله، وأضف إلى ذلك الالتزام بشعارهم وخلاصته كل وسائل العنف والخدعة^(٣).

وتأتينا الإجابة على لسان الأستاذ العقاد في وصف أساليب الصهيونية، وتتلخص في استطلاع الأسرار الخفية، وتسخير سلطان المال لاستغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية بذوي النفوذ، والاتجاه بها إلى الوجهة التي تحقق لها مصالحها وأغراضها^(٤)؛ ثم يكشف لنا الدكتور/ حامد ربيع عن أسرار أخرى لا تتوافر إلا للقلة، فقد عكف على دراسة أدوات الغزو الاستعماري أو ما يسميها «أدوات التسميم السياسي» الذي خضعت له المنطقة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخلص إلى لفت أنظارنا إلى طبيعة الاستشراق كأداة من أدوات الغزو الاستعماري، وبين أنشطته:

١- كوسيلة للنفوذ الغربي في فهم العالم العربي.

٢- كأداة لاستقطاع القوى غير المسلمة، وبذر عناصر الطابور الخامس في تلك الأقليات.

(١) المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٠، ويفسر الأستاذ التونسي الطليعة بأنهم الممتازون الذين يتقدمون طوائف الشعب ويتزعمونها ويقضون في أمورها.

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٤) الصهيونية العالمية ص ٧٥، ويتحدث عن «الصهيونية المستعمرة» التي ظهرت فقط في العصر الحديث، بينما لم تقم لليهودية كلها دولة في العالم منذ أكثر من سبعة وعشرين قرناً، فلم تكن قط في عداة المستعمرين بقوة حكومتها وجيشها، وإنما كان عملها في الاستعمار أنها تستر وراءه، وتمهد له وتعتمد عليه في الاستغلال وامتصاص دماء الشعوب.

٣- كأداة لإعادة تشكيل منطق الطبقات القيادية.

هذا، ولم يتهياً للاستشراق النجاح إلا بعد بذره للمدارس الأجنبية والإرساليات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية، ثم الجامعات التي كانت أداة ثقافات غير عربية وغير إسلامية أيضاً، وجاءت الحركة الصهيونية فانتفعت بكل هذه الخبرات وأضافت إليها^(١).

(١) باختصار من كتاب «الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي» ص ٢٨/٢٩، دار الموقف العربي بالقاهرة ١٩٨٢م. ويرهن د/حامد ربيع على صدق استنتاجاته بأن أمة الجهاد انحرف بها قاداتها إلى أسلوب التفاوض مثل: سعد زغلول في مصر ونوري السعيد في بغداد، كذلك أخذت بعض القيادات الفكرية تسبح بحمد الحضارة الغربية: مثل طه حسين وتوفيق الحكيم، بينما عاش العقاد مشرداً ومات فقيراً.

الألوهية

إن كل من يبحث عقيدة الألوهية في الديانة المحرفة من مصادرها -التوراة والتلمود- يتضح أن فكرة الألوهية لديهم كانت قد انتكست في عصر تدوينهم هذه الأسفار فتصوروا الله ﷻ في صورة مجسمة، ووصفوه بكثير من الصفات غير اللائقة بالألوهية، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(١).

منها الزعم الكاذب بأن الله -تعالى علواً كبيراً- استراح في اليوم السابع بعد خلق السموات والأرض، فأعلن القرآن الكريم كذبهم وبهتانهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا أَسْمَوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ن: ٣٨].

وتدل هذه الأسفار أيضاً على أنهم كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة، مع تصورهم بأن لهم إلهًا خاصًا وأنهم هم أحباؤه، وتقول السيدة مريم جميلة المهتدية للإسلام: وكان تصوري لإله اليهود مشوهاً وغير لائق، فقد بدا لي الله في صورة وكيل مقاطعة دنيوية^(٢)، واعتقدت بعض فرقهم بوجود ابن الله.

وهناك تخيلات وأوهام يلحقونها بالله تعالى؛ منها ما يرويه التلمود عن أعماله في الليل والنهار، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل (كمذاكرة التلمود مع الملائكة، ومع ملك الشياطين والاعتراف بالخطأ بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل والبكاء والندم والغضب على بني إسرائيل والقضاء عليهم بالتشريد والشقاء)، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(٣).

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د/ علي عبد الواحد وافي ص ٢٤.

(٢) رجال ونساء أسلموا ج١/ ط. دار القلم/ الكويت ١٣٩٨هـ / ١٩٨٧م.

(٣) الأسفار المقدسة ص ٢٨/ ٢٩.

ويقول الشيخ إبراهيم خليل أحمد: (ويبدو أن أسفار التوراة تدل على أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة، فكانوا يرون أن ثمة إله خاصاً بهم يختلف عن آلهة الشعوب الأخرى، ص ١٣٠ كتاب: إسرائيل والتلمود، ط. دار المنار بالقاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

ويذكر وول ديورانت بكتابه «قصة الحضارة» أن اليهود لم ينحلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل^(١).

ويرى الدكتور أحمد شلبي -يرحمه الله- أن اليهود لم يستقروا في أي فترة من فترات تاريخهم على عبادة الله الواحد الذي دعا له الأنبياء، وكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحًا في جميع مراحل تاريخهم^(٢).

كذلك اتضح له من دراسته للأسفار اضطراب الفكرة التي ترسمها عن الإله... فهو عندهم ليس معصومًا، ويأمر بالسرقة، ويتصف بالقسوة والتعصب لشعبه؛ لأنه ليس إله كل الشعوب بل إله بني إسرائيل فقط وهو عدو للآلهة الآخرين^(٣).

ويُستخلص الاتجاه اليهودي المادي من عبارة وردت على لسان أحد أبطال رواية «طوبى للخائفين» من تأليف ابنة ديّان، وهي كما يلي: أيام زمان حين كنا يهودًا في روسيا وغيرها كان من الضروري بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات، ونحافظ على ديننا، فقد كان الدين اليهودي لنا وسيلتنا لتعاون وتعاطف ونزود عنا الردي، أما الآن فقد أصبح لدينا شيء أهم هو الأرض، أنت الآن إسرائيلي، ولست مجرد يهودي، إني قد تركت في روسيا كل شيء؛ ملابسي ومتاعي وأقاربي وإلهي، وعثرت هنا على رب جديد، هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال^(٤).

إن مثل هذه الاعتقادات الباطلة المخالفة لعقائد التنزيه لله تعالى جعلت عالمًا غريبًا كبيرًا -وهو ول ديورانت- يميل إلى ترجيح أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه على الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهًا «الإله يهوه»، فيهوه ليس خالقهم بل مخلوق لهم، وفي يهوه صفاتهم الخربية التدمير والسرقة، ويهوه قاسٍ مدمر

(١) اليهودية، للدكتور أحمد شلبي ص ١٧٧ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٤م.

(٢) نفسه ص ١٧٦ ويطلقون على الإله عندهم اسم «يهوه» ... ويصح في تفسير الأستاذ العقاد أنه نداء لضمير الغائب أي «يا هو» ص ١٧٩.

(٣) نفسه ص ١٨٢.

(٤) أديان الهند الكبرى د/ أحمد شلبي ص ١٢٥ مكتبة النهضة سنة ١٩٧٢م.

متعصب لشعبه لأنه ليس إله كل الشعوب، بل إله بني إسرائيل فقط، وهو بذلك عدو للآلهة الآخرين، كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى^(١).

من هنا حق لكل منصف من علماء مقارنة الأديان - كالقرافي - أن يتساءل: فأين هذا القول من قول المسلمين؟ أن خلق الله تعالى لجملة العوالم كخلقه لأقل جزء من جناح بعوضة، وأن إيجاده بأن يقول للشيء: كن فيكون^(٢).

ويستخلص من ذلك - وكذلك يفعل كل باحث منصف لصوت العقل، ومستخدم لموازين العدل - أنه شتان بين عقائد اليهود بمصادرها المحرفة وبين عقائد المسلمين الذين يثبتون لله تعالى الصفات اللائقة بكماله وجلاله ﷻ من التوحيد والتمجيد اللائق بجلال الربوبية وتعظيم الله تعالى، وأما قول اليهود فتأنف منه دبغة الجلود، وهذه المواضع وشبهها من أعظم الأدلة على تبديل التوراة، وأنها غير المنزلة من الله تعالى، وهذا يجزم به كل عاقل^(٣).

(١) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤ عن «المخططات التلمودية للأستاذ أنور الجندي ص ٢٩».

(٢) الأجوبة الفاخرة «عن الأسئلة الفاجرة» للقرافي ص ١٤٨، ط. دار الكتب العلمية، بيروت

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

(٣) نفس المصدر.

الإيمان باليوم الآخر

يلاحظ الباحثون أن هناك اضطرابًا وغموضًا في عقيدة اليهود في اليوم الآخر، فهي أقرب إلى الإنكار منها إلى الإقرار والإيمان.

ويرجع ذلك إلى اختلاف النصوص الواردة عن الآخرة بين التوراة والتلمود، فقد خلت أسفار العهد القديم من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه، بينما ذكر التلمود في بعض فقراته الجنة والنار؛ (ولكنها في صورة مضطربة أدنى إلى الخرافة والأساطير منها إلى حقائق العقيدة، فتذكر هذه الفقرات أن الجنة تأوي إليها الأرواح الزكية، وأنه لا يدخلها إلا اليهود، وأن أهلها يطعمون من لحم أنثى الحوت المملحة كما يتناولون لحم طير كبير لذيد الطعم ولحم أوز سمين، وأن شرابهم فيها نبيذ معتنق، عصره الله في اليوم الثاني من الأيام التي خلق فيها العالم، وأن النار لغير اليهود من المسلمين والمسيحيين)^(١).

ومن هنا اختلفت الآراء حول معتقدات اليهود عن اليوم الآخر، فيرى الدكتور وافي أن بعض فرق غير شهيرة من فرق اليهود كانت تذهب في عقيدتها إلى ما يقرره التلمود في هذه الفقرات، وكانت تفسرها بمدلولها الحقيقي لا بمدلولها المجازي^(٢).

ويستدل من ذلك على أن أسفارهم من صنع أيديهم، وأن توراتهم المزعومة مخالفة للتوراة الصحيحة التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ، نورًا وهدى للناس، وقد وجدت هذه الاضطرابات في النصوص والاختلاف في التأويل لدى اليهود والمعاصرين حيث تأتي أصدق شهادة على لسان السيدة مريم جميلة «المهتدية للإسلام» حيث تخبرنا باعتقاد والدها وأفراد أسرتها وجميع أصدقائهم الذين (يهزؤون من أي تفكير في الآخرة، ويقولون بأنها خرافة محضة وأن الإيمان بيوم القيامة والجزاء في الجنة والنار ضرب من الأفكار البالية من مخلفات العصور القديمة)^(٣).

ثم تخبرنا بما هو أعجب وأدعى إلى التفكير والنظر في تطور هذه العقيدة في أذهان

(١) الأسفار المقدسة ص ٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٩.

(٣) رجال ونساء أسلموا ج ١ ص ٥١ وذكرت أن فلسفة والدها كانت تتلخص في أن على الواحد منا أن يتجنب التفكير في الموت وأن يتمتع بمباهج الحياة بأقصى ما يستطيع.

الصهيانية وارتباطها بفكرة إنشاء إسرائيل، فقد زعم أحد الأخبار بأنها (تعني حق اليهود الباطل في العودة إلى فلسطين)^(١).

(١) المرجع نفسه ص ٣٩ والخبر هو إبراهيم إسحاق رئيس قسم الدراسات العبرية بجامعة نيويورك، الذي زعم أيضًا بأن الإسلام مشتق من اليهودية.

الأنبياء

تنسب الأسفار لبعض الأنبياء - كما يذكر الدكتور وافي - أعمالاً قبيحة تتنافى مع وضعهم الديني والاجتماعي، بل تتعارض مع الخلق الكريم في ذاته، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس، كالقصص المقتراه عن إبراهيم ولوط وداود ونوح ^(١)

ومن جهة أخرى يتوسع اليهود - لا سيما الذين لا يلتزمون النصوص المقدسة - في دائرة النبوة والأنبياء، ويدخلون فيها كل من هب ودب، فيرون في (الكهنة والأحبار الذين تلوا الأنبياء الآخرين؛ دانيال واستير وعزرا ونحميا وملاكي، استمرارًا للوحي والنبوة).

ويضيف الدكتور حسن ظاظا إلى ذلك قوله: (بل إن كثيرًا من العلمانيين اليهود ممن أهدت أرواحهم نيران الصهيونية الحديثة يقعون باب النبوة هذا مفتوحًا حتى القرن العشرين ليدخل منه تيودور هرتزل أيضًا) ^(٢).

كذلك فقد أنكروا نبوة نبينا محمد ﷺ ولكنهم لم يفلحوا - ولا أفلح غيرهم - من النيل منه مهما اختلقوا من أكاذيب وافتراءات؛ لأنها تتصدع وتنهار أمام شخصيتهم وأخلاقه التي تسمو على المطاعين والترهات لكل من درس سيرته بتجرد ونزاهة، بل يتضح الإسلام في دائرته الواسعة - كدين وحضارة - مرتبطًا بشخصيته أوثق ارتباط، إذ

(١) الأسفار المقدسة ص ٤٨/٤٠، وما يذكر أيضًا أن تاريخهم ازدحم أيضًا بالأنبياء المحترفين الذين ازدادوا زيادة كبيرة جعلت الجيل الواحد يشهد أكثر من ٤٥٠ من ذلك الصنف، يُنظر كتاب المهندس أحمد عبد الوهاب «النبوة والأنبياء» مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) ص ٥-٦ من كتاب الفكر الديني اليهودي: أطواره ومذاهبه، دار القلم، دمشق ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م دار العلوم، بيروت، وما يذكر في هذا الصدد أن يهود نيويورك قدموا إلى «روزفلت» ميدالية ذهبية نقش على أحد وجهيها صورته، وعلى الوجه الآخر النجمة السادسة التي تحمل في وسطها عبارة الإهداء تقول: الرفاة والحكمة لفرانكلين روزفلت نبينا الجديد: الذي سيعيدنا إلى الأرض الموعودة في ظل خاتم سليمان بن داود، وكان روزفلت يهوديًا واسم عائلته روزفلت **Rosenvelt**، فؤاد الرفاعي، ص ٨٠ من كتاب النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية، ط. دار المجتمع، الكويت سنة ١٤٠٧هـ.

يتضح أيضًا صدق نبوته إذا ما استخدمنا منهج المقارنة بهذه الرؤية الجامعة؛ لأن شخصيته وسنته ليست بمعزل عن شريعة الإسلام وأمة الإسلام؛ لأنها من آثاره الباقية ﷺ. وهذا ما فعله ابن تيمية بمنهجه المقارن الموسع المتضمن لهذه الشعب كلها؛ بدأ بسرد مجمل مبيّنًا بعده تفاصيل ما أجمله، فقال: (وسيرة الرسول ﷺ من آياته، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمه من آياته، وعلم أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالح أمته من آياته، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث، ومن حين بعث إلى أن مات) (١)، وفصل بعد ذلك حيث أورد أن نسبه من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وقد دعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً منهم.

وكان عليه الصلاة والسلام أكمل تربية ونشأة، ولم يزل معروفًا بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق، وكان أميًا من قوم أميين، ولم يقرأ شيئًا عن علوم الناس، ومع هذا فإنه عندما أكمل أربعين سنة أتى أمر هو أعجب الأمور وأعظمها، فجاء بعجائب

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٤ ص ٨٠ مطبعة المدني، بدون تاريخ، كذلك لا ينبغي إغفال بشارات التوراة والإنجيل بمجيء محمد ﷺ التي ينكرها اليهود والنصارى عنادًا، منها ما ورد في سفر التثنية: (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران)، ينظر كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، لإبراهيم خليل أحمد، مكتبة الوعي العربي، من ص ٣٥ إلى ٤٩، وكتاب النبوة والأنبياء للمهندس أحمد عبد الوهاب، من ص ١١٩: ١٦٢ على سبيل المثال لا الحصر، ولعل أبرز الكتب التي عاجلت نبوءات الكتاب المقدس بإسهاب هو كتاب «محمد ﷺ» تأليف البروفسور عبد الأحد داود، المهتدي للإسلام، ترجمة فهمي شيا ومراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م وعن التبشير برسول ﷺ قال الأستاذ محمد قطب: وجاء الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام: (يأتي من بعد الفاروقليط) وهذه كلمة يونانية معناها الحمد، أي إنها مشتقة من «أحمد» وقد أبوا أن يترجموها في النسخة العربية وأبقوها هكذا لكي تظل غير مفهومة للقارئ، ولكيلا يعلم من هذا الذي سيأتي بعد المسيح عليه السلام، وقد مر الزمن، ولم يأت بعد المسيح إلا محمد ﷺ، وفي عام ٣٦٥هـ/١٩٤٥م نشرت صحيفة الأهرام المصرية هذا النبأ على إحدى صفحاتها: (عشر في دير سانت كاترين بسيناء على نسخة قديمة من التوراة جاء فيها ذكر محمد ﷺ، ثم اختفت هذه النسخة ولم تعد مرة أخرى إلى الظهور، ص ١١٦ من كتاب علم التوحيد، للصف الثاني الثانوي، محمد قطب، الرئاسة العامة لتعليم البنات بالسعودية ط. ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

الآيات وأكمل الشرائع، وظهر دينه بالعلم والحجة وباليد والقوة، واتبعه ضعفاء الناس لا لرغبة ولا لرهبة، وعاداه أهل الرياسة وأذوه وأذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون^(١).

وعندما اجتمع في أحد مواسم الحج بأهل يثرب وكانوا قد سمعوا من جيرانهم اليهود عنه آمنوا به واتبعوه، فهاجر هو وأصحابه إليهم، ثم أُذن له في الجهاد، ثم أمر به، فقام بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها في جميع حالاته، وعندما مات ﷺ لم يخلف شيئاً إلا بغلته، وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير، وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه^(٢)، وبعد هذه الأوصاف التي أوجزناها نقلاً عن ابن تيمية يأتي إلى المقارنة بين عقائده وشريعته والعقائد والشرائع الأخرى.

لقد جمع محاسن ما عليه الأمم، ففي العقيدة والتوحيد لا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء على أكمل وجه وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب، وقس على ذلك العبادات والحدود والأحكام، وسائر الشرائع، وكلها أفضل وأرجح، فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفضل وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به، وبما هو أحسن منه^(٣).

وينوه ابن تيمية بفضائل أمته ﷺ من حيث الشجاعة والجهاد في سبيل الله والسخاء والبذل، وكلها تعلموها منه، دون اتباع كتاب قبله، مثلما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، وآمنت أمته بالرسول والأنبياء قبله، وآمنت بجميع الكتب المنزلة، كما أمرهم، ولم يستحلوا أخذ شيء من الدين من غير ما جاء به، ومن أدخل في الدين ما ليس منه مثل أقوال فلاسفة اليونان والفرس أو الهند أو غيرهم كان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع، وبالرغم من التنازع الذي حدث بين المسلمين إلا أنهم اتفقوا على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عموماً ودين محمد ﷺ خصوصاً، ومن خالف هذه الأصل كان عندهم ملحدًا

(١) المرجع نفسه ص ٨١ مختصرًا.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٢.

(٣) المرجع نفسه ص ٨٣.

مذموماً^(١)، وينتهي شيخ الإسلام في الختام إلى بيان أن كمال علمه ودينه يناقض الشر والخبث والجهل، فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً في قوله: «إني رسول الله»^(٢).

ويعد،،

هذه هي معالم المنهج الموسع المستخدم بواسطة شيخ الإسلام، وسنعود إلى تطبيق بعض شعبه بعد حديثنا عن الديانة النصرانية؛ لأن أتباعها أيضاً لا يقرون بنبوته...

(١) المرجع السابق ص ٨٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٦.

الفصل السادس

النصرانية

تمهيد

لم ينقطع الحجاج العقلي مع أهل الكتاب منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

واستمرت المحاورات والمناقشات - وما زالت - تشتد حيناً وتضعف أخرى، ولا يكاد يخلو عصر من المساجلات الشفوية والمدونة^(١)، غير أننا نعيش في عصر تفرد بمظاهر جديدة خلقت منه العصور الماضية^(٢) فقد تحولت فيه اليهودية إلى دين سياسي كما بينا آنفاً، كذلك فإن النصرانية قد دخلت نفس المرحلة، أي اكتساب النفوذ السياسي بإعلان البابا الكاثوليكي ليون الثالث عشر في ١٥/٥/١٨٩١م (إرادة الكنيسة في أن تتدخل في الأحداث وأن تدفع القوى السياسية المدافعة عن مبادئها في سبيل تحقيق أهدافها المدنية)^(٣).

كذلك صاحبت موجة الاستعمار موجات التبشير، حتى وصفت هذه المرحلة المعاصرة بأنها امتداد للحروب الصليبية في العصور الوسطى، ولكن في أثواب جديدة أشد وأخطر من سابقتها، إذ توالى الحملات على الإسلام وكتابه ورسوله ﷺ بأقلام

(١) من أشهرها في العصر الحاضر محاورات الأستاذ أحمد ديدات مع رجال الدين النصارى، ومنها محاورته مع القس الأمريكي سوجارت.

(٢) وأبرزها اتفاق اليهود والنصارى في عدائهم للإسلام والمسلمين، فقد عم الفرح والسرور أوروبا وأمريكا على أثر هزيمة المسلمين العرب في حرب يونيو ١٩٦٧ بينما لا ننسى مسئوليتها عن إنشاء إسرائيل (٤٧/٤٨ من كتاب رسالة البابا بولس السادس، د/ عبد الودود شلبي) ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨م.

(٣) سلوك المالك في تدبير الممالك ج١ ص ٤١ تحقيق وتعليق د/ حامد ربيع، حيث يسجل أيضاً أنه في نفس الوقت يلاحظ تقييد الدلالة السياسية للدين الإسلامي وإبعاده بصورة أو بأخرى من الحركة السياسية ومن مفاهيم الصراع السياسي، نفس المصدر ص ٤٤.

حاقدة لا تبغي الحق بقدر ما تبغي الإساءة والظعن^(١).

وما نحن أمام خيوط عدائية تشابكت في شكل استعمار عسكري وتشويه للإسلام وحملات تبشير، ومن ثم فإنه من التبسيط المخل وصف كل هذا بأنه مجرد «غزو ثقافي».

كلا إنه تكتل ذو أبعاد دينية ونفسية وتاريخية وثقافية، يحمل برمته طابع الاصطدام والتحدي الذي لم ينقطع بين الحضارتين؛ الغربية المسيحية، والحضارة الإسلامية.

يقول الدكتور حامد ربيع: (هذه الرهبة التي ترسبت في ذهن القيادات الأوروبية تعود إلى بداية العصور الوسطى، وظهرت خوفاً من الدولة العثمانية، يرتبط هذا الخوف بعملية تشويه الحقيقة الإسلامية... والحضارة الأوروبية استندت دائماً إلى كبرياء شكلي، وهي في هذا وريثة الحضارة الرومانية؛ حضارة القوة والغطرسة، عقدة الإسقاط تأتي إلا إضفاء عيوب الذات على الغير، وتأتي الحركات التبشيرية لتكمل هذا التطور؛ تشويه الإسلام)^(٢).

الإمة الإسلامية أمة دعوة

ولكن الحق أننا أمة داعية، ولسنا أمة معتدية رسالتنا الهداية إلى الحق لا السيطرة والاستعلاء وقهر الشعوب، وصفحات تاريخنا أنصع بياضاً من أية صفحات أمة أخرى، فلم تتعرض جيوشنا إلا للحماة الظلم ومانعي الدعاة من أداء رسالتهم، وكانت الحروب سجالاتاً بين جندنا وجند قاهري الشعوب الذين يقفون عقبة في سبيل الهداية، فلم نتعرض للسكان الآمنين المدنيين شيوفاً ونساءً وأطفالاً ورهباناً في صوامعهم.

يقول الجويني: (ابتعث الله محمداً ﷺ إلى الثقلين، وحثهم على المستقلين بأعباء شريعته دعوتين:

(١) وتعدى الأمر إلى ممارسة الظعن أثناء حملات الزيارات الشخصية، يقول الأستاذ أحمد ديدات: (كنت وأصدقائي هدفاً دائماً لخريجي هذا المعهد - أي معهد تخريج الوعاظ النصراني - فلم يكن يمر يوم إلا ويضايقنا فيه هؤلاء يباهناتهم للإسلام، والنبى ﷺ والقرآن. ص ٨٥ من كتابه «هل الكتاب المقدس كلام الله؟» ترجمة نورة أحمد النومان، مكتبة أبو القاسم، جدة.

(٢) الإسلام والقوى الدولية ص ١١/٩، ط. دار الموقف العربي ١٩٨١م.

إحداهما: الدعوة المقرونة بالأدلة والبراهين، والقصد منها إزالة الشبهات وإيضاح
البيانات.

والأخرى: الدعوة القهرية المؤيدة بالسيف المسلول على المارقين الذين أبوا
واستكبروا بعد وضوح الحق المبين^(١).

من هذا الفهم الفقهي الصحيح لرسالتنا والتطبيقات الواقعية المطابقة لحقائق
التاريخ يحق لنا أن نتألم ونمتعض مما يلاقيه العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية من
روح عدائية، تظهر آثارها على أمتنا وشعبونا الآن في إندونيسيا والفلبين وتايلاند والهند
والحبشة والسودان وبلغاريا وألبانيا ويوغوسلافيا وغيرها من البلدان التي يستهدف فيها
المسلمون لألوان من العسف والظلم وكبت الحريات وحملات التنصير.

ومع هذا كله فإننا سنتخلص بقدر طاقتنا من آثارها على النفس بالصبر والمثابرة،
ونقيم منهجنا العلمي في عرض العقائد النصرانية وشرحها في ضوء قوله تعالى: ﴿هُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، محتكمين إلى المناقشة الهادئة بالحجج العقلية والطرق المنطقية
لتوعية أبنائنا بحملات التشهير التي تتجاوز أحياناً كل الحدود، ونأمل أيضاً أن نلقى أذنًا
صاغية وقلوبًا خالية من التعصب وراغبة في معرفة الحق واتباعه، لا سيما بعد انحياز
العالم الغربي لليهود مع استخدام التبشير؛ لاستمرار استعمار العالم الإسلامي، فإن
العلاقة وثيقة بينهما (وخاصة ما يصدر عن العالم الأنجلو سكسوني البروتستانتى الذي
يخضع بحكم تراثه الديني والفكري إلى التأثير اليهودي وتفسيراته المتعسفة لنبوءات
العهد القديم، حيث تدعي إسرائيل قيامها على مزاعم دينية يؤمن بها البروتستانت إيمانًا
أعمى)^(٢).

(١) غياث الأمم في التياث الظلم ص ١٥٣، ١٥٤ تحقيق: د/ فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمي، ط. دار
الدعوة بالإسكندرية ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م.

(٢) تقول الباحثة ريجينا الشريف: (كانت المبادئ البروتستانتية التي وضعتها حركة الإصلاح الديني في
القرن السادس عشر مغايرة تمامًا للمبادئ الكاثوليكية السابقة. وتوصف هذه الحركة بأنها بعث
«عبري» أو «يهودي» تولدت عنه وجهة نظر جديدة عن الماضي والحاضر اليهودي وعن مستقبله =

التعريف بالأناجيل

تعتبر الأناجيل في النصرانية - كما يقرر الشيخ أبو زهرة - بمكانة القطب والعماد، فهي تشتمل على أخبار شخصية المسيح ﷺ من وقت الحمل إلى وقت الصلب في اعتقادهم، وقيامه من قبره بعد ثلاث ليال ثم رفعه بعد أربعين ليلة، كما تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم، والصلب والفداء^(١).

وقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة كما أثبت ذلك مؤرخو النصرانية، (ثم أرادت الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي - أو أوائل القرن الرابع - أن تحافظ على الأناجيل الصادقة - في اعتقادها - فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل إيان ذلك)^(٢).

أما عن طريقة اختيار هذه الأناجيل فلا تخلو من طرافة، حيث يروي التاريخ أن قُسطنطين الأكبر جمع ثلاثمائة من القساوسة فوضعوا الأناجيل تحت طاولة العشاء المقدس، ودعوا الله أن تصعد الأناجيل الصادقة فوق الطاولة، ويبقى الزائف منها فصعدت الأناجيل الأربعة الحالية فوق الطاولة، وأصدر قسطنطين قرارًا باعتبار غيرها زائفة، وأمر بإحراقها وإعدام كل من احتفظ بنسخة منها^(٣).

ويقول موشيم في كتابه «تاريخ الكنيسة»: (لقد كانت هذه الأحكام ظالمة غير معقولة، حتى إن الملك نفسه ندمَ عليها بعد ذلك، فقد أصدر الملك قسطنطين حكمه بإحراق كتب فرقة آريوس في ذلك الموكب ونفيهم من البلاد؛ لكنه بعد بضعة أعوام وفي ٣٣٠م حين قالت أخت الملك وهي على فراش الموت: إن قراره ضد هذه الفرقة كان

= بكل خاص. ص ٢٩ من كتاب «الصهيونية غير اليهودية - جذورها في التاريخ الغربي» ترجمة: أحمد عبد الله عبد العزيز، عالم المعرفة، الكويت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

وفي مجال تطبيق العقيدة على الساحة السياسية صرح الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر أن: (الدولة إسرائيل هي أولاً وقبل كل شيء (دعوة إلى الأرض التوراتية التي أخرج منها اليهود منذ مئات السنين، إن إنشاء دولة إسرائيل هو إنجاز النبوءة التوراتية وجوهرة) نفس المصدر ص ٢٧٥.

(١) محاضرات في النصرانية ص ٤٨/٤٩ ط. الرئاسة للبحوث العلمية بالرياض ١٤٠٤هـ.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٩.

(٣) تاريخ الإنجيل والكنيسة ص ٦٦ لأحمد إدريس، دار حراء بمكة المكرمة ١٩٨٧م.

ظالمًا، وقد أصدره بناء على تعصب أعداء آريوس لا على أساس الصدق والحق ألغى الملك قراره هذا؛ ولكن آريوس كان قد مات قبل أن يصل إليه قرار العفو^(١).

ومها يكن من أمر، فلا ينبغي أن تُنسبنا هذه الأحداث المذهلة الوقوف على الوثائق الأصلية التي اعتمدت عليها الأناجيل، وهل تحمل فعلاً كلمة الرب؟

الإصول المخطوطة وتواريخ تأليفها

يذكر القس سوجارت في مجال الإثبات أنه يوجد ما يقرب من أربعة وعشرين ألف مخطوط يدوي قديم من كلمة الرب من العهد الجديد وحده، وأقدمها يرجع إلى ثلاثمائة وخمسين عامًا بعد الميلاد، والنسخة الأصلية أو المنظورة أو المخطوط الأول لكلمة الرب لا وجود لها^(٢).

ولكن الشيخ أحمد ديدات أثبت أن ذلك ليس دليلًا على أنها من عند الله تعالى، إذ ليس بين هذه المخطوطات -على كثرتها- اثنان متماثلان باعتراف علماء النصارى أنفسهم، فالإنجيل الذي بين أيديهم ليس إنجيل عيسى ﷺ الذي هو من عند الله، وعندما تتفحص هذه الكتب تجد العبارات الآتية المذكورة بنسخة الملك جيمس وهي:

(الإنجيل وفقًا للقديس متى)

(الإنجيل وفقًا للقديس مرقس)

(الإنجيل وفقًا للقديس لوقا)

(الإنجيل وفقًا للقديس يوحنا)

أضف إلى ذلك -كما يذكر رحمة الله الهندي- أنه توجد في زمان تأليف الأناجيل الأربعة روايات وأهية ضعيفة بلا سند، يُعلم منها أيضًا أنه لا سند عندهم لهذه الكتب، معتمدًا على ما أثبتته «هورن» في تفسيره المطبوع سنة ١٨٢٢م بالنص أن (الحالات التي وصلت إلينا في باب زمان تأليف الأناجيل من قدماء مؤرخي الكنيسة أبتُر وغير معنية،

(١) نقلًا عن المصدر السابق.

(٢) المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، بين الشيخ ديدات والقسيس سوجارت ص ١٢١، جمع وترتيب د/أحمد حجازي السقا، وتقديم الشيخ محمد الغزالي، مكتبة زهران بالأزهر، بمصر

لا توصلنا إلى أمر معين ...) ثم أخذ يحدد تواريخ تأليف الأناجيل حسب الاحتمالات، فقد أُلّف الأول سنة ٣٧ أو ٣٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ من الميلاد، والثاني سنة ٥٦ أو ما بعدها إلى سنة ٦٥، والأغلب أنه أُلّف سنة ٦٠ أو سن ٦٣، وأُلّف الإنجيل الثالث سنة ٥٣ أو ٦٣ أو ٦٤، وأُلّف الإنجيل الرابع سنة ٦٨ أو ٦٩ أو ٧٠ أو ٩٧ أو ٩٨ من الميلاد^(١).

(١) كتاب إظهار الحق ج١ ص ١٥٧.

صلة الأناجيل بالتوراة

وقبل الحديث عن الأناجيل الأربعة عند النصارى يحسن بنا أيضاً شرح العلاقة بينها وبين التوراة، وموقف كل من اليهود والنصارى منها، فإن اليهود (يؤمنون بأن العهد القديم أو التوراة وحدها هي كلام الله، ولا يعترفون بالعهد الجديد، أما المسيحيون فيعتبرون العهد القديم كتاب الشريعة، والعهد الجديد عهد الفضل والكفارة)^(١).

وتعليل ذلك أن الأناجيل خلت من الأحكام التشريعية، واعتماداً على الرواية المنسوبة للمسيح ﷺ أنه ما جاء لينقض الناموس - أي شريعة موسى - بل ليكمله، (وباستثناء الأمور التي يرى المسيحيون أن الإنجيل قد نسخها من التوراة؛ فإنهم يؤمنون ببقيتها ويعتبرونها كتاباً مقدساً إلهياً لا غنى عنه في التشريع)^(٢).

أما عن تاريخ التدوين فيذكر كولمان في كتابه «العهد الجديد» أن الإنجيل ظل خلال ثلاثين أو أربعين سنة موجوداً بشكل عام بصور شفوية، وكانت الصياغة الشفوية بتأثير وعظ تلاميذ المسيح ﷺ، ووعاظ آخرين، ثم جمعت هذه الروايات الشفوية وكتببت^(٣).

ويقول الأب كنغسر: لا ينبغي الأخذ حرفياً بالأناجيل، فهي «مكتوبة بالمناسبة» أو «للنضال» أوردتها الكتاب خطياً روايات جماعاتهم عن المسيح^(٤).

ألا يلفت نظرنا تعبيراته عن الكتابة بالمناسبة وللنضال؟ لا شك أنها تُخفي وراءها عوامل نزاعات دينية وخلافات عقائدية؛ إذن لا بدّ لاستكمال حلقات البحث والتمهيد

(١) تاريخ الإنجيل والكنيسة، أحمد إدريس ص ٦١، ط. دار حراء بمكة المكرمة ١٩٨٧م.

(٢) المرجع نفسه: ويورد ابن كمونة اليهودي مضمون عقيدتهم في هذا الصدد، حيث قالوا: نحن مؤمنون بكل ما جاء في التوراة وفي آثار بني إسرائيل التي لا مدفع في صدقها، لشهرتها وعلانيتها في الجماهير العظام، ونؤمن بأنه في أخريات أمرهم وعقائبه تجسمت اللاهوتية وصارت جينياً في بطن عذراء من أشرف نساء بني إسرائيل من نسل داود ... «من كتاب تنقيح الأبحاث للملل الثلاث: اليهودية، المسيحية، الإسلام» لسعد بن منصور بن كمونة اليهودية «القرن السابع الهجري» ط. دار الأنصار بالقاهرة، تقديم د/ عبد العظيم المطعني.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٧٦/٧٧ باختصار.

(٤) المرجع نفسه ص ٧٨.

لفهم واستيعاب نصوص الأناجيل، ومن ضرورة التعريف بالشخصية البارزة في تاريخ المسيحية المبكر، والتي ترتبط بها العقائد والطقوس المسيحية - وهو بولس أو شاول - كذلك ضرورة إلقاء الضوء على المعارضة الشديدة التي لقيها من أتباع المسيح ﷺ والتي لولا الإمام بها لما استطعنا أن نقف على البواعث الحقيقية لكتابة الأناجيل.

أ. كلمة عن بولس

لا بد للباحث في النصرانية من الإحاطة بشخصية «بولس» الذي حول مجرى عقائدها وعبادتها عما جاء به عيسى ﷺ إلى ديانة أخرى مخالفة تمامًا، وصح نسبتها إلى «بولس» بدلًا من نسبتها إلى المسيح ﷺ.

فمن هو بولس أو شاول؟

إنه يعرفنا بنفسه بقوله: (أنا يهودي فريس بن فريس، على رجاء قيامة الأموات) وكان شديد العداء للمسيحيين، فأخذ يعمل فيهم قتلاً، ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن ويسطو على الكنيسة^(١).

وقد تضمن سفر الأعمال صنوفًا من ألوان التعذيب والاضطهاد والتقتيل الذي فعله بالمسيحيين حتى اعترف بنفسه في نصوص كثيرة؛ منها ما جاء في الإصحاح الثاني والعشرين مخاطبًا اليهود: (كنت غيورًا لله، كما أنتم جميعكم اليوم، واضطهدت هذا الطريق حتى الموت، مقيدًا ومسلّمًا إلى السجن رجالًا ونساءً كما يشهد لي أيضًا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذا أخذت منهم رسائل للأخوة إلى دمشق، ذهبت لأتي

(١) المسيحية للدكتور/ شلبي ص ٧٢. وظل اليهود يتحينون الفرص لاختراق الكنيسة عن طريق التحول إلى المسيحية، ولعل من أشهر الحوادث المعبرة عن ذلك هو تحول عائلة بيرليوني في القرن الحادي عشر إلى المسيحية، وخرج منها البابوات «أناسوت» الثاني و«غريغوري السادس» والسابع. ص ٨١ و ص ٤٨ من كتاب «بابوات من حي اليهود» ... وما يُذكر أن غريغوري السابع (وكان يدعى «هلد براند» حينما كان يهوديًا وقبل أن ينتهي به المطاف إلى أن يصبح الخبير الأعظم للنصارى) ... هو أول من أصدر الدعوة لمحاربة «الكفار» المسلمين، وذلك قبل الحملة الصليبية الأولى بجيل كامل) «المسيح الدجال»، سعيد أيوب ص ١٨٤ ط. دار الاعتصام بمصر، سنة ١٩٨٩م.

بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا) (١)

ويعطينا الأستاذ إبراهيم خليل بعض اللمحات المميزة التي تفرق بينه وبين المسيح ﷺ من حيث المباحث الدينية وطرق الدعوة، فقد تميزت طريقة المسيح (بطابع السمو والبساطة حتى يفهما لأول وهلة - الزارع والصانع والمثقف والأمي والرجل والمرأة دون أدنى إجهاد للذهن، وعندما سئل كيف يرث الحياة الأبدية؟ أجاب المسيح ﷺ: إن الدين هو حياة وقوة، وليس مجرد تعاليم الدين هو أن يعيش المرء في إطار أحكام الشرع لا يتعدى أوامر الله ولا يقترف نواهيه) (٢)

أما أسلوب بولس المدعو رسولاً فإنه يعبر عنه في هذا النص: (فإني إذ كنت حرّاً من الجميع استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين، فصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ... إلخ، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء، صرت لكل كل شيء لأخلص على كل حال) (٣)

ويستخلص من تحليله لأقواله وتعاليمه أنه كان متعمقاً في معرفة الفلسفة اليونانية، فكانت سارية في كتاباته، هذه الفلسفة التي لم ترو قط عن المسيح ﷺ (٤)

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إنه أشاع فكرة التمييز العنصري أيضاً، وهي تناقض مبادئ المسيح، وها هو نداء بولس إلى أهل غلاطية: (أطرد الجارية وابنها؛ لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة، إذن أيها الأخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد حرة). فأين هذا من قول المسيح (أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم) (٥)

ويصف لوقا كيف تحول بولس إلى المسيحية فيقول: (وعندما كان بولس قريباً من

(١) نقلاً عن محاضرات في النصرانية ص ٨٨.

(٢) نقلاً عن محاضرات في النصرانية ص ٨٨.

(٣) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن ص ١٢١.

(٤) المرجع نفسه ص ١٢٣.

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٤.

دمشق، فبغتة أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض، وسمع صوتاً قائلاً: شاول، شاول لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي تضطهده. فقال: وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له: قم وكرز بالمسيحية وكان ذلك حوالي سنة ٣٨م.

ويعد هذه الواقعة التي تدعو حقاً إلى التأمل ثم العجب للتغير المفاجئ المذهل في شخص بولس وعقيدته ودعوته تأتي في قصة لوقا جملة ذات بال، وتوصف -بحق كما وصفها الدكتور شلبي- أنها غيّرت وجه التاريخ، وهي (وللوقت جعل يكرز في المجمع بالمسيح أن هذا هو ابن الله) ^(١).

«ولم تكن هذه الفكرة قد عرفت من قبل»

ومنذ ذلك الحين، أخذ يدعو إلى المسيحية بحمية ونشاط، ويستخدم مواهبه من الذكاء وقوى الفكر، والقدرة على التأثير في الجماهير؛ للسيطرة عليهم وانتزاع الثقة به، واستطاع بمواهبه ونشاطه وحركته الدائبة في الدعوة والخطابة والكتابة أن يفرض رأيه على المسيحيين (فيعتنقوه ديناً، ويتخذوا قوله حجة زاعمين أنه رسالة أرسل بها) ^(٢).

أما وجه العجب في تحول بولس من حالة إلى نقيضها، فهذا الذي يجعلنا نشترك فيه رأي الأستاذ أبو زهرة رحمته الله حيث عبر عن ذلك بأسلوبه البليغ، ربما لا يثير العجب؛ لأن له أشباه ونظائر، (بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين إلى الرسالة في الدين الذي كفر به، وناوأه وعاداه، فإن ذلك ليس له مشابه ولم يُعهد ذلك في أنبياء ورسلاً قط، وهذه توراة اليهود وأسفار العهد القديم التي يؤمن بها المسيحيون كما وردها، وكما قالوها، ليذكروا لنا رسولاً بعث من غير أن يكون في حياته الأولى استعداد لتلقي الوحي، وصفاء نفس يجعله أهلاً للإلهام؟ ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته، وأنه إذا لم يكن للرسالة إرهاصات قبل تلقيها، لا يكون على الأقل قبلها ما ينافيها ويناقضها، ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب في

(١) المسيحية للدكتور شلبي ص ٥٣.

(٢) محاضرات في النصرانية ص ٩٠.

عصره، وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده، وأن يحملهم على نسيان العقل عندما يدرسون أقواله وآراءه وتعاليمه^(١).

ب- النزاعات الدينية

يوجهنا موريس بوكاي إلى أهم نزاع حدث بين أتباع المسيح ﷺ منذ رفعه وحتى منتصف القرن الثاني، حيث حدثت معركة بين اتجاهين؛ أي بين ما يمكن أن يسميه المسيحية البولسية «اليهودية-المسيحية»، ويقصد بالأولى المسيحية من وضع بولس، والثانية المسيحية كمذهب يهودي، حيث أخذت الأولى-بكثير من التدرج- مكانة الثانية وانتصرت عليها.

ويحدثنا التاريخ بأن «جماعة الرسل الصغيرة»، التي كانت تشكل مذهباً يهودياً أميناً على الممارسات، ومراسم المعبد، هذه الجماعة انفصلت عن بولس تماماً، تصادمت معه بما يعرف بـ «حادثة إنطاكية ٤٩» (فقد أسقط بولس الختان، والسبت، ومراسم المعبد بالنسبة إلى اليهود، وقد كان على المسيحية أن تتحرر من انتباهها السياسي الديني إلى اليهودية لتتفتح على الوثنيين)^(٢).

وانتهى الأمر بهذه الجماعة من اليهود والمسيحيين إلى اعتبار بولس خائناً، ولديهم وثائق تصفه «بالعدو» وتتهمه «بالازدواجية المداهنة» وكان رئيس الجماعة إذ ذاك يعقوب قريب المسيح وأخذت أسرة المسيح مكانة عظمى في كنيسة القدس «اليهودية-المسيحية» (وخلف يعقوب سيكون سمعان بن كليوفاس ابن خالة المسيح)^(٣).

وكانت رسالة «اليهودية-المسيحية» طيلة القرن الأول منتشرة في كل مكان؛ أي على الساحل السوري الفلسطيني من غزة حتى أنطاكية، وفي آسيا الصغرى كذلك، وكانت روما أيضاً مركزاً مهماً لهم.

(١) محاضرات في النصرانية ص ٩٠.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص ٧٠/٧١ باختصار، ترجمة الشيخ حسن خالد ط. المكتب الإسلامي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٣) المرجع نفسه ص ٧١.

ويستخلص موريس بوكاي من الوقائع التاريخية والنزاع بين الطائفتين مغزى مهمًا، حيث يتضح أن النصوص التي بين أيدينا اليوم بدأت بعد كثير من تعديلات المصادر حوالي سنة ٧٠م؛ أي في العصر الذي كانت فيه الطائفتان المتنافستان في ألد الخصام، ولما كان «اليهود المسيحيون» هم المسيطرون حتى ٧٠م، ثم ضعفوا بعد ذلك وقل نفوذهم - فإن ذلك يفسر لنا كيف ظهرت الأناجيل الأربعة فيما بين هذا العام - وقبيل ١١٠م - ويرى الأب كتنغر بأنه لو لم يكن جو الخصومة المثارة من انقسام الفكر البولسي لما وصلت إلينا هذه الكتابات التي بين أيدينا اليوم؛ كتابات القتال هذه^(١).

برزت هذه الكثرة من الكتابات التي ظهرت عن المسيح، عندما كانت المسيحية ذات الأسلوب البولسي بعد أن انتصرت نهائيًا قد كونت مجموعة نصوصها الرسمية «القانون» الذي أبعد كل الوثائق الأخرى التي لا تتفق مع الخط المختار من الكنيسة^(٢).

ويزيدنا الدكتور أحمد شلبي إيضاحًا عن حركة الاضطهاد الموجهة إلى المسيحيين الأصليين أتباع عيسى عليه السلام فيذكر أن المسيحية التي خرجت ظافرة لم تكن مسيحية عيسى بل مسيحية بولس؛ ومسيحية الفلسفة الإغريقية، (ولما كانت هذه المسيحية قد ابتدعت أشياء لا يرضى بها المسيحيون الأصليون كألوهية المسيح والتثليث وغيرهما فقد بدأ صراع جديد اعتبر فيه المسيحيون الأصليون متمردين وأوقعت بهم المسيحية الإغريقية أو مسيحية بولس ألوانًا من العنت والاضطهاد)^(٣).

وبعد فإذا كانت هذه هي العوامل التي أحاطت تاريخيًا بكتابة الأناجيل فإن محاولات التنقيح ما زالت قائمة على قدم وساق، حيث هناك (ادعاءات كثيرة لتناقضات في الكتاب المقدس لم يستطع العلماء حلها حتى الآن، وفيها ما يسر كل كافر ملحد، فهناك بعض الصعوبات النصية التي ما زال العلماء يتصارعون معها إلى يومنا هذا، ولا ينكر هذه الحقيقة إلا من كان جاهلًا بالكتاب المقدس)^(٤)، هذا ولعل التعريف بنسخة الملك جيمس تقرب إلينا فهم هذه المحاولات.

(١) المرجع نفسه ص ٧٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣.

(٣) مقارنة الأديان - ٢ - المسيحية للدكتور أحمد شلبي، ص ٥٠، ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ م.

(٤) الحقيقة المجردة، يوليو ١٩٧٥ م نقلًا عن «هل الكتاب المقدس كلام الله؟» ص ٧٧.

كتاب طائفة البروتستانت

نسخة الملك جيمس

وصفت هذه النسخة بأنها (أنبل إنجاز في النثر الإنجليزي، فمراجعوها عام ١٨٨١م أعجبوا ببساطتها، وسموها بقوتها و نغماتها المرحية ... وإيقاعها الموسيقي وتعبيراتها اللبقة، فقد دخلت في تكوين خصائص المؤسسات الحكومية في الدول المتحدثة باللغة الإنجليزية)^(١).

ومع هذا فإن علماء اللاهوت الذين راجعوها وساعدتهم في إخراجها هيئة استشارية تمثل خمسين طائفة دينية هم أنفسهم قرروا (أن نصوص الملك جيمس بها عيوب خطيرة جداً، وإن هذه العيوب والأخطاء عديدة وخطيرة مما يستوجب التنقيح في الترجمة الإنجليزية)^(٢).

مع العلم بأن هذه النسخة أقرها البروتستانت بعد حذف سبعة كتب من أصل كتاب الرومان الكاثوليك، باعتبارها كتب مشكوك في صحتها وسمونها «الأبو كريفا» Apocrypha.

ويذكر القسيس سوجارت سبب الاستبعاد بأن البروتستانت يؤمنون بأن الأسفار المستبعدة ليست وحيًا فيقول: (وهناك بعض الأسفار، تعرف «بأبو كريفا» وهي لم توضع مع أناجيل البروتستانت؛ ولكن الكاثوليك يضعونها مع أناجيلهم لأسباب خاصة بهم، والسبب الذي يجعلنا لا نضم هذه الأسفار إلى الإنجيل هو ببساطة: أننا نؤمن بأنها ليست وحيًا، وعندما تقوم بفحصها تجد أمامك أسبابًا كثيرة تكفي لإظهار أنها ليست وحيًا)^(٣).

وعندما نهض الشيخ أحمد ديدات ليبدلي بدلوه في المناظرة ألقى الضوء على كلمة

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ للداعية أحمد ديدات ص ١٩، ترجمة نورة أحمد النومان، مكتبة أبو القاسم، جدة.

(٢) المرجع نفس ص ٢٠، أما نسخة الكنيسة الكاثوليكية من الإنجيل فهي نسخة «وي أوليز» والمقصود بنسخة الملك جيمس تلك التي أهداها البطريرك «كيرلس لوكا» بطريرك القسطنطينية إلى الملك جيمس الأول «١٦٠٣/١٦٢٥م».

(٣) المناظرة الحديثة ص ١٢١.

«أبو كريفا» واعتبرها من المصطلحات الفنية التي يستخدمها القساوسة بينما لا تعرف الجماهير المسيحية معناها! (ومعناها: مشكوك في أمره «ضعيف» ليس أهلاً لأن يوضع في كتاب الله؛ ولهذا السبب استبعدها البروتستانت واعتبروها تلفيقاً)^(١).

ثم أشار إلى نسخة إنجيل الملك جيمس باعتبارها النسخة المعتمدة وتساءل: (معتمدة بمن؟ ليس من الله تعالى... معتمدة من الملك جيمس... إنه هو الذي اعتمدها، وليس الله تعالى)^(٢).

إنجيل متى

يصف بوكاي هذا الإنجيل بقوله: (يشغل إنجيل متى المكانة الأولى بين الأناجيل الأربعة في ترتيب تقديم كتب العهد الجديد، وهذا مثبت تماماً؛ لأن هذا الإنجيل في صورة ما ليس إلا امتداداً للعهد القديم إنه قد كتب ليعرف بأن عيسى عليه السلام يكمل تاريخ بني إسرائيل)^(٣).

لذلك فقد كتب متى إنجيله بالعبرانية ليشر اليهود بالمسيحية، أما عن تاريخ كتابته ومدى صحة نسبه إلى متى فإن بعض العلماء والنقاد (يميلون إلى القول بأن هذا الإنجيل من تأليف متى... وأكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامي ٨٥، ٩٠)^(٤).

وحول ما يدور من علامات استفهام حول تاريخ تدوينه وترجمته ومعلوماتنا عن شخصية المترجم، وغير ذلك من بيانات ضرورية؛ لتوثيق نصوصه يقرر الشيخ أبو زهرة

(١) نفس المصدر ص ١٣١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٢.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص ٨٠، ترجمة الشيخ حسن خالد، المكتب الإسلامي ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٤) محمد عليه السلام في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد عليه السلام ١٣٤، ويذكر أن متى يعتمد على المعجزات التي تعزى إلى المسيح، ويحرص حرصاً شديداً -يدعو إلى الريبة- على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات العهد القديم قد تحققت في شخص المسيح عليه السلام.

أن كل هذا يؤدي إلى فقد حلقات في البحث العلمي^(١).

كذلك يقرر الكاهن «جيمس كلسي» أن (التعاليم القديمة تعزو هذا الإنجيل إلى الحواري متى، هذا ما يقوله الناس؛ لكن العلماء في عصرنا الحاضر يرفض معظمهم وجهة النظر هذه)^(٢).

وربما يعتمد في ذلك على ما يراه بعض الباحثين المسيحيين (أن الجزء الذي ألفه متى الحواري ضاع في زمانه، وأن ما بين أيدينا الآن ما يصرح مؤلفه فيه باسمه)^(٣).

لذلك يتساءل الأستاذ أحمد ديدات متعجباً (فإذا لم ينسب هذا الكتاب «بشارة متى» إلى الحواري متى، فكيف نقله كلام الله؟) وهو يستند في نفي نسبة الكتاب إلى متى إلى رأي الأستاذ فيليبس وهو عالم اللاهوت بالكنيسة الإنجليزية الذي يقول: (لقد اعتمد الكاتب على بال Q هنا كلمة الغامضة التي ربما كانت مجموعة من التراث الشفهي) ويعني الـ Q هنا كلمة Quelle بالألمانية وتعني مصادر)^(٤).

إنجيل مرقس

ومن الثابت تاريخياً أن مرقس لم ير المسيح ﷺ، يقول عبد الله الترجمان: (وأما مرقس فما رأى أيضاً عيسى ﷺ، قط، وكان دخوله في دين النصارى كذلك بعد رفع

(١) محاضرات في النصرانية ص ٥٤.

ويذكر رحمة الله الهندي أن القدماء المسيحيين كافةً وغير المحصورين من المتأخرين على أن إنجيل متى كان باللسان العبراني وفقد بسبب تحريف الفرق المسيحية، والموجود الآن ترجمته.. وجاء في انسكلوبيديا بوبي (كتب هذا الإنجيل في السنة الحادية والأربعين باللسان العبراني أو باللسان الذي ما بين الكلداني والسرياني، لكن الموجود منه الترجمة اليونانية، والذي يوجد الآن باللسان العبراني فهي ترجمة الترجمة اليونانية). كتاب «إظهار الحق» ج ١ ص ١٥١.

(٢) المناظرة الحديثة ص ١٥٥ أي بمعنى آخر: أن القديس متى لم يكتب البشارة التي تحمل اسمه، ص ٤٦، هل الكتاب المقدس كلام الله؟

(٣) تاريخ الإنجيل والكنيسة، أحمد إدريس ص ٦٩.

(٤) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات ص ٤٦.

وترجمها العقاد بمعنى الأصل، «عبقرية المسيح ص ١٥٩» ط. كتاب اليوم بمصر سنة ١٩٩١ م

عيسى وتنصر علي يد «بترو» أي بطرس الحواري^(١)؟

واختلف الباحثون حول الإنجيل المنسوب إليه، فمن قائل إن كاتبه هو «بطرس» رئيس الحواريين عن مرقص في مدينة رومية ونسبه إلى مرقص، ومن قائل إن مرقص ما كتب إنجيله إلا بعد وفاة بطرس وبولس^(٢)، (وليس بين أيدينا ما نرجح به إحدى الروايتين عن الأخرى فمن الذي كتبه؟)

ولم يقف التساؤل عند هذا الحد، بل تداعى إلى غيره، حيث ظهر أمام الدراسة النقدية لمضمون إنجيل مرقص سؤال آخر عن مصادره التي نقل عنها، فقد اعتبر الكتاب المحدثون أن القسم الأخير منه عملاً مضافاً، يقول كولمان: (إن مخطوطات يونانية أكثر حداثة وبعض نصوص أضافت إلى هذا القسم خلاصة رؤى ليس لمرقص، بل هي مأخوذة من أناجيل أخرى).

ويرى الأب كينغ وهو عالم كبير في اللاهوت إنه بعد انتشار الكتابات المتقاربة لمتى ولوقا ويوحنا خلص العلماء إلى نتيجة مهمة عن مرقص، وهي أنه يأخذ المواد من يمين وشمال لدى الإنجيليين الآخرين، ويتضح من ذلك مدى الحرية التي كان يمارس بها الأسلوب الأدبي للسرد الإنجيلي حتى بداية القرن الثاني.

وعندئذ يعلق موريس بوكاي على هذه النتيجة بقوله في صيغة تعجب: (فيا له من اعتراف لا عوج فيه عن وجود الممارسة البشرية في نصوص الكتابات المقدسة تقدمه لنا هذه الأفكار من عالم كبير في اللاهوت)^(٣).

إنجيل لوقا

نذكر أولاً ما اتفق عليه المؤرخون عن واقعة ثابتة تحقق منها العلماء المحدثون أيضاً، وهي أن لوقا (لم يدرك عيسى عليه السلام ولا رآه أبداً إنما تنصر بعد رفع عيسى، وكان ممن

(١) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، ص ٦٦ عبد الله الترجمان «القس انسلم كورميدا» تقديم وتحقيق وتعليق د/ محمود علي حمادة، ط. دار المعارف ١٩٨٤م.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص ٨٦.

(٣) المرجع نفسه ص ٨٧.

تنصر على يد بولس الإسرائيلي، وبولس لم يدرك عيسى ولا رآه، وكان أكبر أعداء النصارى^(١)، ويذكر الشيخ أبو زهرة أن الباحثين متفقون على أنه من تلاميذ بولس ورفقائه، ولم يكن من تلاميذ المسيح ولا من تلاميذ حواريه^(٢).

أما عن وصف إنجيله، فنجد أنفسنا أيضًا حيال عدة احتمالات وافتراسات تكاد تتساوى مع بعضها البعض، فيتعذر على الباحثين المدققين الاختيار بينها إلا بصعوبة بالغة، حيث يتوالى ظهور مشكلات أخرى بغير حل كما سنرى: فقد اختلف الباحثون في مكان مولده، وهل هو أنطاكي أم روماني؟ وهل اشتغل بمهنة الطب أم كان مصورًا؟

ويدعونا الاختلاف حول مهنته بالذات إلى التوقف لمناقشة من يرجح امتهانه لصناعة الطب؛ (لأن هذه المهنة لها قيمتها الخاصة؛ لأنها تلقي على حياة لوقا نورًا ساطعًا، فترينا إياه الرجل العلمي المدقق المحقق الرقيق الأسلوب الجميل الديباجة؛ لأن الرومان لم يسمحوا في وقتهم لأحد أن يتعاطى مهنة الطب، إلا لمن جاز امتحانات عدة على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطورة)^(٣).

ولكن موريس بوكاي لم يأخذ بهذا الرأي الذي يشير أيضًا إلى أن (الكثيرين قد تأكدوا من المهنة الطبية لكاتب الإنجيل من دقة وصفه للمرضى)، ويرى أن هذا التقدير مُبالغ فيه؛ ولأن لوقا لم يعط وصفات من هذا النوع بالذات، والمفردات التي يستعملها هي ذاتها التي يستعملها كل إنسان مثقف في زمانه^(٤).

وبمراجعة الأسطر الأولى من إنجيل لوقا يتضح أنه يروي عن آخرين، بينما لم يكن هو من الشهود المعانين، فقد قال ما يأتي:

(١) إذ كان كثيرون قد أخذوا في ترتيب قصص الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا معانين منذ البدء وخادمين للكلمة رأيت أنا أيضًا بعد أن أدركت جميع

(١) تحفة الأريب ص ٦٤/٦٥.

(٢) محاضرات في النصرانية ص ٥٨/٥٩.

(٣) محاضرات في النصرانية ص ٥٨.

(٤) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٨٨.

الأشياء من الأول بتدقيق أن أكتبها لك بحسب ترتيبها أيها العزيز تاوفيلس؛ لتعرف صحة الكلام الذي وعظت به»^(١).

لهذا كان لوقا في نظر كولمان مؤرخ، وفي نظر الأب كنتنغر «قصاص بارع»^(٢).

ونظرًا لأن لوقا كان وثنيًا اهتدى إلى المسيحية، فقد أشار كولمان في دراسته إلى تجاهله الآيات الأكثر يهودية لدى «مرقس»، وإبرازه لكلمات عيسى ﷺ ضد كفر اليهود، في حين كان «متى» يجعل المسيح يطلب من الرسل البعد عنهم. ويعلق موريس بوكاي على ذلك بقوله: (وهذا مثل رهيب من كثير، يوضح لنا أن الإنجليين كانوا يقولون المسيح ما يناسب رؤاهم الشخصية، فيقدموا لنا -بحسن نية أكيدة وبقناعة شخصية من كلمات المسيح- النص الذي يتفق مع وجهة نظر الطائفة التي يتمون إليها)^(٣).

وبالمقارنة بين سلسلة نسب المسيح ﷺ عند لوقا ومتى، تبرز إحدى أبرز التناقضات في الكتاب المقدس، فيقول الأستاذ ديدات: (من بين داود وعيسى أوصى الله لمتى بتسجيل ستة وعشرين سلفًا فقط لابنه؛ ولكن لوقا الملهم أيضًا سجل واحدًا وأربعين سلفًا لعيسى)^(٤).

إنجيل يوحنا

يصف الأستاذ أبو زهرة بقوله: (لهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره في نظر الباحث؛ لأنه الإنجيل تضمنت فقراته ذكرًا صريحًا لألوهية المسيح ﷺ)^(٥).

(١) إنجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس لوقا «الفصل الأول» نقلًا عن كتاب «هل الكتاب المقدس كلام الله؟» لأحد ديدات ص ٨٣.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص ٨٧، وثاوفيلي هذا كما وصفه ابن البطريق رجل من عظماء الروم. وهناك من يقول: إنه كان مصريًا لا يونانيًا «محاضرات في النصرانية» ص ٥٩.

(٣) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص ٧٥.

(٤) المرجع نفسه ص ٨٨ ويقول: (وفي المقابلة بين السلوك العام لكل من إنجيل لوقا وإنجيل متى كان الدليل على ذلك).

(٥) محاضرات في النصرانية ص ٦٠.

وكان الرأي المعتمد في العصور الماضية هو اعتبار يوحنا ابن خالة عيسى عليه السلام ويزعم النصارى أن عيسى حضر في عرس يوحنا، وأنه حول الماء خمراً في ذلك العرس، وهذه أول معجزة ظهرت لعيسى، وأن يوحناً لما رأى ذلك ترك زوجته، وتبع عيسى على دينه وسياحته^(١).

ولكن لم يعد هذا الرأي مسلماً به في العصر الحديث بعد إجراء التحقيقات والدراسات في الكتب المقدسة، حيث صححت كثيراً من المعلومات الخاطئة السابقة وبدأ البعض يسأل (من هو الكاتب؟ إنه سؤال موضوع جدل؛ إذ الآراء تختلف كثيراً في هذا الموضوع)^(٢).

وتأتينا الإجابة على لسان الأستاذ موريس فوردن ناظر مدرسة العلوم العليا في باريس والمدرس في القسم الديني بها، وقد صدق على شهادته خمسمائة عالم في جمعية المعارف دار المعارف الكبرى بباريس.

قال الأستاذ موريس: (وأما عن إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك أنه كتاب مزور أراد صاحبه أن يضاد الحواريين متى ويوحنا، وأدعى أن هذا الكتاب المزور هو للحواري يوحناً الصياد الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين ما نسبت إليه...)^(٣).

(١) تحفة الأريب في الرد على الصليب، عبد الله الترجمان ص ٦٦.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٩٠.

(٣) محمد عليه السلام نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٧٢، المستشار محمد عزت الطهطاوي، مكتبة النور بمصر الجديدة ١٩٨٦ م، كذلك أبدى شكه في صحة نسبة الأناجيل الثلاثة الأولى حتى مرقس ولوقا إلى من نسبت إليهم من الحواريين لدرجة تعادل الرفض تماماً.

وقد عرض رحمة الله الهندي لحجج المنكرين لتصنيف يوحنا لهذا الإنجيل، ومن أهمها أن أرينيوس «وهو تلميذ بوليكارب الذي هو تلميذ يوحنا الحواري» ما قال في مقابلة المنكرين (إني سمعت من بوليكارب أن هذا الإنجيل من تصنيف يوحنا الحواري) كتاب «إظهار الحق» ج ١/١٥٤/١٥٥.

ويرى الأستاذ محمد تقي العثماني بعد مراجعة مستفيضة لأراء العلماء ونتائج بحوثهم في مضمون هذا الإنجيل والملاسات الدائرة حوله، يرى أن المحرر هو أحد تلاميذ بولس (وزاد إليها من جاء بعده جملاً وعبارات كشفت عن كون المؤلف شاهد عيان لسيدنا المسيح ﷺ) (١).

إنجيل برنابا «أحد الأناجيل غير المعترف بها»

قبل الحديث عن إنجيل «برنابا»، فإننا نحب توضيح موقفنا منه أولاً؟ فلسنا حريصين على الاسترشاد به لإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ، فلنا أدلتنا الكافية بذاتها، كذلك ندفع الزعم بأنه من تأليف المسلمين (٢)؛ لأنه ليس من عقائدنا ولا من مبادئنا اتباع طريقة «الغاية تبرر الوسيلة»، وإزاء ذلك فإن الإقرار بصحة هذا الإنجيل أو استبعاده لدينا سواء.

إن الحديث إذن عن إنجيل برنابا أدنى لقضية الخلاف العقائدي بينه وبين بولس، إذ يبدو من نصوصه أنه تحمله كثيراً، ثم أعلن على الملأ أوجه الخلاف بعد أن طفح الكيل ولم يعد يحتمل الصبر عليه، وضمن ذلك صدر إنجيله، فقال تحت عنوان: (الإنجيل الصحيح ليسوع المسمى بالمسيح.. نبي جديد مرسل من الله إلى العالم بحسب رواية برنابا رسوله). ثم يصف نفسه بأنه رسول يسوع الناصري المسمى المسيح... إلخ، فلماذا استُبعد هذا الإنجيل ولم يعترف به؟

(١) ماهي النصرانية؟ ص ١٥٣.

(٢) يقول الأستاذ محمد عبد الرحمن عوض (لو أُلّف هذا الكتاب شخص ما ... مسلم أو غير مسلم لنسخه أعداء المسيحية وروجوا له واستدلوا به، وهو ما لم يحدث؛ بل ظل في طي الكتمان حتى ظهر مترجماً إلى الإيطالية ثم إلى الإنجليزية والإسبانية وأخيراً إلى العربية) ص ٥٥ من كتابه: الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة. دار البشير بالقاهرة ١٩٨٦م، مع العلم بأن القرار بتحريم إنجيل برنابا صادر ٤٩٥م؛ أي قبل البعثة المحمدية، ص ٤٧.

العوامل الحقيقية وراء استبعاد

إنجيل برنابا

لنعد مرة أخرى للإمام بأجواء النزاعات التي ظهرت فيها الأناجيل، حيث ظهر الصراع بين طائفتي المسيحيين الأصليين أتباع المسيح ﷺ والمسيحيين البولسيين أتباع بولس.

وفي ذلك الوقت كان «برنابا» من أوائل الذين عرفوا حقيقة «بولس»؛ ففضح نواياه، وأذاع على الملأ خبايا عقيدته الباطلة التي دسّها على المسيحيين دسًا، ثم ظهرت كتابات برنابا؛ لتكشف القناع عن المشادة التي حدثت بينهما في قوله: (أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنيه يسوع المسيح، برحمته العظيمة للتعليم، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة؛ لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً، مجوزين أكل لحم نجس الذي ضل في عدادهم بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى)^(١).

ويمضي في حديثه محذراً من اتباع بولس، ومؤكداً مخالفته لتعاليم يسوع ﷺ، لأنه عاشه بنفسه وعرف تعاليمه فيقول: (وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي يسوع؛ لكي تخلصوا، ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحد يشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً)^(٢).

ويصبح استبعاد إنجيل برنابا مفهوماً في ضوء انتصار المسيحية البولسية على المسيحية اليهودية، ولصيغاً يبحث مضامينه العقائدية المخالفة لعقائد النصارى الحالية، ولما كان من المستحيل التوفيق بين النقيضين، فما أسهل استبعاده!

أجل هذه هي القضية، وكان إنجيل برنابا (أكثر اتساقاً في عرضه لحقيقة الألوهية مع شريعة موسى وما جاءت به التوراة، وكان برنابا شاهد صدق على أن عيسى ابن مريم

(١) مقدمة إنجيل برنابا، نقلاً عن «محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن»، إبراهيم خليل أحمد ص ٩٣.

(٢) إنجيل برنابا ١: ٢-٩ نقلاً عن: «ما هي النصرانية؟» محمد تقى العثماني ص ٢٠٢.

جاء متممًا للناموس وليس ناقصًا له) (١)؛

ومهما يكن من أمر، فإننا كما قلنا من قبل لسنا في حاجة -كمسلمين- إلى الاسترشاد بهذا الإنجيل، كل ما هنالك أننا نبغي إيضاح ما يستخلصه كل باحث بالمقارنة بينه وبين الأناجيل الأخرى، فإذا اتبع في تقويم مضمونه موازين التوثيق للكتاب المقدس (فإن إنجيل برنابا في ضوءها يأتي موثوقًا به) (٢)؛

ومن أجل معرفة الحق والدعوة إليه، نضم صوتنا إلى صوت الإمام محمد أبو زهرة، فإنه (من أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية أن تعني الكنيسة بدراسته ونقصه، وتأتي لنا بالبيانات الدالة على هذا النقص، وتوازن بين ما جاء في رسائل بولس؛ ليعرف القارئ والباحث أيها أهدي سبيلًا، وأقرب إلى الحق وأوثق به اتصالًا) (٣)؛

تحقيب

وبعد هذا العرض الموجز للأناجيل، والإحاطة بملاسات تدوينها والتعريف بكتابتها، أصبحنا أمام خطوة تالية يقتضيها منهج بحث علم الأديان المقارن، وذلك على ضوء الاتفاق على مبادئ أساسية تحدد الأركان اللازم توافرها في أي كتاب سماوي، من حيث التثبت من مصدره، وتوافر ضمان النقل بسلاسل إسناد موثوق بها ومتصلة.

ولنتفق أولاً على الأركان اللازمة للإقرار بصحة هذا الكتاب، فإن (أي كتاب سماوي يستحق أن نخضع له والامثال لأحكامه لا يكفي في إسناده إلى شخص ذي إلهام مجرد الظن والوهم؛ بل أن يثبت ذلك الكتاب أنه من الله ﷻ أولاً، وأنه هو الذي أنزله على النبي الفلاني ثانياً، وهذا الثبوت يكون بسند متصل في جميع طبقاته متواتر في عامة مراتبه؛ أي رواه أناس كثيرون يؤمن تواطؤهم على افتراء الكذب، فلا يكون هناك تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقصان) (٤)؛

(١) اختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، محمد عبد الرحمن عوض ص ١١٨.

(٢) ما هي النصرانية؟ ص ٢٥٨.

(٣) محاضرات في النصرانية ص ٨١. وينظر أيضًا كتاب «ما هي النصرانية؟» لمؤلفه محمد تقي العثماني

الذي عدّد فيه أمورًا أربعة تنفي كون إنجيل برنابا من تأليف رجل مسلم «ص ٢٤٢-٢٤٦».

(٤) محمد ﷺ في الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن، المستشار محمد عزت الطهطاوي ص ٦٤.

وعلى ضوء ذلك نعفي أنفسنا من الخوض ثانية في الحديث عن سلاسل الإسناد بعد ما عرضناه آنفاً، إذ لم يسلم إنجيل من الأناجيل الأربعة من أوجه الطعن والتشكيك والاتهام للكتاب مما نقلناه عن علماء النصراني أنفسهم^(١)، غير أنه لا يصح الانتقال إلى نقد المضمون، إلا بعد إثبات تقريرين صريحين:

أولهما: إثبات التحريف نصاً على لسان بطرس في رسالته الثانية حيث قال: (إن الرسائل كلها منها أشياء عسرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين كباقي الكتب أيضاً)^(٢).

والثاني: مبررات التحريف نفسها، أي: الجذور النفسية والأخلاقية لأعمال التحريف، إذ ربما هان الأمر لو كان استثناء، أما استناده إلى فلسفة ثابتة فهذه هي الطامة الحق. يقول أحد المؤرخين: (كان بين متبعي رأي أفلاطون وفيثاغورس مقولة مشهورة هي أن الكذب والخداع لأجل أن يزداد الصدق وعبادة الله ليسا بجائزين فقط، بل قابلان للتحسين، وتعلم هذا الكلام منهم يهود مصر قبل المسيح، ويظهر ذلك جلياً في كثير من كتب اليهود القديمة، ثم أثر وباء هذا الخطأ السيئ في المسيحيين، كما يظهر هذا الأمر بجلاء من الكتب التي نسبت إلى الكبار كذبتاً)^(٣).

نقد المضمون

إن المسلمين والنصارى متفقون - كما يذكر الأستاذ أحمد ديدات - على أن وحي الله

(١) قال علي بن ربن الطبري «وكان نصرانياً فأسلم»: على أن من أدى تلك الأخبار إليكم لم يك فيهم أحد ادعى أنه أخذها من شاهد المسيح أو موسى ﷺ من آباءه وأجداده، كما تدعي العرب عن آباؤها وأجدادها الذين شاهدوا النبي ﷺ، فإن الرجل منهم يحدّثه - عن جده أو جد جده أو بعض - بما رأى.

(٢) محمد ﷺ ص ٦٦، وأداه إلى أعقابه «الدين والدولة ص ٢٠٤» ويستطرد قائلاً (فأما أخباركم فإنها أداها إليكم عراقي عن جزري عن شامي وشامي عن عبراني وفارسي عن رومي ومشرقي عن مغربي، بأسباب مظلمة متفاوتة، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

(٣) برشليم المؤرخ في بيان علماء القرن الثاني، ص ٦٥ المجلد الأول من تاريخه المطبوع ١٨٣٢م، نقلاً عن المصدر السابق ص ٦٦.

تعالى لا بد أن يخدم واحداً من هذه الأغراض الأربعة:

١- إما أن يعلمنا المبادئ والعقائد.

٢- أو يلومنا على خطأ ارتكبناه.

٣- أو يقدم لنا الصواب.

٤- أو يهدينا إلى الصلاح^(١).

وقد أخذ الأستاذ ديدات يفحص الكتاب المقدس وفق هذه الأغراض؛ فأذهله العثور على نماذج تبعث على الخجل والاستياء مما تضمنته من رواية قصص عن زنا المحارم، بل إن نبوءة «حزقيال» تتضمن تفاصيل جنسية تخجل منها الكتب الجنسية الممنوعة^(٢).

ومما يلاحظ في سلوك الأطفال أن هذه القصص أثمرت تغييرات راسخة في نفوسهم -بناء على التجارب التي أجراها الدكتور فيرنون جونز- عالم النفس الأمريكي المشهور، فلا بأس إذن من انتشار حوادث الاغتصاب وجرائم القتل وزنا المحارم التي تسجلها الجرائد اليومية، بل ليس (من العجيب إذن أن يقيم الرومان الكاثوليك والميثوديون «إحدى الطوائف النصرانية» أعراساً بين اللوطيين في بيوت ربهم، حتى قام ثمانية آلاف لوطي بمسيرة استعراضية في حديقة هايد بارك بلندن يوليو ١٩٧٩م مصاحباً

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات ص ٦٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٧١. وقد ذكر الأستاذ ديدات أثناء مناظرته للقس سوجارت أن هيئة الرقابة بحكومة جنوب أفريقيا قد أصدرت أمراً بحظر تداول بضعة صفحات من الكتاب المقدس، دون أن تدري أنه جزء من سفر حزقيال من الإصحاح الثالث والعشرين «من كتاب المناظرة الحديثة ص ١٥٠». ويحكي العقاد عن إحدى القصص الجنسية الفاضحة التي رفضت الرقابة الأمريكية نشرها بحجة إفساد الأخلاقيات العامة، فاحتكم المحامي إلى الكتاب المقدس الذي يحتوي على قصص فاضحة ومخجلة ومهينة للإنسان، فكيف تضعون مثل هذا الكتاب في أيدي الأطفال والفتيان؟! بينما هذه رواية وليست كتاباً مقدساً، ولا يمكن أن تكون منتشرة مثل الكتاب المقدس، فيما أن تفرجوا عن هذه الرواية وإما أن تصادروا الكتاب المقدس، وأفرجت المحكمة عن الرواية. ص ١١١-١١٢ من كتاب «في صالون العقاد كانت لنا أيام» أنيس منصور، ط. دار الشروق ١٤٠٣هـ-١٩٨٣.

بتشجيع وهتافات وسائل الإعلام^(١).

هذه هي ثمرة بعض نصوص الكتاب المقدس، ثم لتعقد مقارنة جزئية بثمرة تعاليم القرآن، الذي جاء مؤيداً للحق بالكتب السابقة ومهيئاً عليها، فمن أقوال عيسى عليه السلام: (كل شجرة طيبة تطرح ثمرة طيبة، وكل شجرة خبيثة تطرح ثمرة خبيثة)، أجل (هذا هو المحك، المحك الثمرة، لقد أوجد الإسلام أكبر مجتمع في العالم لا يتعاطى المسكرات، يوجد حوالي ألف مليون مسلم في العالم وهم في عمومهم لا يعاقرون المسكرات ولا يشربون الخمر، هذه هي الثمرة)^(٢).

ويرجع ذلك إلى تحريم القرآن الكريم للخمر: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

ولتقارن ذلك بما يحدث بالأمة الأمريكية، حيث يوجد -حسب قول سوجارت- أحد عشر مليون سكير، وأربعة وأربعون مليوناً من مدمني الخمر، هذه هي أمتكم والأخ سوجارت لا يجد اختلافاً بين الخمسة والخمسين مليوناً؟ هو يعتبرهم مدمني خور، أما في الإسلام فلا شرب خمر، حتى على سبيل المجاملات الاجتماعية^(٣).

ومن إجابات الدكتور محمد على البار عن أسئلة حول أسباب انتشار مرض الإيدز، علَّله بانتشار الشذوذ الجنسي في الولايات المتحدة، إذ يوجد أكثر من عشرين مليون شخص، ولهم جمعيات خاصة وكنائس خاصة تزوج الرجال بالرجال!!

كذلك لا بد من ملاحظة انتشار الفاحشة هناك بدرجة مذهلة مستنداً إلى مثال من صحيفة «هيرالد تريبيون» التي ذكرت في عددها بتاريخ ٢٩/٦/١٩٧٩م أن عشرة بالمائة

(١) المرجع نفسه ص ٦٨ واستشهد بقول برناردشو ص ٧٠: (الكتاب المقدس من أخطر الكتب الموجودة على وجه الأرض، احفظوه في خزانة مغلقة بالمفتاح).

(٢) المناظرة الحديثة ص ١٧٥. كذلك أثبت نصاً من مجلة الحقيقة المجردة، أكتوبر ١٩٧٧: (إن قراءة قصص الكتاب المقدس للأطفال يفتح الباب لغرض مناقشة العبرة وراء الجنس، وإن الكتاب المقدس إذا لم يهذب وينقح قد تعتبره مجالس الرقابة صالحاً للكبار فقط لمن جاوزوا الثامنة عشرة من العمر) ص ٧٠ هل الكتاب المقدس كلام الله؟

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٦.

من العائلات الأمريكية تُمارس ما يسمى بنكاح المحرمات، ويقدر عدد الفتيات الأمريكيات اللواتي نشأت علاقة جنسية بينهن وبين آبائهن بحوالي ١٥ مليون فتاة. (الشرق الأوسط في ١٨/٣/١٩٩٠ ص ٩)

ويضيف الأستاذ ديدات بيان أثر الكتاب المقدس على السلوك الشائن مَثَلًا في زنا المحارم، حيث ينتشر بمعدلات وبائية بين البيض في جنوب إفريقيا، يصل إلى ثمانية في المائة، كذلك بلغت النسبة معدلات وبائية في أمريكا، كما بين سوجارت (ويضرب مَثَلًا من الكتاب المقدس، فيذكر أن الإنجيل يحتوي على عشر حالات من زنا المحارم)^(١). وإزاء ذلك فإنه لا يعقل أن يكون هذا الكتاب من عند الله^(٢).

هذا، فضلًا عن العقائد التي تخالف الأدلة العقلية، فباعتراف أحد علماء المسيحية وهو «سيل» وكان قد أحاط ببعض العلوم الإسلامية وترجمة القرآن المجيد، فقد وصى قومه بقوله: (الأول: لا يقع الجبر منكم على المسلمين. والثاني: لا تعلموهم المسائل التي هي مخالفة للعقل؛ لأنهم ليسوا حمقى تغلب عليهم في هذه المسائل، كعبادة الصنم - أي السجود للأيقونات داخل الكنائس وهي صور القديسين - والعشاء الرباني؛ لأنهم يعثرون كثيرًا من هذه المسائل، وكل كنيسة فيها هذه المسائل لا تقدر أن تجذبهم إلى نفسها)^(٣).

والآن تأتي المناسبة للحديث بإيجاز عن الكتاب المنزل من عند الله تعالى حقًا، المحاط من كل جانب بما يبرهن على أنه كتاب الله ﷻ وحده، والذي سلم من التبديل والتحريف.

(١) المناظرة الحديثة ص ١٤٢.

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٣.

(٣) من كتاب «إظهار الحق» رحمة الله الهندي ج ٣ ص ٧٣٤/٧٣٥، تحقيق: د/ محمد أحمد ملكاوي ط. الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية بالرياض ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

القرآن الكريم كلام الله تعالى

وتسبح الفرصة الآن لنعطر حديثنا عن القرآن الكريم، إذ سيبقى بحثنا ناقصاً لو لم نخرج على الحديث عنه؛ لأنه كلام الله تعالى؛ لأنه إذا تبين بعد التمهيص والمناقشة والاستدلالات المتنوعة استبعاد أن يتضمن الكتاب المقدس الوحي الكامل الصحيح من الله تعالى، ففي الطرف المقابل تتجلى وتشع حقيقة القرآن الكريم - كلام الله تعالى - وتصبح أضوأ بهاءً وأشد لمعاناً؛ لأنه الكلام الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وتكفينا الإشارة في هذه العجالة إلى حقيقتين بارزتين:

أولاهما: كيفية تلقيه وحفظه، ونستند في ذلك إلى أقوال الأستاذ سفاسف الأرثوذكسي عضو الجمعية العلمية بأوروبا في كتاب المسمى «أصول الفقه الإسلامي»، فإنه سجل الأحداث التاريخية بحذافيرها، شأن كل باحث أمين مدقق، بموضوعية كاملة، فأثبت حقيقة الوحي وكيفية نزوله على رسول الله ﷺ، وهي الحالة التي شاركه فيها الأنبياء والرسل قبله كدانيال وموسى وغيرهما، (وتستمر هذه الحالة ما دام الوحي، حتى إذا تم أخبر الرسول ﷺ أصحابه بنفس ألفاظ الملك فيحفظونها على الفور عن ظهر قلب حرفياً، وكانوا يعتنون بذلك الاعتناء الذي لا مزيد عليه؛ لأن الحفظ الحرفي لسور وآي القرآن كان عندهم من أعظم العبادات وأقرب القرب، فكان أصحاب الرسول ﷺ تفرغ وسعها وتبذل جهدها المستطاع؛ لتنقش في حافظتها ألفاظ الوحي مضبوطة محكمة بمجرد نزوله، حتى كانوا من مزيد عنايتهم به بعد حفظ الآية من الرسول ﷺ يترددون عليه غير مرة ويتلونوا أمامه حتى يزداد تثبتهم في حفظها وأدائها كما هي).

ويمضي بعد ذلك فيسجل مراحل كتابته وجمعه بواسطة أكابر الحفاظ حسب رواية البخاري، (حتى لم يبق مجال لأدنى شك في نهاية الضبط التام الكريم، إلى أن دعا الحال زمان عثمان بن عفان ﷺ لنشر الكتاب في الجهات فصدر ثلاثة مصاحف إلى الأمصار، وقد رأى أستاذه بعيني رأسه مصحفاً منها بدار الإفتاء الحنفي بدمشق^(١)).

(١) محمد ﷺ نبي الإسلام ص ٨٠، المستشار محمد عزت الطهطاوي.

وشهد بنفس هذه الشهادة أهم مجادلي البروتستانت وهو «المستر سنوبارت» في لكنهؤ ببلاد الهند. ويقول أيضًا الأستاذ موير «وهو من أمهر وأحذق خصماء المسلمين»: إن جميع ما في المصحف هو نص ما صدر من بين شفتي النبي محمد ﷺ وكذلك يقر الدكتور فل الكاثوليكى بألمانيا: (لا نسبة بين القرآن وبين الكتب النصرانية من حيث الضبط والدقة)^(١).

الثانية: نفس القرآن الحكيم وآياته وأحكامه وتشريعاته وأخلاقياته، وما احتوى عليه من قضايا التوحيد وصفات الألوهية والنبوات والقدر والدار الآخرة وخلق الإنسان وأطواره ومصيره وقصص الأمم والأنبياء والرسل، وغير ذلك مما لا نحيط به حصراً في هذه الصفحات، وبعبارة أخرى فإن جميع آياته الباهرة تأخذ بمجامع القلوب وترشد العقول الباحثة عن الحق إلى بر الأمن والإيمان الذي لا يعتره شك.

تجربة علي بن ربن الطبري

يروى لنا علي بن ربن الطبري هذه التجربة الذهنية: (وذلك أني لم أجد لأحد عربي أو عجمي هندي ولا رومي كتاباً - جمع من التوحيد والتهليل والثناء على الله ﷻ والتصديق بالرسل والأنبياء والحث على الصالحات الباقيات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والترغيب في الجنة وأيضاً التزهيد في النار - مثل هذا القرآن منذ كانت الدنيا، فمن جاءنا بكتاب هذه نسبته ونعته وله من القلوب هذا المحلا والجلالة والحلاوة، ومعه هذا النصر واليمن والغلبة، وكان صاحبه ﷺ الذي نزل عليه أمياً لم يعرف كتابة ولا بلاغة قط، فهو من آيات النبوة لا شك فيه ولا مرية)^(٢).

أما علوم القرآن فقد اجتهد علماءنا من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين في محاولة عدها وإحصائها.

«فمن قائل إنها ثلاثة أقسام؛ كالطبري «٣١٠هـ» وهي: التوحيد والأخبار

(١) المرجع نفسه ص ٨١.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج ١ ص ١٦-١٩ باختصار، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

والديانات؛ ولهذا قال ﷺ: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن».

ثم توسع القاضي أبو بكر بن العربي «٥٤٤ هـ» في بيان مضمون هذه الأقسام: فالتوحيد تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله والتذكير، ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار، وتصفية الظاهر والباطن، والأحكام ومنها التكاليف كلها، وتبين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب.

ومن قائل: إن القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً: الإعلام، والتنبيه، والأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، ووصف الجنة والنار، وتعليم الإقرار باسم الله، وصفاته وأفعاله، وتعليم الاعتراف بإنعامه، والاحتجاج على المخالفين والرد على الملحد، والبيان عن الرغبة والرغبة، والخير والشر والحسن والقبیح، ونعت الحكمة وفضل المعرفة، ومدح الأبرار، وذم الفجار، والتسليم والتحسين والتوكيد والتفريع والبيان عن ذم الإخلاف، وشرف الأداء، وقائله علي بن عيسى الرماني «٣١٠ هـ».

ومن قائل: إن القرآن لا يُستدرك، ولا تُحصى غرائبه وعجائبه، وهو القاضي أبو المعالي عزيزي «٤٩٤ هـ» لقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] (١).

وبعد هذه الإمامة الخاطفة حول كتاب الله ﷻ - التي اقتضاها المقام بسبب تداعي المعاني وتوارد الخاطر ليظهره على الدين كله - نستأنف الحديث عن أبرز عقائد النصراني، وهي عقيدة التثليث، التي جاء القرآن يبطلها والرد عليها.

حول عقيدة التثليث

يكتنف هذه العقيدة كثير من الغموض الذي يصعب إزالته حتى باستخدام الأحكام العقلية المجردة؛ ويقولون: (إن الله واحد في ثلاثة أقانيم؛ هم الأب «الله» والابن «الله» والروح القدس «الله» وهؤلاء الثلاثة هم الله. كيف؟ هذا هو سر الثالوث الأقدس الذي لا يستوعبه عقل بشري؛ لأنه فوق مستوى إدراكه) (٢).

ومع هذا فإننا سنعرض لبعض الشروح التي دارت حولها بحيدة تامة، ومحاولين

(١) الدين والدولة ص ٩٨/٩٩.

(٢) كنت نصرانياً، واصف الراعي، ص ١١٠ مطابع الفرزدق بالرياض ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧.

تقريب العقيدة إلى الأفهام ما أمكن:

١- يستمد هذا الشرح من التأمل في التركيب الجسماني للإنسان، إذ إن كيانه (يتألف من الأجزاء المادية المتجانسة، التي تستطيع الأنظار المادية أن ترى هيئتها الاتحادية، فمثلاً العظم واللحم والدم، من اتحاد هذه الأشياء الثلاثة يقوم الجسم الإنساني في الوجود، ولو فقد واحد منها لما تم وجود الجسم الإنساني)^(١).

ولكن إذا تأملنا هذا المثال نجده لا يتفق مع العقيدة المسيحية في الثلث، ويقول محمد تقي العثماني: على حين أن المسيحية لا تؤمن بثلاثة أقانيم كثلاثة أجزاء، وإنما تؤمن بها كثلاثة أشخاص مستقلين، ومن هنا فإنها لم تستخدم للأب والابن وروح القدس كلمة «الأجزاء» وإنما استعملت كلمة «الأقانيم» Persons أو «الأشخاص»، ولا شك أن أحداً لا يقول بأن اللحم وحده، أو العظم وحده، أو الدم وحده «إنسان»، وإنما يقول: إنه جزء من الإنسان، وعلى العكس من ذلك فإن المسيحية تعد من الأب والابن والروح القدس إلهاً. ولا يعده جزءاً من الله^(٢).

(٢) التجلي أو الطول

عبر الأب سوجارت على ذلك بقوله: إن الرب يُعلمنا بوجود إله واحد وليس اثنين أو خمسة... (وإنه تجلي في ثلاثة أشخاص، ثلاث شخصيات مختلفة؛ نحن نؤمن بوجود الأب الساوي، والإله الابن، ونؤمن بالروح القدس الذي غشي مريم؛ إنه أيضاً وهم كل لا يتجزأ بمعنى أنهم متفقون تماماً، وفي توحد وانسجام لا يختلفون أبداً ولن يختلفوا أبداً)^(٣).

وعندما أعطيت الكلمة للأستاذ ديدات، قام فأفصح عن تعجبه الشديد من قيام الأب سوجارت بتغيير الكلمة المعبرة عن الرب، حيث كان في صباح يوم المناظرة نفسه يستخدم في خطابه لمجموعة من كنيسة كلمة «المولود لله»، وهي مستخدمة أيضاً في

(١) ما هي النصرانية؟ محمد تقي العثماني ص ٤٧/٤٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٩.

(٣) المناظرة الحديثة ص ١٩٩.

إنجيل الملك جيمس المعتمدة بالنص (لأنه هكذا أحب الله العالم حتى إنه أعطي ابنه الوحيد)، والتعبير الإنجليزي الوارد بالنص يستخدم كلمة «بجتن» أي: المولود لله؛ ولكن بعد ثمان ساعات فقط، وأثناء المناظرة غير الأب سوجارت كلمة «بجتن» إلى كلمة «المتفرد»^(١).

وعندما سُئل الأب سوجارت عما يعنيه بكلمة «متفرد» أجاب بأنها في الأصل اليوناني تعني ببساطة: (لم يكن مثله أحد من قبل، وما كان أحد أبدًا مثل ابن الله؛ فهو متفرد، لم يكن أحد من قبل مثل مريم التي أنجبت ابن الله، إنها تعني ببساطة أن أحدًا لم يكن أبدًا مثله من قبل، ولن يكون أحد مثله من بعد، يكون متفردًا كابن الله، متجسدًا في هيئة بشرية)^(٢).

ثم أوضح أن المسيحيين لا يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة، وسخر من الذين يظنون أنهم يعتقدون أن الله متزوج ويسكن في شقة في السموات، وأنه أنجب أطفالًا، ووصف ذلك بأنه سخافات؛ ثم عبر عن الإيمان الصحيح عندهم حيث يؤمنون بأن الله بسبب حبه للناس تعطف ونزل على هذا الكوكب، وعاش بين الناس ومشى بينهم، وتحدث إليهم، وفي هيئة بشر تجسد ليموت على الصليب كالفادي تكفيرًا عن خطايا البشرية فالإنسان عاجز عن إنقاذ نفسه، ولقد فعل ذلك، وقال للناس: إنكم ستقتلون هذا الجسد، وفي خلال أيام ثلاثة سأرفعه إلى مرة أخرى؛ (وهكذا فهو متفرد في ذلك. كذلك كان متفردًا في معجزاته، متفردًا في نبوءته، ومتفردًا في ميلاده، متفردًا في حياته، متفردًا في رسالته، متفردًا في موته، متفردًا في قيامته، متفردًا في صعوده، وعندما يعود فسوف يكون متفردًا في عودته)^(٣).

ولكن هذا الأسلوب الإنشائي الخطابي لا يحل مشكلة الغموض، وربما كان فرارًا من المواجهة التي لا بد منها (إنه يقول - أثناء حديثه أيضًا - شخص وشخص وشخص،

(١) المرجع نفسه ص ١٣٥ ويقول الأستاذ ديدات: وبالمناسبة فإن كلمة «بجتن» تعني أيضًا: الإنتاج يا

سيدي، فإله أنتج ولده. «نفسه ص ١٨٠».

(٢) ص ١٩٥ من كتاب المناظرة الحديثة.

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٦.

إلا أنهم ليسوا ثلاثة أشخاص بل شخص واحد).

وعندئذ وجه الأستاذ ديدات الخطاب إلى الأب سوجارت و ضرب له المثل الآتي:
 (أنت وأخوأك لتفترض أنكم ثلاثة توائم متشابهة، وأنا لا نستطيع التمييز بينكم أنتم
 الثلاثة؛ لأنكم متطابقون تمامًا فإذا اقترف أحدكم جريمة قتل هل يمكن أن نشق الآخر؟
 جوابك: كلا. وأسألك: ولماذا لا يشق؟ فتقول لي: إنه شخص آخر، وأوافقك على
 هذا)^(١).

ثم أوضح أن استخدام الكلمات يستدعي صورًا ذهنية حول «الأب السماوي
 المحب» و«الإله الابن» و«الروح القدس».

إذن هناك ثلاث صور ذهنية مختلفة، (ومهما حاولتم فلن تتطابق هذه الصور الثلاثة
 في صورة واحدة؛ سيكون في ذهنكم دائيًا ثلاث صور، ولكن حين أسألكم: كم صورة
 ترون؟ تقولون: واحد)^(٢)، وهذا لا يطابق الواقع.

(٣) مثال الشمعة

وهذا المثال مشهور متداول، فالله عندهم -تعالى علوًا كبيرًا- كالشمعة (فالشمعة
 واحدة ولكنها مادة ونور وحرارة؛ فهي ثلاثة في واحد)^(٣).

وهذا المثال متهافت أيضًا لا يعبر عن العقيدة النصرانية؛ لأن الأقانيم عندهم ثلاثة
 أصول، والشمعة أصل واحد (أما الضوء والحرارة فمظهران حادثان طرأ على الشمعة
 بعد إضاءتها، فإذا انطفأت عادت إلى أصلها الواحد، وفاتهم أن هناك مصدرًا ما أشعل
 الشمعة فما دوره في الأقانيم الثلاثة وأين مكانه من هذا التشبيه؟)^(٤).

إن هذا المثال إذن مخالف للثالوث النصراني الذي -بحكم صياغته- يقرر تعدد
 الشخصيات في الإله، وينسب -كما يرى البروفيسور عبد الأحد داود- خصائص

(١) المرجع نفسه ص ٢٠٤.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٥.

(٣) كنت نصرانيًا ص ٢٥.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٥.

شخصية منفصلة لكل شخص.

وقد ناقش البروفيسور هذه العقيدة من الوجهة الرياضية البحتة، ليبين عدم تطابقها مع البديهيات العقلية، والعلم الرياضي هو أدق العلوم كما هو معروف.

قال: والرياضيات كعلم إيجابي تُعلمنا أن الوحدة ليست أكثر من واحد ولا أقل، وأن واحدًا لا يمكن أن يساوي واحدًا + واحدًا + واحدًا.

وبعبارة أخرى فإنه لا يمكن أن يكون الواحد مساويًا لثلاثة؛ لأن الواحد هو ثلث الثلاثة، وقياسًا على ذلك فإن الواحد لا يساوي الثلث؛ وبالعكس فإن الثلاثة لا تساوي واحدًا، كما أنه لا يمكن للثلاث أن يساوي الوحدة، والذين يقولون بوحداية الله في ثلاث من الأشخاص إنما يقولون لنا: إن كل شخص هو إله قدير، موجود، دائم، أزلي، وكامل؛ ولكنه لا توجد ثلاثة آلهة قادرين، وموجودين، ودائمين، وأزليين، وكاملين، ولكنه إله واحد قدير.

وإذا لم تكن هناك سفسطة في المنطق المذكور أعلاه فإننا سنطرح هذا «اللغز» الذي تقدمه الكنائس، ويكون طرحنا له بالمعادلة التالية:

إله واحد = إله واحد + إله واحد + إله واحد

كذلك فإن إلهًا واحدًا = ثلاثة آلهة

أولاً: لا يمكن لإله واحد أن يساوي ثلاثة آلهة، بل يساوي واحدًا منها فقط.

ثانيًا: بما أنك تسلّم بأن كل شخص إله كامل مثل قرينه؛ فإن استنتاجك بأن

$1 = 1 + 1 + 1$ ليس استنتاجًا رياضيًّا^(١).

ثم ينتقل البروفيسور بعد ذلك إلى مناقشة التثليث من الناحيتين المنطقية والعقائدية، بناءً على تصور أن لكل شخص في الثلاث صفات لا تنطبق على الاثني الآخرين (وتدل هذه الصفات طبقًا للمنطق الإنساني واللغة الإنسانية على وجود قبلية وبعدية فيما بينهما؛

(١) محمد ﷺ في الكتاب المقدس، عبد الواحد داود ص ٤٥، ترجمة فهمي شها، مراجعة وتعليق أحمد

محمد الصديق، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

فالأب دائماً يحظى بالرتبة الأولى، ويتقدم على الابن. أما الروح القدس فهو ليس متأخراً فحسب؛ لكونه الثالث في الترتيب العددي، بل إنه أقل من أولئك الذين انبثق منهم).

ويلقي بعدئذ التساؤل الذي لا مفر منه للتمييز بين الإقرار بهذه العقيدة أو الزندقة: (ألا يعتبر نوعاً من الإلحاد إذا ما أعيد ذكر هذا الثلاث بترتيب معكوس؟ ألا يعتبر إنشاء الصليب عند مشاهدة القربان المقدس أو تجاوز مبادئه نوعاً من الزندقة عند الكنائس إذا عكست العبارة وصارت على النحو التالي: باسم الروح القدس، والابن، والآب؟ لأنها إذا كانت متساوية ومتعاصرة فإنه لا داعي لمراعاة ترتيب الأسبقية بدقة؟)^(١)

عقيدة التثليث فوق؛ تطور العقل

أما دفاع النصارى عن عقيدة التثليث بدعوى أنها حقائق هي وراء طور العقل والقياس فلا مناص من تصديقها من غير محاولة الاعتماد على العقل فيها^(٢) هذا الدفاع لم يقبله ابن تيمية في مجال مناقشة عقائدهم، فهو يرى ضرورة التمييز بين نوعين من الحقائق؛ أحدهما: ما هو باطل ومستحيل عقلياً، والثاني ما يتقاصر عنه العقل، وجاءت الأنبياء لتوضحه، (ولكن النصارى لا يميزون بين ما يحيله العقل ويطله، ويعلم أنه ممنوع، وبين ما يعجز عنه العقل فلا يعرفه ولا يعلم فيه، بنفي ولا إثبات وأن الرسل أخبرت بالنوع الثاني، ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول، فلم يفرقوا بين محالات العقول ومحارات العقول، وقد ضاهوا في ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولداً وشريكاً)^(٣).

وزعم الولد أو الابن الله تعالى دالاً على استخدام ألفاظ الأنبياء - لو صحت - في غير مواضعها، فإن الموقف المنهجي الصحيح المفسر لكلام الأنبياء يقتضي الاستمساك بظاهر كلامهم، فإن الابن ظاهرة لا يراد به شيء من صفات الله، بل يراد به وليه وحبيبه، وروح القدس لا يراد به صفته، بل يراد به وحيه وملكه، ولكن النصارى عدلوا عن ظاهر اللفظ

(١) المرجع نفسه ص ٤٦.

(٢) الحافظ أحمد بن تيمية، الإمام أبو الحسن الندوي ص ٢٠٤، ط. دار القلم، الكويت، تعريب سعيد

الأعظمي الندوي ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ص ٨٩، ج ٢ نقلاً عن المصدر السابق.

إلى معنى لا يدل عليه البتة^(١).

قال ابن تيمية: (فإذا وجد في كلام المسيح ﷺ أنه قال: عمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس، ثم فسروا الابن صفة الله القديمة الأزلية كان هذا كذبًا على المسيح حيث لم يكن في لغته أن لفظ الابن يراد به بصفة الله القديمة الأزلية، كذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس وإنما يريدون بروح القدس ما ينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء والصالحين ويؤيدهم)^(٢).

الصليب والتكفير عن خطيئة البشر

بعد الصليب أحد الشعائر البارزة في العقيدة النصرانية، إن لم يكن أبرزها، فإن الصليب رمز عقيدة النصارى الذي يعبر عن الإيمان بالتكفير عن خطيئة البشر، وأصبح لزامًا عليهم رسم علامته في كل مناسبة؛ يقول العالم المسيحي الشهير «ترتو ليانوس»: (بمناسبة كل حال وترحال، وذهاب ومجيء، وخلع نعال، واغتسال، وأكل، وإيقاد شمع ونوم وجلس، وبالجملة بمناسبة كل حركة وسكون نصنع فوق حواجبنا علامة الصليب)^(٣).

أما عن تعليل صلب المسيح ﷺ في زعمهم فيستندون فيها إلى ما جاء في الكتب المقدسة عندهم أن «الله محبة»، وظهرت هذه المحبة في تدبيره الخلاص للعالم؛ لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة، ولكن الله من فرط محبته وفيض نعمه رأى أن يقرب إليه بعد هذا الابتعاد، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم^(٤).

ولئن كانت رواية الصلب واردة بالأنجيل، إلا أن الدارس الفاحص عندما يقارن

(١) المرجع نفسه ص ٢٠٢.

(٢) الجواب الصحيح ج ٣ ص ١٨١، نقلًا عن المصدر السابق.

(٣) ما هي النصرانية؟ ص ٧٥.

(٤) محاضرات في النصرانية ص ١٢٩ ويقول عبد الله الترجمان: وهم يزعمون أن لاهوته فارقه عند الصلب والقتل، وهبط إلى جهنم فأخرج منها الأنبياء، وكان ناسوته في القبر مدفونًا حتى رجع إليه لاهوته، فأخرجه من القبر ورجع إليه، ثم صعد به إلى السماء. تحفة الأريب ص ٨١.

الحادثة بالأنجيل بعضها بعض، يستخلص منها -على خلاف المعتقد- نفي صلب المسيح ﷺ وإليك البيان: وردت قصة المحاكمة في إنجيل لوقا بالنص الآتي:

(وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه تلاميذه أيضاً، ولما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكيلا تدخلوا في تجربة، وانفصل عنهم نحو رمية حجر، وجثا على ركبتيه وصلّى قائلاً: يا أبته إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي، بل إرادتك. وظهر له ملاك من السماء يقويه، وإذا كان في جهاد كان يصلي بأشد الحاجة، وصار عرقه كقطرات الدم نازلة على الأرض، ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه، فوجدهم نياماً من الحزن فقال لهم: لماذا أنتم نيام؟ قوموا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة) (١).

كذلك صرح إنجيل متى بأن (أظلمت الأرض ظلماً شديدة).

من هذا النص وغيره -كما سيأتي- يتضح عند تنقيح الأخبار والبحث في الملابس المحيطة بالواقعة تأكيد نفي حادث الصلب عن المسيح ﷺ، حيث يستخلص الأستاذ إبراهيم خليل من القصة الأنفة كينونة المسيح كإنسان بشر (يصلي في جهاد، فينزل ملاك من السماء ليقويه ويشد أزره، ثم يعود إلى تلاميذه، فيجدهم ساعة هذه التجربة العظمى نياماً، ومن هنا حدث لبس في شخصية المصلوب) (٢)، فضلاً عن أن الوقت كان ليلاً؛ لأن الرواية تضمنت أن الجمع جاءوا بمشاعل ومصاييح.

وهنا يقول الإمام نجم الدين الطوفي «٧١٦هـ»: (ففي تلك الظلمة أطلقت الملائكة المسيح وربطت الذي ألقى عليه شبهه مكانه) (٣)، ثم يمضي فيحلل الأسباب النفسية

(١) متى ١٧: ٩ نقلاً عن كتاب «محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن» إبراهيم خليل أحمد، ص ١٦٣ وقد قابل الحادثة بها وردت بأنجيل متى ومرقص ولوقا.

(٢) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن» ص ١٦٤.

(٣) كتاب «الانتصارات الإسلامية» في علم مقارنة الأديان، تأليف نجم الدين البغدادي الطوفي، ص ١٠٣ دارسة وتحقيق د/ أحمد حجازي السقا، مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٣ م.

وينظر أيضاً تفسير الطبري ج ٩ ص ٣٦٩ قال: فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذهم ودفعهم عليه، وكان شبه عليه =

لعقيدة الصلب عند كل من النصارى واليهود، (فاعتقدتم أنتم أن المسيح صُلب، وقوّى ذلك الاعتقاد في نفوسكم حتىكم على اليهود، وحب تقرير العلم للعدوان عليهم، واعتقدت ذلك اليهود كما اعتقدتموه، وحملهم على ذلك الاعتقاد حب الغلبة والظفر بمن اعتقدوه عدوًّا لهم)^(١).

تحقيق الحادثة

وقد أجاد علماءنا أثناء مناقشتهم للنصارى في هذه الواقعة المهمة، وقدموا البراهين التي تدحض حادثة صلب المسيح ﷺ من واقع الأناجيل نفسها، مستخدمين مناهج مختلفة، منها منهج تحليل الأخبار؛ حيث يتضح كذب الرواة أو شكهم فيما يروونه، ومنها موازنة بعض نصوص الأناجيل بموازين العقل والمنطق على ضوء عقائدهم الدينية.

ورغبة في الإيجاز وتحقيق غايتنا من أقرب الطرق سنختار من بين علمائنا الإمام القرافي صاحب الصولات والجولات في الجدل مع النصارى.

الأولى: فقيا يتعلق برواة الخبر عن الصلب فهم قليلون؛ لأن الحواريين فروا عن المسيح ﷺ، لأنه لو وجد أحد منهم لقتله اليهود، فحيثُ عدد التواتر متعذر من جهة شيعة النصارى، ومن جهة اليهود فلأن المباشر منهم للصلب إنما هم أعوان الولاية (وذلك في مجرى العادة يكون نفرًا قليلًا كالثلاثة ونحوها يجوز عليهم الكذب، ولا يفيد خبرهم العلم)^(٢).

أما نصوص الإنجيل والكتب النصرانية فإنها دالة على عدم صلب عيسى ﷺ بذاته، وقيم الإمام القرافي الأدلة على ذلك من واقع تحليله للنصوص وعرض مضمونها على قوانين العقل والمنطق.

= قبل ذلك - أي كانوا لا يعرفونه - فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، فجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويصقون عليه، ويلقون إليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصلبوا ما شبه لهم، فمكث سبعا، والرواية بسندها عن وهب بن منبه.

(١) ط. دار المعارف، تحقيق محمود شاكر، ومراجعة وتحرير أحاديث شاكر.

(٢) الأجوبة الفاخرة ص ٥٣.

فمنها أن لوقا في إنجيله روى كيف صعد يسوع إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا، فبينما هو يصلي إذ تغير منظر وجهه، ولعت ثيابه كالبرق وإذا موسى بن عمران وإيلياء قد ظهر له وجاءت سحابة فأظلمت فوق النوم على الذين معه. ويستدل إذن من هذه الآيات أن عيسى ﷺ رُفِعَ إلى السماء ولم يُصَلب وإلا فلا معنى لظهورها.

والثانية: أن الأنجيل ذكرت أن المصلوب استسقى اليهود فأعطوه خلًّا مذاقًا بمر مذاقه ولم يسغه، فنادى (إلهي إلهي لمْ خذلتنني؟)، وهذه الواقعة لا تتطابق مع ما صرحت به الأنجيل بأنه ﷺ كان يطوي أربعين يومًا وأربعين ليلة صابرًا على العطش والجوع، فكيف به لم يمكث على الخشبة أكثر من يوم وليلة ولم يصبر على العطش؟! فيتضح إذن أن المدعي للعطش غيره^(١).

والثالثة: قوله: (إلهي إلهي لمْ خذلتنني فتركتني؟) وهو كلام منافٍ للتسليم بأمر الله تعالى، وعيسى ﷺ، منزّه عن ذلك، فيكون المصلوب إذن غيره.

كذلك فبالمقارنة بغيره من الأنبياء والرسل - كإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون ﷺ فإنهم يجعلونه في مرتبة أقل منهم، إذ روت التوراة أنهم تقبلوا الموت مستبشرين بلقاء ربهم، ولم يجزعوا (مع أنهم عبيده، والمسيح بزعمهم ولد ورب، فكان ينبغي أن يكون أثبت منهم، ولما لم يكن كذلك دلّ على أن المصلوب غيره)^(٢).

ويستند الأستاذ أحمد ديدات إلى نفي حادثة الصلب إلى الشواهد والأقوال المنسوبة إلى المسيح ﷺ، ومنها ما ورد بإنجيل لوقا: (انظروا يدي ورجلي، إني أنا هو، جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي، وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبين قال لهم: أعندكم ههنا طعام؟ فناولوه جزءًا من سمك مشوي وشيئًا من شهد العسل فأخذ وأكل قدامهم).

ويعلق الشيخ ديدات على هذا النص بقوله: (والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا

(١) المرجع نفسه ص ٥٤ باختصار.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٥.

كان المسيح قد مات «مصلوبًا» ثم قام بعد ثلاثة أيام فكيف يقول لتلاميذه: إن الروح ليس له لحم وعظام «طالبًا» منهم أن يجسوه.

ثم: لماذا أكل قدامهم وفق رواية «لوقا» المعتمدة من قبل المؤسسات الكنسية؟

فمن المعروف أن الأرواح لا تأكل ولا تشرب، وإن علمها عند الله، ولكن المسيح عليه السلام من خلال هذا الموقف الذي تقول به مختلف الكنائس، وإذا كان هذا قد حدث بالفعل وفق ما يعتقد النصارى، فإننا نقول لهم: إن المسيح عليه السلام أراد أن يثبت أنه لم يمت بعد؛ أي إنه لم يقتل بعد؛ أي إنه لم يصلب؛ أي إنه ليست هناك حادثة «صلب»، وبما أنه ليست هناك حادثة «صلب» فتنظريه «الخلاص» لا أساس لها من الصحة، وفي ضوء هذا فالنصرانية معتقد غير صحيح^(١).

وعن الناحية اللغوية نجد للشيخ ديدات بحثًا فريدًا في تحليله للمصطلح الإنجليزي الدال على الصلب وهو Crucifixion حيث توصل إلى أن أصل هذا المصطلح مكون من مقطعين هما Cruci- fiction ومعناه: رواية الصلب أو خرافة الصلب. إذ إنه لا يوجد في الإنجليزية فعل واحد بالمعنى الذي يقابل الفعل العربي «يصلب».

ويستتج من ذلك أنه إذا كان المصطلح نفسه عاجزًا عن التدليل على معنى «الفعل» الحادثة التي وقعت من وجهة نظر كتبة الإنجيل، فكيف يتسنى لنا إذن على المستوى اللغوي التحقق من أصل هذه الحكاية كواقع^(٢).

ويزيد الأمر إيضاحًا بكتابه «صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء» ليثبت أن قصة الصلب لا تعني الموت قتلاً، مستشهدًا بتفسير لغوي لإنجليزي بجنوب أفريقيا وشريك له من أمريكا يعترفان بأنه لو كانت كلمة يصلب تعني يقتل على الصليب فإننا لا نجد

(١) من أقواله لمندوب جريدة «المدينة المنورة» عدد الأربعاء رقم ٢٨٥ الصادرة، في ٥ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ/ ١٤ ديسمبر ١٩٨٨ م، ص ٧، مع العلم أنه أصدر كتابًا في هذا الموضوع بعنوان: «خرافة صلب سيدنا المسيح»، وهو من مصادر دراستنا.

(٢) صلب المسيح... بين الحقيقة والافتراء، أحمد ديدات ص ١٧٢.

كلمة تصور مجرد الصعود على الصليب دون موت عليه^(١).

ويقول: ولو كانت «يصلب» تعني فقط: يقتل، فما معنى الكلمة؟ إن قاموس أكسفورد يعطي للكلمة معنى هو «يقتل بالثبیت على الصليب».

ولكنه يجابه هذا التعريف بسبع حالات صلب على الأقل حدثت في الفلبين ونشرتها إحدى الصحف في ٣/٥/١٩٨١، ولم يمت منهم أي شخص بالصلب! وأغمي على أحدهم بالرغم من دق المسامير في يدي المتقدمين للصلب بالصلب الخشبي، ويخص بالذكر ما حدث للسيد بيتر فان دير بتاريخ ٣/٨/١٩٦٩م الذي صعد على الصليب وتلقى «الركلات» لمجرد الاستمتاع بالإثارة، أو كما قال بنفسه: لمجرد أن يثبت أن الإنسان يستطيع أن تكون له السيطرة على جسده، وأنه تحمّل عملية الصلب بكل تفاصيلها ولم يمت، بمعنى أنه ثبت على الصليب «لتمثيل الصلب، لا ليموت صلباً»^(٢).

المنكروون للصلب

وقد أنكرت بعض الطوائف المسيحية حصول الصلب استناداً على الأدلة التاريخية. ويقول المسيو «أرنست دي يونس» الألماني في كتابه المسمى «الإسلام والنصرانية الحقة»: إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح ﷺ وليست من أصول النصرانية (وقد أنكر كثيرون من المؤمنين بعبسى في بداية النصرانية أن المسيح نفسه هو الذي رفع على الصليب وأصروا على أن أحد أتباعه «يهودا الأسخريوطي» أو شخصاً آخر يشبهه تماماً هو الذي ألقى القبض عليه وُصِّلَ بدلاً منه)^(٣).

ويقول ملمن في كتابه «تاريخ الديانة النصرانية» إن تنفيذ الحكم على المصلوب كان أثناء الظلام مما يُستتج منه إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا منتظرين تنفيذ حكم القتل.

(١) المصدر السابق ص ١٧٨، وينظر صورته على الصليب ص ٧٩.

(٢) المرجع نفسه، ويقول: وإنني أتحدى أي أسقف أو قس في أي مكان، في أي وقت في لغته هذا «الفعل».

(٣) محمد ﷺ في الكتاب المقدس، البروفسور عبد الأجد داود ص ٢٢٧.

ويقول باسيلوس: إن نفس حادثة القيامة وهي دعوى قيام المسيح ﷺ من الأموات المدعى بها بعد الصلب الموهوم هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المسيح^(١).

ومنهم أيضًا «كواثلوس شيس» الذي أعلن رأيه برفض الأساس العقائدي للصلب، لأن (ذنب آدم لم يضر إلا آدم، ولم يكن له تأثير على بني النوع البشري والأطفال الرضعاء حين تضعهم أمهاتهم يكونون كما كان آدم فيما قبل أن يذنب)^(٢).

والثابت تاريخيًا أن النصارى في القرون الأولى قبل الملك قسطنطين لم يعرفوا رسم علامة الصليب على وجوههم بالأصابع، وظهر تبرير ذلك برواية تحكي عن هذا الملك أنه رأى في السماء صورة صليب من ذهب، وملك يقول له: إن كنت تريد غلبة أعدائك فاجعل هذه الصورة هلامة قدامك؛ (وآمن وفعل ما قاله الملك فنُصر وهو الذي بحث عن صليب المسيح حتى وجده مدفونًا، وعمل من المسامير التي كانت فيه لجامًا لفرسه، وزين جبينه بصليب من ذهب، فاستمر ذلك لنا علامة على النصر والظفر)^(٣).

ويبقى السؤال واردًا وهو: كيف يرضى النصارى بعلامة الصليب (وهو شنيع على المسيح ﷺ) وإظهار لشعائر الإهانة العظيمة الحاصلة لمن يزعمون أنه ربهم، وهذا لا يرتضيه الإنسان لعلامة، فكيف لنبية، فكيف لربه؟!^(٤).

ويصرح محمد تقي العثماني بأنه لم يجد على السؤال إجابة في كتابات أي عالم مسيحي^(٥).

وختامًا لدراستنا الموجزة حول علم الأديان المقارن، سنجعل مسك الختام منصبًا على الحديث عن إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ، وذلك في مبحثين:

(١) نقلًا عن محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، ص ١٠٣، راجع بالتفصيل في هذا المصدر هذه الطوائف وتبلغ إحدى عشرة طائفة.

(٢) ماهي النصرانية؟ ص ٩٠.

(٣) الأجوبة الفاخرة للقرافي ص ١٦١ والعبارة على لسان قسيسهم وكبيرهم حفص.

(٤) المرجع نفسه ص ١٦٠: ١٦١.

(٥) ماهي النصرانية؟ ص ٧٥.

الأول: النبوءات بمحمد ﷺ في الكتاب المقدس (١).

الثاني: الأدلة العقلية على صدق نبوته ﷺ.

(١) لم تقتصر النبوءات على الكتاب المقدس فحسب، فقد ذكر العقاد بأن (بعض الباحثين وجد اسم أحمد مكتوباً بلفظه العربي في السامافيدا من كتب البراهمة، وبعض صفاته ﷺ وكذا كتب المجوس «التاريخ الفارسي» ككتاب زندافستا ينسب عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين «شوشيانا») ويتصدى له عدو يسمى أبا لهب، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفواً أحد وليس له أول ولا آخر ولا صاحب ولا ولد، وكيف تنهض البادية وتتوجه للكعبة وتبسط سلطانها على فارس، وإن نبيهم فصيح ذو معجزات، مطلع النور للعقاد، كتاب الشهر، دار الهلال ١٩٦٨م، نقلاً عن مختصر إثبات نبوة محمد ﷺ لمحمد إبراهيم حجاج ص ٨٣، الذي يرى أنه لا يبعد أن يكون ذلك من آثار النبوءات السابقة من لدن نوح.

الفصل السابع

النبوءات بمحمد ﷺ في الكتاب المقدس

تمهيد

يلاحظ علماء تاريخ الأديان المقارن أنه بالرغم من كثرة ذكر الرسل والأنبياء بالكتاب المقدس إلا أنه عندما تأتي البشارة بمجيء محمد ﷺ فإنهم يخفونها أو يحدونها ولا يعترفون برسالته، فما السبب؟

يرى جارودي أن مصيبة تاريخ الأديان المقارن أنه يحمل في الغرب علامة العصر الذي ولد فيه، ولذلك فهو يتميز بظاهرتين:

الأولى: أنه فيما يخص الإسلام فإن الغرب اعتمد على وجهة نظر مسيحية متعصبة وطائفية، وترفض الاعتراف بصحة الوحي الإسلامي؛ اعتماداً على تأكيد صحة وحيها هي، وهذا ما يدعوننا بأن التعصب هو أحد أسباب إنكار نبوة نبينا ﷺ.

الثانية: المسئلة الفلسفية الوضعية القائلة باستبعاد كل إمكانية للتسامي بشكل مفاجئ في التاريخ، والتي تزوي في أفكار مسبقة لتزعم أن لا شيء ينشأ إلا نتيجة ومحصلة لأحكام سابقة^(١).

أما البروفيسور عبد الأحد داود فقد كان أكثر صراحة؛ لأن تمكنه في علم الأديان المقارن وتخصصه في علم اللاهوت وإحاطته الواسعة بالكتب الدينية عند اليهود والنصارى كل ذلك مكّنه من اكتشاف عدة حقائق أعلنها على الملأ في شكل تحقيقات وبحوث علمية موثقة وتستند إلى مراجع لا سبيل لأهل الكتاب في الطعن فيها.

(١) الإسلام دين المستقبل، جارودي ص ٦٦ ترجمة عبد المجيد بارودي، دار الإبيان، بيروت- دمشق ١٩٨٣ م. وقد أورد بهذا الكتاب إحدى النبوءات التي رأى أنها تبشر بمجيء الرسول ﷺ، حيث أورد ما جاء على لسان القديس يوحنا قوله: (وما زال لدى أشياء كثيرة أقولها لكم، ولكنكم في هذا الوقت لستم قادرين على تحملها، وعندما سيأتي «روح الحق» فإنه سيجعلكم تصلون إلى الحقيقة كاملة) إنجيل يوحنا ١٦- ١٢/١٣ ص ٨٣ من كتابه.

ويذكر البروفيسور - كأحد نماذج التحريف^(١) - أنه بدافع حقد اليهود على إسماعيل عليه السلام قام النسخ وفقهاء الشريعة بتحريف وإفساد الكثير من صفحات كتبهم المقدسة فشطبوا اسم «إسماعيل»، ووضعوا اسم «إسحاق» بدلاً منه، وقاموا أيضًا بحذف الوصف الخاص بإسماعيل «ولدك الوحيد» لإنكار وجوده.

وقام النصارى بتحريف من نوع آخر، فغيروا ترجمة كلمة من معناها الأصلي إلى معنى آخر مغاير: وتفصيل ذلك أن الأصل في خطاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام قوله: «لأنك يا إبراهيم قبلت أن تضحي بابنك الوحيد من أجلي، فسوف أزيد وأضعف من ذريتك».

ولكن المسيحيين عندما قاموا بترجمة هذه الكلمة العبرية التي تعني «وفير» أو «كثير» من الفعل Para ترجموها إلى معنى مغاير لحقيقة اللفظ ألا وهو «الحمار المتوحش».

وعندئذ يبدي هذا العالم دهشته الممتزجة باللوم والسخط على هذا الفعل ويتساءل: (أليس من العار والكفر أن يُنعت إسماعيل بهذا اللفظ وهو النبي الذي كرمه الله فنعته بصاحب الذرية الخصبه الكثيرة العدد؟)^(٢)

وقادته دراسته في علم اللاهوت، وتبحره في تاريخ الأديان، ومعرفته بالكتاب المقدس ونبوءاته إلى الإقرار بالحقيقة التي لا محيد عنها، وهو أن محمدًا عليه السلام هو الهادي، وهو روح الحق الذي بشر به المسيح عليه السلام،^(٣)

واعتنق الإسلام عن اقتناع تام بعد كثيرة البحوث والقراءات والمقارنات، ثم أعلن في تواضع: «إني لا أعزو اعتناقي الدين الإسلامي لأي سبب غير التوجيه الإلهي الكريم

(١) وتظهر آخر صور التحريف في العصر الحديث بواسطة إسرائيل، حيث قامت بإصدار الطبعة المحرفة لأسفار العهد الجديد عن «دار النشر اليهودية بالقدس سنة ١٩٧٠م» على ضوء وثيقة التبرئة التي أصدرها البابا بولس السادس في ٢٨/١٠/١٩٦٥م، فحذفوا كلمة «اليهود» وكل ما يتعلق بمسئوليتهم عن «صلب» المسيح عليه السلام وتحميل مسئوليته على الرومان... ص ٤٥/٤٦ من كتاب «إسرائيل .. حرفت الأنجيل» اللواء أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة بمصر سنة ١٩٧٢م.

(٢) محمد عليه السلام في الكتاب المقدس، ص ٦١.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٤.

الذي هداني للإسلام، بغير هذا الهدي الإلهي فقد يُصاب الإنسان بالحيرة والضلال من تعدد التعاليم الدينية، ومن كثرة الجهود المضنية التي تجابه الإنسان في سبيل البحث عن الحقيقة^(١).

أما الإسلام، فهو الدين الذي يحقق الهدوء داخل العقل وداخل البيت مهما كانت الاضطرابات التي تهددنا^(٢).

وفي وصف شامل للإسلام ورسائله وصبغته الفريدة، ومدى صداه في نفوس خصومه يعرفه بأنه: (لا يوجد أي نظام ديني في العالم يحمل اسمًا أو وصفًا أفضل وأشمل وأكثر هيبةً وسموًا من الإسلام، فالدين الحق لله الحق لا يمكن أن يسمى باسم أي من عباده ولا أن يدعي باسم شعب معين أو اسم بلد معين، إن هذه القداسة والعصمة لكلمة إسلام هي التي توقع الرعب والخوف والاحترام في قلوب أعدائه، حتى عندما يكون المسلمون ضعافًا وخانعين)^(٣).

ودفعه إيمانه ذو الجذور العميقة في نفسه إلى إعلان اكتشافاته العلمية على الملأ، بل الدعوة إلى الإسلام أيضًا؛ لأنه بعد الفحص والتمحيص ثبت لديه أنه الدين الحق.

لقد أراد البروفيسور عبد الأحد إذن بوحى من إيمانه العميق إثبات تحريف الكتاب المقدس لنصوص النبوءات، فأتى بالنصوص المحرفة^(٤) بسبب الترجمة وطابقها مع ما يقابلها مكتوبًا باللغة الأصلية، وعندئذٍ أذهله أن كل النصوص المعنية بالنبوءات تنصب على رسول الله ﷺ، وهذا لم يكن يتوقعه قطُّ بحكم عقيدته السابقة ونشأته على النظر إلى الإسلام ونبيه ﷺ بعين ملؤها الحقد والكراهية، أو عدم الإنصاف على أقل تقدير.

ولا يتسع المجال لعرض بحوثه تفصيلًا؛ ولكن يعيننا فقط الإمام بطريقة التحريف

(١) المرجع نفسه ص ٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٨.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) يرى الأستاذ محمد إبراهيم حجاج أنه لكثرة البشارات بمحمد ﷺ وتفرقها في كتبهم لم يستطيعوا إخفاءها كلها، وإن اجتهدوا لتمويهها وتأويلها، فلا تزال تدل على محمد ﷺ. ص ٨٦ من كتاب «مختصر إثبات نبوة محمد ﷺ» المكتبة الإسلامية، عمان ١٤٠٣ هـ.

المتبعة، والتي بواسطتها ينكرون نبينا محمد ﷺ.

وستدرج لنين منهجه أولاً ثم نصل إلى تطبيق هذا المنهج على بعض النصوص الدالة في أصلها على الرسول ﷺ.

فمن معالم منهجه أنه أخذ يعيد قراءة الكتب المقدسة بنصوصها الأصلية مرة بعد مرة^(١)، فوقف على أهم الحقائق التي غابت على القساوسة ولو حاول القساوسة اللاهوتيون النصارى معرفة حقيقة كتبهم المقدسة التي وردت أصلاً باللغة العربية بدلاً من ترجمتها، كما يفعل المسلمون الذين يقرءون قرآنهم بنصه العربي، لاتضح أن الله تعالى هو نفس الاسم القديم السامي للكائن الأعلى الذي أوحى وكلم آدم وجميع الرسل من بعده^(٢)، وفي ضوء هذا المنهج مضى ليتحقق من أن النبوءات الواردة بالكتاب المقدس تحققت بالحرف الواحد وصدقت على محمد ﷺ، وسنكتفي بعرض ثلاث منها بإيجاز:

النبوءة الأولى

ما ورد في التوراة «سفر التثنية الفصل الثامن عشر الجملة ١٨»: (أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه).

ويرى البروفيسور عبد الأحد أن هذه الكلمات ما لم تنطبق على محمد ﷺ فإنها تبقى غير متحققة، فالمسيح عليه السلام نفسه لم يدع أنه النبي المشار إليه، وكذلك يتطلع حواريوه إلى عودته؛ لكي تتحقق النبوءة وحتى الآن، فإنه من الثابت غير المنقوص أن الظهور الأول للمسيح لم يكن ليدل على ما جاء في الجملة (أقيم لهم نبياً مثلك)، وكذلك فإن عودة المسيح مرة ثانية لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات، وأن المسيح -كما تؤمن به كنيسته- سوف يظهر كقاضٍ وليس كمقدم للتشريع، بينما «الموعود» هو الذي يجيء حاملاً (الشريعة النارية المشعة بيده اليمنى)^(٣).

(١) محمد ﷺ في الكتاب المقدس ص ٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٣١.

النبوءة الثانية

الكلمات الواردة في التوراة في الفصل ٣٣ الجملة «٢» تنص على ما يلي: (وجاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير وتلألاً قدماً من جبل فاران، وجاء معه عشرة آلاف قديس، ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم.

ومن الثابت في رأي البروفيسور عبد الأحد أنه لم يكن لأحد من الإسرائيليين بمن فيهم المسيح عليه السلام أية علاقة بـ «فاران»، فإن «هاجر» مع ولدها «إسماعيل» هما اللذان سكنوا في قفار «فاران»^(١)، وكذلك فإن بيت الرب الذي يمجد اسمه فيه) المشار إليه في الإصحاح «٦٠» الجملة «٧»، هو بيت الله الحرام في مكة وليس كنيسة المسيح، كما كان يعتقد المفسرون المسيحيون.

وبحكم معرفته الواسعة بالتاريخ وتفاصيله، ووقوفه على أعداد المسلمين الذين دخلوا مكة المكرمة لفت نظره تحديد عدد العشرة آلاف فإذا قرأت جميع التواريخ المتعلقة بقفار «فاران» فإنك لا تجد أية حادثة أخرى غير هذه أمامك، وهي أنه عندما فتح النبي ﷺ مكة دخلها على رأس عشرة آلاف مؤمن من أتباعه في المدينة، ثم يعود إلى «بيت الله» ويده اليمنى الشريعة التي حولت جميع الشرائع الأخرى إلى رماد^(٢).

النبوءة الثالثة

وتحتوي على جملتين كل منهما تنص على اسم «أحمد» أو «حمدا Himda».

أ- الجملة الأولى (وسوف يأتي أحمد لكل الأمم - سفر حجي ٢-٧). والترجمة المحرّفة لبعض الكتب المقدسة في الإصحاح الثاني من سفر حجي هكذا تقول: (ويأتي مشتهى كل الأمم)^(٣).

(١) المرجع نفسه ص ٣٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩.

وذكر الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء ص ٣٩٧/٣٩٨» أنه سأل زميله المستشرق نيلينو أثناء زمايتها بدار العلوم بالقاهرة عن معنى «الفارقليط» فأجاب: القسيس يقولون: إنه المعز، ولما ضيق عليه الخناق باعتباره خبيراً باللغة اليونانية أقر أنه أفعل التفضيل من فعل «حَدَّ».

ب- الجملة الثانية ونصها: (ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمدا Himda لكل الأمم، وسوف أملاً هذا البيت بالمجد.. كذلك قال رب الجنود، ولي الفضة ولي الذهب هكذا يقول رب الجنود، وإن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول هكذا يقول رب الجنود، وفي هذا المكان أعطي السلام هكذا يقول رب الجنود).
الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة ٧-٩

ويرى البروفيسور عبد الأحد خطأ ترجمة كلمتي «حمدا» و«شالوم» من أنها «الأمنية والسلام»^(١)؛ لأن النبوءة على ضوء هذه الترجمة تصبح لا شيء أكثر من همس غامض مبهم ولا يفهم معناه، ثم يقول: (ولكن إذا فهمنا المقصود من التعبير بكلمة «حمدا» بأنه فكرة ثابتة عن شخص أو عن حقيقة واقعة، وإذا ما فهمنا المقصود من كلمة «شالوم» بأنها ليست حالة مشروطة؛ بل هي قوة فعالة وديانة رسمية ثابتة ومعترف بها، وعندئذ لا بد من اعتبار هذه النبوءة على أنها صادقة لا إنكار فيها، وأنها مطابقة لشخصية «أحمد» ويعتته بالإسلام؛ ذلك لأن كلمتي «حمدا» و«شالوم» أو «شلاما» تؤديان بدقة نفس الدلالة والأهمية لكلمتي «أحمد» و«الإسلام»^(٢).

ويرى البروفيسور عبد الأحد أن اسم «أحمد» هو أول اسم علم عرف بهذه الصيغة في تاريخ البشرية، وهو بحسب اعتقادي أعظم معجزة جاءت لصالح الإسلام^(٣).

(١) ويقول البروفيسور: (ولقد قمت بترجمة هذه الفقرة المذكورة من النسخة الوحيدة من الإنجيل الذي كان بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنة عم لي، والنسخة هذه هي باللغة الوطنية الدارجة حينذاك؛ ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس، والتي نجد أنها ترجمت عن الأصل العبري «حمدا» إلى «الأمنية» وكلمة «شالوم» إلى السلام. ص ٥٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٠ ويقول ص ٥٢: (أما فيما يتعلق بأصل هذه الكلمات وتاريخها ومغزاها «شالوم» و«شلاما» بالعبرية، وفي العربية «سلام» وإسلام، فإنه لا حاجة بي لأن أعيق تسلسل القارئ في تفكيره؛ فأجره إلى تفاصيل لغوية؛ لأن أي عالم في السامية يعرف تماماً أن «شالوم» و«إسلام» هما كلمتان مشتقتان من أصل واحد، وتعنيان نفس المعنى، وهو السلام والإذعان أو الاستسلام).

(٣) المرجع نفسه ص ٥٤، وقد برهن على أن الفقرة ١٣/٢ من إنجيل «لوقا» (المجد لله في الأعلى وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة) أصلها هكذا: (المجد لله في الأعلى، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد) في الترجمة اليونانية. ويُنظر تعليق عبد الوهاب طويلة بكتاب «الرسالة السبعية بإبطلال الديانة اليهودية» للخبز إسرائيل بن شموئيل الإسرائيلي، ط. دار القلم بدمشق ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

هذا وقد سبق أن قلنا في الفصل الأول: إنه لا بد من القدوة الكاملة في اجتياز طريق الحياة الإنسانية، وقد تحقق ذلك في الإسلام باعتباره خاتم الأديان ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وخص الله ﷺ محمدًا ﷺ وحده - كخاتم النبيين - بوصفه «الأسوة الحسنة» فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ونعود ههنا لاستكمال إحدى الحلقات في موضوع النبوة، فنظهر البراهين الدالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ مستخدمين في ذلك طريقتي عالين من علمائنا؛ أحدهما شيخ الإسلام ابن تيمية (فيما بين القرنين السابع والثامن الهجريين: ٦٦١-٧٢٨هـ) والثاني الأستاذ محمد لطفي جمعة في العصر الحديث.

ونلاحظ أن الأول استخدم مصطلحات عصره المنطقية «المسلك النوعي» - الشخصية، بينما استخدم الثاني علوم العصر كالاقتصاد والأخلاق والنفس في صد حملات التهجم والتشكيك، مستمسكًا ومعتزًا بعقيدته الإسلامية، ومتحدثًا كتابات المستشرقين من اليهود والنصارى وتلاميذهم من المتغربين والمفتونين والملحدون العصريين، كذلك لا بد من التنويه بمنهج العالم الفرنسي موريس بوكاي الذي عرضنا بعض لمحاته بأحد فصول الكتاب، وهكذا تبقى طرق الاستدلال العقلية والعلمية متاحة في كل العصور متضافرة لتجلية الحق.

المدخل العقلي لصدق نبوة محمد ﷺ

لقد حصّ القرآن الكريم على التفكير في أمر النبي ﷺ، واستخدم ميزان العقل للثبوت من صدق نبوته عليه الصلاة والسلام؛ تدبروا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَحِيدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مثنًى وَفَرَادًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: أي قيامًا خاصًا لله بلا محاباة ولا مراعاة اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا «ثم تفكروا» أي في أمره ﷺ وما جاء به من الهدى وإصلاح الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ما هو أحط منها من الأوثان، إلى عبادة فاطر السموات والأرض، واتباع الأحسن ونبذ التقاليد وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرءوسين رغبة في

الإخاء والمساواة إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة في الكتب المؤلفة في ذلك. وقوله تعالى: ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ أي: جنون. مستأنف منه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقل كافٍ في ترجيح صدقه... والتعبير عنه ﷺ بـ «صاحبيهم» للإيحاء إلى أن حاله معروف - مشهور بينهم؛ لأنه نشأ بين أظهرهم - بقوة العقل، ورزانة الحلم وسداد القول والفعل ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وهو عذاب الآخرة والمآل^(١).

كذلك الرسول ﷺ أيضًا عندما أعلن نبوته عقب صدور الأمر الإلهي إليه، استند إلى دليل عقلي، فقد ألقى إليهم سؤالاً أولاً - كما سيأتي - حتى يقرروا بأمانته وصدقه... أي المقدمة التي سببني عليها النتيجة، فلما أقرروا أعلن عليهم النبأ.

فقد نفذ الأمر الإلهي ﷺ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فصعد على الصفا فجعل ينادي لبني قريش حتى اجتمعوا فسأهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، كتتم مصدقي؟». قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»^(٢).

والحديث عن نبوة محمد ﷺ يتشعب بنا إذا لم نحصر حديثنا في جانب واحد من السيرة؛ لأنها أجل وأعظم من أن يحاط بها مؤلف أو مؤلفات على سعتها، فما من مؤلف من مؤلفات السيرة إلا جاء معبراً عن أحد جوانبها دون الإحاطة بها جميعاً. وفي نطاق بحثنا المحدود سنختار مقتطفات من الأدلة على صدق نبوته ﷺ، منها وأولها معجزة القرآن الكريم التي عجز البشر وسيعجزون حتى قيام الساعة أمام التحدي الإلهي ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة: ٢٤].

وإننا واجدون في إثبات النبوة نفس الطريقة التي يمكن بها أن تثبت أنواعاً من العلماء في البشر كالأطباء والفلكيين والأدباء والشعراء والنوابغ في ميادين المعارف

(١) القاسمي: محاسن التأويل، جـ ١٤ ص ٤٩٦٦، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، وعيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) ابن الوزير البيهقي: الذب عن سنة أبي القاسم صلوات الله عليه جـ ٢ ص ١٣١ المطبعة السلفية.

والعلوم المختلفة، فما من أحد يدعي العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة، والنبوة مشتملة على أشرف العلوم والأعمال^(١).

والمسالك للاستدلال على النبوة بالأدلة العقلية، نختار منها مسلكين، ومصدرنا شيخ الإسلام ابن تيمية مع الاختصار:

الأول: المسلك النوعي

وبه استدلل النجاشي على نبوته ﷺ، فإنه لما استخبر الصحابة القادمين عليه فرارًا بدينهم من قريش عما يخبر به، واستقرأهم القرآن قال بعد سماعه لبضع آيات من سورة «مریم»: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة؛ أي أنه عرف أن طبيعة الكلام تدل على وحدة المصدر، وبنفس الطريقة سبقه إلى ذلك ورقة ابن نوفل، عندما هرعت إليه السيدة خديجة رضي الله عنها تسأله عن حقيقة ما حدث للنبي ﷺ فأجاب قائلاً: (هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى عليه السلام).

الثاني: المسلك الشخصي

وبه استدلل هرقل ملك الروم عندما وجه أسئلته إلى أبي سفيان وهو حينئذ من أشد الناس بغضًا وعداوة للنبي ﷺ وموجز هذه الأسئلة هي:

- ◀ هل كان في آباءه ملك؟ فأجاب بالنفي.
- ◀ هل قال هذا القول أحد قبله؟ فأجاب بالنفي.
- ◀ هل هو ذو نسب فيهم؟ فأجاب بالإيجاب.
- ◀ هل يتهمونه بالكذب؟ فأجاب بالنفي.
- ◀ هل اتبعه ضعفاء الناس؟ فذكر أن الضعفاء اتبعوه.
- ◀ هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكر أنهم يزيدون.
- ◀ هل يرجع أحد عن دينه سخطة له؟ فأجاب بالنفي.

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ص ٨٢ وما بعدها.

«هل قاتلوه؟ فأجاب بالإيجاب.

«ما طبيعة الحرب بينها؟ فأجاب بأنه يدل على أعدائه المرة والعكس مرة أخرى.

«هل يغدر؟ قال: لا.

وكان هرقل يسأل أبا سفيان طالبًا عن معه من تجار قريش إن كذب أن يكذبوه، فوجدهم موافقين له في إجاباته، وأخيرًا سألهم: بماذا يأمركم؟ قالوا: (يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وبنهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة).

ثم بيّن لهم في النهاية دلائل أسئلته، فقد سألهم عن أسباب الكذب وعلاماته فراه متفتيًا، وسألهم عن علامات الصدق فوجدها ثابتة، إذ لو كان في آباءه ملك لقال رجل يطلب ملك أبيه، كذلك فإن تفرده ﷺ بدعوته يدل على أنه بخلاف ما هو معتاد من اتباع الرجل لعادة آباءه واقتدائه بمن كان قبله - وهذا يحدث كثيرًا في المجتمعات الإنسانية - أما إذا طلب أمرًا لا يناسب حال أهل بيته فإن هذا نادر في العادة؛ لكنه قد يقع، ولهذا أردفه بالسؤال عما إذا كانوا يتهمونه بالكذب، فلما علم صدقه قال: إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله، ثم أردف ذلك بالسؤال عن علامات الصدق، فمن علامات الرسل اتباع الضعفاء لهم.

وسألهم هل يزيدون أم ينقصون، فقالوا: بل يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألهم: هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه، وأيقن من إجابتهم بالنفي أنه نبي؛ لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلم أن من علامات صدق نبوته ﷺ أن أتباعه يزيدون ولا ينقصون؛ لأن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر فيرجع أصحابه عنه، فالتنبي الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة.

وفي الحرب علم أنه تارة يغلب كما غلب يوم بدر وتارة يُغلب، وكذلك الرسل تُبتلى وتكون العاقبة لها فإن سُنَّة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يتليهم بالسراء والضراء؛ لينالوا درجة الشر والصبر، كما علم من إجابتهم أنه لا يغدر فكذلك الرسل فإنها لا تغدر أصلًا إذ الغدر قرين الكذب، وتعرف على صدقه أيضًا من أمره ﷺ بعبادة الله وحده والصلاة

والصدق والعفاف والصلة، وبنهاهم عما كان يعبد آباؤهم وهذه صفة النبي.

وعلق هرقل في النهاية بقوله: (وقد كنت أعلم أن نبيًا يُبعث، ولم أكن أظن أنه منكم ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما يقول حقًا فسيملك موقع قدمي هاتين)^(١).

ونضيف إلى ذلك أن الأدلة العقلية والمنطقية والتاريخية - وما لها ارتباط بعلم النفس والاجتماع والأخلاق - كلها تؤيد أنه النبي الصادق حقًا، وإن كان هذا يتطلب دراسة قائمة بذاتها كما فعل كثير من كبار علمائنا^(٢) إلا أننا نختصر هنا الكلام اختصارًا؛ لكي نبرهن على أن المدخل العقلي للعقيدة الإسلامية يتجلى في آياته القرآنية، وصدق رسوله ﷺ إذا ما نظرنا إليه بعين الإنصاف والتجرد للبحث عن الحق.

كما تحدثنا من قبل عن تعذر الإحاطة بسيرة الرسول ﷺ في كتاب، فما بالنا بعدة صفحات؟

ومع هذا فإنه مما يتصل بدراستنا فحص الآراء التي يلف حولها بعض كتاب الإفرنج ويدورون، لنخرجهم من هذه الدائرة المضللة إلى نور الحق وضياته، وهذه الآراء لا تخرج في مجملها عن محاولتهم - بطريقة فجأة، بل مضحكة - إما اصطناع صلة بينه ﷺ وبين الأديان والثقافات السائدة حينذاك في بيئته أو المساس بالقرآن الكريم أو النيل من صفاته الشخصية ﷺ.

وبمراجعة صفحات كتب السيرة، سنجد - بحمد الله تعالى - ما سبقنا به علماءنا من مواجهة حاسمة مفحمة لكل ما دندن حوله أعداء الإسلام، وكانت نتيجة المواجهة في صالح الحق والعدل.

(١) ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية من ص ٨٢-٨٦، مطبعة الكردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٩هـ.

(٢) منهم الأستاذ محمد لطفي جمعة - الذي رجعنا إليه في هذه الصفحات - مع العلم بأن كتابه في السيرة يمتاز بأنه نتاج اطلاع واسع وغزير جدًا - يكاد لا يبارى في العصر الحديث - مع عمق دراسته تحليلاً ومقارنة وردًا على علماء الإفرنج، ويقع كتابه في نحو ١٠٥٧ صفحة من القطع الكبير، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م بعنوان: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله.

وسنعرض لهذه الآراء بحسب ترتيبها:

١- الثقافة في البيئة المكية.

٢- اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث.

٣- خلقه ﷺ

١- الثقافة في البيئة المكية

ومن هذه الأدلة أن العرب كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم، ومبادئ التشريع وعلوم الفلسفة، وأن مكة عاصمة دولتهم وقاعدة دينهم ومقر كعبتهم ومثوى زعمائهم ورؤسائهم وملتقى الشعوب والقبائل للتجارة والحج والمفاخر بالفصاحة والبلاغة والشعر والخطب، لم يكن بها مدرسة ولا مكتب ولم يوجد بها كتاب مخطوط، فكيف يهياً لرجل مثله، وفي مثل هذه البيئة الجاهلة، أن يجيء بدين تام وكامل، وشرع عادل عام^(١).

إن الدراسة المقارنة للعقائد والأديان والنظم تصل بالباحث إلى سمو المعتقدات والأحكام والعبادات والآداب التي جاء بها محمد ﷺ، ولم يكن من الممكن أن يصل إليها عقله وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية، فيتعين أن يكون ذلك بوحي من الله تعالى، ثم إن ما جاء به من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم وديانهم كان أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره، فيتعين أن يكون وحيًا.

ولو كانت النبوة أمرًا كان يرجوه محمد ﷺ، وكان قد أتم استعداد له باختلافه وتعبده - كما يزعم ذلك بعض المستشرقين - ما كان قد حدث له ما حدث من رجفة هائلة ولما عاد إلى زوجته مرتجفًا تصطك أسنانه وترتعد فرائضه ويسيل عرقه، بل كان ينزل إلى أهله فرحًا طروبًا متشجعًا غير هيب ولا وجل، مثل كل رجل يجد الأمر الذي يسعى إليه ويطلبه.

ولكن الذي حدث أنه بعد نزول سورة «العلق» انقطع عنه الوحي ثلاث سنوات

(١) محمد لطفي جمعة: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء، ص ٥٤٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩ م.

تباعاً، وكان في هذه الأعوام الثلاثة - وهي التي يسمونها فترة الانقطاع - ساكنًا هادئًا لم يتل فيها على الناس سورة ولا آية، ولم يدع أحدًا إلى شيء ولا تحدث إلى أهله ولا إلى أصدقائه بشيء؛ لأنهم لم ينقلوا عنه شيئًا، فهذا السكون وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه.

أما قصة بحيرا الراهب فقد ضعفها بعض العلماء - أمثال عبد العزيز بن راشد النجدي ورشيد رضا ومحمد لطفي جمعة - لأن الروايات الخاصة بها ضعيفة الإسناد، إلا رواية الترمذي وليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن، وليس في شيء منها أن محمدًا ﷺ سمع من بحيرا شيئًا عن عقيدته أو دينه، ولم يكن بحيرا - إن وجد حقيقة - ساذجًا إلى درجة أنه فاتح صبيًا صغيرًا بمثل هذه الأسرار العليا.

ومن أبعد الروايات عن الإقناع، ادعاء خصوم الرسول ﷺ أنه تلقى ما تلقاه من حداد رومي بمكة، فمن المضحك ألا يجد النبي ﷺ معلمًا إلا في شخص الحداد، ولعل محمدًا كان يراه في السوق فيقف عليه ليرى صنعته، ولم يفقه لغته ولا يمكنهما التفاهم؛ ولذا جاء في القرآن ﴿لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]

وبالجملة لم يجد النقاد شخصًا يليق في مكة بأنه يكون أستاذًا لمحمد؛ لأن مكة بها يهود ونصارى من طبقة العبيد والرقيق لسادتهم العرب؛ لأن رؤساء قريش لم يكونوا يسمعون لأحد من ذوي الشأن من النصارى أو اليهود أن يقيموا في مكة، وهي حرمهم المقدس الخاص بأوثانهم، وإن كانوا يتساهلون مع خدمهم وعبيدهم؛ لأنهم في حاجة إليهم، وهؤلاء كانوا من طبقة نازلة؛ ولكنهم جهلاء ولا يُتصور أن محمدًا ﷺ ينتزل أو يتدل إليهم ليتلمذ أو يتلقى عنهم رسالته^(١).

ومما يدحض أيضًا هذه المفتريات الصادرة عن خيالات كتابها أن ندرس تاريخ رسالة الأنبياء ﷺ منذ إبراهيم عليه السلام مع التخلص من الروح العنصرية في البحث؛

(١) وينظر د/ محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم - دار القلم بالكويت ص ٦٤/٦٥ ط

لذلك فإن استيعاب هذا التاريخ بنظرة شاملة كلية يتطلب - كما يرى جارودي - التخلي عن النزعة الغربية الإقليمية الضيقة واستيعاب ما جاء به الأنبياء ﷺ الذين أكملوا رسالة إبراهيم، عليه وعلى نبيتنا الصلاة والسلام.

ويستطرد فيلسوفنا قائلاً: وحينئذٍ يتاح لنا أن نفهم أسباب استبدال المسيحية الناهضة باليهودية المتحجرة، كما يتاح لنا أن نفهم السبب الذي من أجله أصبحت المسيحية خيالية مشوهة، بفعل سياسة الإمبراطور قسطنطين، تلك السياسة التي قلبت المسيحية رأساً على عقب، إن مفهوم نظام الكهنوت الروماني المنشأ، والذي صُنِعَ فيما بعد بصيغ يونانية ثم أقره مجمع «نيقيا» كعقيدة روحية لاهوتية، والذي سرعان ما تصدّع وتشطّط إلى شيع عديدة لم يستطع أن يقاوم البديل التاريخي وهو الإسلام^(١).

أي: إنه ﷺ جاء بعقيدة ليصحح العقائد التي انحرفت على أيدي اليهود والنصارى بعد إبراهيم عليه السلام.

فكيف يقال إنه جاء مقلداً لهذه الانحرافات، أخذاً عنها؟

٤- اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث

يقول أحد كتاب السيرة المعاصرين: إنني أتخذ من الاختلاف في الأسلوب بين القرآن والحديث دليلاً علمياً وعقلياً وأدبياً على صحة الوحي، ويشرح ذلك بالرد على الزاعمين انتحال الرسول ﷺ القرآن لنفسه، إذ لو فعل ذلك؛ لكان أدعى إلى الفخر والمباهاة والشهرة وذبوع الصيت؛ لدلالته على القدرة الباهرة في نظم الكلام وتأليفه والاطلاع على علوم الأولين والآخرين، وأيضاً الوقوف على أسرار الكون والعالم بما لم يسبق لأحد من الحكماء والمشرعين من قبل؛ ولكن هذا الكذب لا تقبله نفس محمد ﷺ ولا ترضاه سيرته ولا يتحملة ضميره فضلاً عن أنه لو كان القرآن هو كلامه ما تمكن من التفكير في أسلوب آخر ينطق به في أوقات أخرى؛ خصوصاً أن القرآن كان يأتيه ويهبط عليه في أحوال شاذة من كرب وضيق وعرق ورجفة، وقد تواتر الصدق في رواية صفته عندما كان يجيء الوحي على هذه الحال، وهي حال استثنائية لا يمكن فيها للكاتب أو المفكر أو

(١) جارودي: ما يعد به الإسلام ص ٢٤٠.

الشاعر الذي أحوج ما هو إليه أن يملك زمام نفسه واعتدال مزاجه، في حين أن حديثه وجوامع كلمه ومواعظه ونصحه كان ينطق بها وهو على أشد ما يكون راحةً وهدوءاً وسلامة بدن وسكون بال^(١).

ويقرر الأستاذ محمد لطفي جمعة - بعد الاستشهاد بأقواله وخطبه وحكمه التي ملأت الآفاق وأصبحت من السنن التي شرعها الله تعالى على يديه - أن من أقوى الحجج على صدق الوحي المحمدي وأوضحها وأجلاها وأظهرها أن حديث النبي ﷺ الصحيح وجوامع كلمه وحكمه الوجيزة الصائبة وأجوبته المقنعة - وقد سارت كلها مسير المثل، وقيلت بجملتها عفو الساعة - دالة على حضور بديته وصفاء نفسه وقوة ذهنه، كانت جميعها تختلف اختلافاً بيناً عن ألفاظ القرآن ومعانيه^(٢).

٣. خلقه ﷺ

فإذا صعّدنا النظر إلى خلقه ﷺ سحرتنا الآيات الباهرات بحيث يصدع لها كل إنسان سليم الفطرة، خلا قلبه من الدغن وشهوات الهوى والزيف، وابتحث في سيرته فلا تجد إلا كل خلق عظيم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وقد تفرّد بهذا الوصف بلا منازع دون الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - وعن الرحمة في قوله ﷺ: ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فَاعِلًا لِّمَا يُشَاءُ لَآتَىٰ السَّمْعَ أَلْفًا مِّنْ أَلْفٍ ﴾ [آل عمران: ٤١]، قال: هذا خلق محمد ﷺ، نعمته الله ﷻ وسئلت السيدة عائشة رضي عنها عن خلقه فقالت: القرآن^(٣).

وستختار في هذا الحيز ثلاثة نماذج فقط من بين مئات الشواهد الدالة على خلق النبوة الحقّة، وهي التي أوردها الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم»:

١ - جلست جاريات يضربن بالدف في صبيحة عرس، وجعلن يذكرن آباءهن شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبي يعلم ما في غدٍ فقال ﷺ: « لا تقولي هكذا،

(١) انظر محمد لطفي جمعة: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ﷺ ص ٥٤٧ - ٥٥٠ - ٥٥٨، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٩ م.

(٢) نفس المصدر ص ٥٧٤.

(٣) الأصبهاني: أخلاق النبي ﷺ وآدابه ص ٢٠. تحقيق أحمد محمد موسى، مكتبة النهضة المصرية

وقولي ما كنت تقولين» رواه الإمام البخاري، ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٢- وكان عبد الله بن أبي السرح، أحد النفر الذين استثناهم النبي ﷺ من الأمان يوم الفتح لفرط إيذائهم للمسلمين وصددهم عن الإسلام، فلما جاء النبي لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان ؓ ثلاثاً، ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كفت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: هلا أمأت لنا يا رسول الله. فقال ﷺ: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين». رواه أبو داود والنسائي.

٣- ولما توفي عثمان بن مظعون ؓ قالت أم العلاء «امرأة من الأنصار»: رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك، لقد أكرمك الله فقال ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟». فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ قال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إنني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي». قالت: فوالله لا أزكى أحداً بعده أبداً. رواه البخاري والنسائي. ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

لم يتخفَّ إذن وراء الدهاء أو السياسة ولم يسمح لنفسه بأن يقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت، وهو لا يخشى من يراجع فيه، أو حكم التاريخ عليه، إذ منعه خلقه العظيم وتقدير المسؤولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١ ﴿فَلَنَقْصِّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

ومهما جال الباحث في صفحات السيرة النبوية فلن يعثر إلا على الصفاء والصدق والإخلاص في كل قول من أقواله ﷺ، وفي كل فعل من أفعاله، بخلاف سيرة صنوف البشر جميعاً، إذ ترى الناس يدرسون حياة أساطين الفكر والأدب والفن والشعر، فتعطينا صوراً معبرة عن عقائدهم وعوائلدهم وأخلاقهم وأساليب معيشتهم، ولا يمنهم زخرف الكلام والشعر وطلاؤه عن استنباط دخالهم والكشف عن حقيقة سرائرهم، ذلك أن للحقيقة قوة غلبة تنفذ من حجب الكتمان فتقرأ بين السطور وتعرف في لحن القول، ومهما تصنع الإنسان العادي فلا يخلو من فلتات في قوله وفعله تنم على طبعه، ما

عدا سيرة النبي الصادق عليه السلام، إذ كان الناظر إليه إذ حسنت فراسته يرى أخلاقه العالية تلوح في مجاهه، ولو لم يتكلم أو يعمل؛ ولهذا شرح الله صدر الكثيرين دون أن يسألوه، منهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته: قالت له السيدة خديجة عند بدء الوحي تطيباً لنفسه المكروبة بهذه الكلمات الدالة على صدق حدسها فوصفت خلاصة أخلاقه: (أبشر يا بن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

وكذلك منهم الغريب الذي عرفه بسماه في وجهه، قال عبد الله بن سلام عليه السلام: (لما قدم رسول الله عليه السلام المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: «قدم رسول الله، قدم رسول الله» فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله عليه السلام عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب) رواه الترمذي بسند صحيح^(١).

(١) انظر د/ محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ٣٢: ٣٥، دار القلم، الكويت «نظرات جديدة في القرآن» ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

الفصل الثامن

مجمل البرهان على ظهور الإسلام

جاء بكتاب «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] قوله: يصح أن يكون من البروز وأن يكون من المعاونة والغلبة أي: ليغلبه على الدين كله^(١).

وفسّر الشيخ عبد الجليل عيسى الظهور في الآية الكريمة بأن: يعليه بقوة البرهان، وسلامة التعاليم^(٢).

وسيتضح الظهور بالبرهان بأوضح بيان إذا ما ختمنا بحثنا باقتطاف بعض ثمراته بعد المقارنة بين الإسلام والأديان بمنهج موضوعي. ونلخص أوجه البرهان في المزايا التالية^(٣):

أولاً: التوثيق العلمي للمصادر

ظهرت في القرن التاسع عشر بأوروبا ثورة ثقافية سُمّيت بظهور فن النقد الأعلى «Higher Criticism» والأثر المباشر لهذا الفن كان بمثابة اعتراف بالقرآن دون كتب الملل الأخرى ككتاب ثابت تاريخياً^(٤).

إن كل من يتتبع خطوات وإجراءات حفظ القرآن حفظاً في الصدور وكتابة وتدويناً يستطيع أن يستوثق بشكل كامل أنه لا توجد ثغرة ينفذ منها أي طاعن.

يقول مايكل هارت: والقرآن الكريم نزل على الرسول ﷺ كاملاً، سُجِّلت آياته وهو ما يزال حياً، وكان تسجيلاً في منتهى الدقة، فلم يتغير منه حرف واحد، وليس في

(١) المفردات ج ٢ ص ٤١٤ مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.

(٢) المصحف الميسر، الشيخ عبد الجليل عيسى، دار الشروق سنة ١٣٩١ هـ ط. ٥.

(٣) وقد سبق نشرها بكتابنا «أضواء على ثقافة المسلم المعاصر» ط. دار الدعوة بالإسكندرية ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م، نعيدها هنا لصلتها الوثيقة بعلم مقارنة الأديان.

(٤) واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام، وحيد الدين خان، ص ٢٥٧ ترجمة د/ سمير عبد الحميد، دار

المسيحية شيء مثل ذلك، فلا يوجد كتاب واحد مُحكَّم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن الكريم^(١).

ومن هنا فلا سبيل أيضًا إلى تشبيهه - كما يقرر الدكتور حسن ظاظا العالم المتخصص في دراسة اليهودية - من قريب أو بعيد بالنصوص المقدسة التي بين أيدي اليهود، فالعهد القديم استغرق أجيالاً من الأنبياء المتعاقبين على طيلة ألف سنة تقريباً، كذلك المشنا والتلمود استغرقتا ألفي سنة وهي فترة لا يمكن تصويرها مجتمعين متشابهين، أحدهما يلي طرفها الأول والثاني على طرفها الأخير^(٢).

ولا تسلم الأناجيل أيضًا من المطاعن باستعمال منهج النقد العلمي من حيث اتصال السند والتوثيق، فإن الإنجيل الأول المنسوب إلى «متى» كُتِب أولاً باللغة «الآرامية»؛ ولكن ليس لدى النصارى منه إلا الترجمة اليونانية بلا معرفة للمترجم وبلا سند كامل متصل: (وإنها يأخذون بالظن فيقولون: لعله فلان أو فلان ويتمسكون بقرائن لا تجزئ، مثل اتفاق هذه الكتب في بعض مضامينها وشهادة بعض تابعي الحواريين بوجود بعضها في القرن الأول والثاني، ثم اشتهاها في أواخر القرن الثاني وابتداء القرن الثالث، وهم يعتذرون عن ذلك بأنها كتبت في ظلال السرية؛ بسبب الاضطهادات التي حلت بأسلافهم)^(٣).

أما «الوقا ومرقس» فلم يريا المسيح ﷺ أصلاً، أما «متى ويوحنا» فمُختلف في رؤيتهما له، والمحققون يُرجِّحون عدم الرؤية^(٤).

وقد اتفق كُتَّاب المسائل النصرانية بدائرة المعارف الفرنسية - على أن التحقيق

(١) «الخالدون مائة، أعظمهم محمد ﷺ» ترجمة: أنيس منصور ص ١٧، المكتب المصري الحديث بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م.

(٢) الفكر الديني اليهودي، أطواره ومذاهبه ص ١٣، د/ حسن ظاظا، دار القلم، دمشق دار العلوم والثقافة، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م.

(٣) الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، عبد الوهاب طويلة ص ١٣٢ / ١٣٣، ط. دار السلام بالقاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م.

(٤) نفسه ص ١٣٤.

العلمي والتاريخي يؤكد أن هذه الأناجيل كتبها أشخاص غير الحواريين والتابعين الذين نُسبت إليهم^(١).

ثانياً: خلوة الإسلام من الكهنوت
يرجع ظهور الكهنة تاريخياً إلى مرحلة ظهور الأنبياء عند اليهود، فقد اشترك الكهنة مع الأنبياء حينئذ بادعاء الوحي وتقديم النصائح.

ولكن الفرق بينها هو بُعد الأنبياء عن المعابد، وانقطاع صلاتهم بالهيكل أو القرايين، ويتضح التمييز بأن الكهانة وظيفتها تعارض النبوة في كثير من الأوقات^(٢)، كما كان النزاع بينهما قائماً دائماً، حيث كان الكهنة يحقدون على الأنبياء؛ لتدخلهم في الشؤون الدينية محاولين الانفراد بهذا المنصب (وليس الخلاف الذي حدث بين عيسى ﷺ وكهنة الهيكل إلا حلقة من حلقات مماثلة بين الأنبياء والكهنة)^(٣).

ويتنسب الكهنة إلى أبناء ليفي -أحد أبناء يعقوب ﷺ- ولا يصلون إلى الكهنوتية إلا بعد تدريبات ومعرفة الطقوس والأسرار الدينية لإثبات الاستحقاق لهذا المنصب، ومن طريقهم تُقدّم القرايين كما تُقدّم لهم العشور من نتاج الضأن، وأصبحت ثروتهم مقدسة وشخصيتهم الوسيلة إلى الله، فصاروا أقوى من الملوك في كثير من الأحوال^(٤).

هذا، وقد كان المجتمع الكهنوتي الذي يدير شؤون اليهود الواسطة بين الناس وبين الله، فلا تُقبل التوبة ولا القرايين إلا إذا باركها الكاهن، وقد جاء عيسى ﷺ للقضاء على نفوذهم؛ ولكن للأسف أصبح القساوسة بعده يمثلون نفس الدور الذي مثله كهنة اليهود من قبل.

وجاء الإسلام ليُبطل ذلك كله، واستقرت في العقيدة الإسلامية حقيقة النبوة الصادقة، حيث أورد القرآن الكريم قصص الأنبياء والرُّسل وصفاتهم وأخلاقهم

(١) نفسه ص ١٣٥.

(٢) أبو الأنبياء ﷺ للعقاد، كتاب اليوم ١٩٥٣ م.

(٣) اليهودية د/أحمد شلبي ص ٢٠٢ مكتبة النهضة ١٩٨٨ م.

(٤) السابق ص ٢٠٣ باختصار.

ورسالاتهم، وتحققت في شخصية الرسول ﷺ صفات النبي الخاتم.

وبحسب اصطلاح أحد الدارسين لعلم مقارنة الأديان، يرى أنه (في الإسلام، كل إنسان هو كاهن نفسه، بمجرد أن يكون مسلماً، هو الإمام والخليفة في عائلته، وهذا انعكاس للجماعة الإسلامية كلها)^(١).

ثالثاً: المنهج الاستدلالي للإسلام مستمد من مصطلحه

بناءً على الدراسة المستوعبة للأدلة بالكتاب والسنة يستخلص ابن تيمية أن القرآن اشتمل على أصول الدين وعلى البراهين والآيات والأدلة اليقينية، والرسول ﷺ أنزل عليه الكتاب والحكمة؛ والحكمة كما فسرها غير واحد من السلف: هي السنة، أو هي معرفة الدين والعمل به؛ لذلك فإن الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين^(٢).

ويعتمد ابن تيمية في استنتاجاته على آيات من الكتاب؛ لأن الله تعالى علم الإنسان البيان، كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿ [الرحمن: ٤-١] وقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴿ [البقرة: ٣١] وقال: ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿ [العلق: ٥] والبيان: بيان القلب واللسان، كما أن الصمت والبكم في القلب واللسان، كما قال تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿ [البقرة: ١٧١].

والميزان التي أنزلها الله مع كتابه ميزان عادلة، تتضمن اعتبار الشيء بمثله، وخلافه فتسوى بين المتماثلين وتفرق بين المختلفين، بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف.

ولذلك يوصف هذا المنهج بأنه شرعي عقلي باعتبار أن الدليل الشرعي مستمد من الشرع، وأنه متفق مع العقل أيضاً، هذا فضلاً عن الصفة الجامعة للشرعية لمصالح الدنيا والآخرة، فهي جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشرعية إنما هي (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات

(١) الإيمان والإسلام والإحسان في مقارنة الأديان، فرحجوف شيثون ص ٧٢ ترجمة نهاد خياطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م.

(٢) مجموعة فتاوى ابن تيمية ج ١٩ ص ١٦٩ وما بعدها باختصار.

والأعمال والقياسات والأحكام والولايات والعطيات^(١) وظلت هذه القاعدة المنهجية ثابتة لم يمسهما تقلب الأزمان أو تعاقب العصور حتى عصرنا هذا، فقد قام في العصر الحديث موريس بوكاي «الطبيب النفسي الفرنسي» بدراسة مضامين الآيات القرآنية المتصلة بظواهر كونية، كخلق السموات والأرض، أو خلق الإنسان وأطوار حياته، منذ كونه جنيناً في بطن أمه، أو ممالك النبات والحيوان والطيور والحشرات أو الأرض بجبالها ووديانها وأنهارها ومحيطاتها وبحارها. واستخلص بوكاي من دراسته توافق القرآن مع معطيات العلم الحديث، مستبعداً تماماً اتصالها بمعلومات عصر التنزيل، ومؤكداً بالأدلة أنها تتضمن ما عرفه العلماء المتخصصون - كلٌّ في مجاله - في العصر الحديث، وبذلك أصبح الاستدلال بالقرآن الكريم نفسه من أنسب الطرق - بل أفضلها - للنفاذ إلى عقول أهل العصر الحاضر، الذي احتل فيه العلم ومنجزاته النصيب الوافر في حياة الإنسان.

يقول بوكاي: (إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنساني، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ).

وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنسان كيف استطاع في القرن السابع الميلادي من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟^(٢) أما الدارس لتاريخ النصرانية العقائدية فسيقف على منهج مخالف تماماً، إذ اعتمد رجال الكنيسة على الفلسفة اليونانية لشرح العقائد النصرانية؛ ففي كتاب «سقراط إلى سارتر» يقول المؤلفان: فالكتب المقدسة أصبحت تؤيدها تعاليم أرسطو «ذلك المسيحي الميتافيزيقي الذي لم يسمع بالمسيحية قط»، ويقصدان بذلك أن المسيحيين - وفي مقدمتهم القديس توما الأكويني - ألبسوه ثوب العقيدة، أو أنهم غلّفوا العقيدة النصرانية بفلسفته، وهذا بالضبط ما عنياه بقولها في الفقرة التالية من الكتاب نفسه. (لقد

(١) السابق ص ٣٠٨.

(٢) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم، موريس بوكاي، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩ م. ويُنظر

الصفحات من ١٦٣ إلى ١٧٤ من هذا الكتاب.

جاءت بفلسفة أرسطو من العالم الوثني إلى العالم المسيحي لتثبيت العقيدة الأساسية للفقهاء الكاثوليك... إن الأقباط الثاني «الكلمة» قد تجسّد في المسيح، فالصورة عند أرسطو هي ألوهية المسيح، والمادة عند أرسطو هي «لحمه» ويؤكد وجود الله «تعالى» لا عن طريق الإيمان القلبي بل عن طريق العقل... إنه الفيلسوف القديس يذود عن الدين بقوة البراهين الفلسفية^(١).

كذلك يذكر بارتولد أن مبشري النصارى اضطروا إلى استخدام الأدلة الفلسفية في نزاعهم مع الفلسفة الوثنية والفلسفة الغنوستية (ظهرت مذاهب دينية فلسفية متنوعة كان أعظمها في الإسكندرية وأنطاكية، فأما الذي في أنطاكية فيعتمد على أرسطو وأما الذي في الإسكندرية فيعتمد على أفلاطون)^(٢).

رابعا: المسلمون دينهم واحد

ويعني بذلك اتفاقهم على معرفة أصوله وأركانه وفرض العمل بها، وربما لا يعرف المسلمون هذه الميزة في دينهم إلا إذا قارنوا بين تصورهم لدينهم وتعريفهم له مع اختلاف مذاهبهم الفقهية وبين عقائد النصارى، فقد ظلت الحضارة الغربية محصورة وراء قضبان المفاهيم الدينية التي عرفتها منذ اليونان وهي:

١- دين اليونان والرومان.

٢- النصرانية.

٣- دين الإصلاح، وهو وصف لما أدخله لوثر على النصرانية.

٤- الدين الطبيعي، من اختراع أوجست كونت^(٣) وسُمي أيضًا بمذهب الألوهية الطبيعية، أي إقامة عقيدة على الأساس الطبيعي بالاستغناء عن الوحي والتعاليم المنزلة.

(١) من سقراط إلى سلزتر، هنري توماس ص ١٠٠، ١٠٤، ١٠٧ ترجمة عثمان نويه، الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ف. بارتولد ص ٤٧، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م.

(٣) الإسلام تشكيل جديد للحضارة، الأميني ص ٣١، ٣٤، ترجمة د/ مقتدى حسن ياسين، مراجعة د/ عبد الحلیم عويس دار العلوم بالرياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

وقد انعكست آثار هذا الخليط على التصورات والمفاهيم للدين مما يجعله مجموعة من الأفكار والنظريات تتزاحم فيه الموروثات من المجتمعات الوثنية اليونانية، وزادها غموضاً اختلاف النصارى في تصورهم للألوهية، والقصور في تعريف النبوة وتقديرها حق قدرها، ثم الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية بواسطة مارتن لوثر وكالفن وتعدد الأناجيل.

ولا نعثر على تلك العقبات في طريقنا للبحث في الإسلام، إذ لو أزاح الباحث عن نفسه عقبات العقائد الموروثة، ونحى عنها التعصب الديني وتحرر للبحث عن الحقيقة بإخلاص فسيسهل عليه الوقوف عليها من أكثر الطرق؛ لأنه بالرغم من تنوع طرق المسلمين ومذاهبهم - كما يذكر ابن تيمية - إلا أن دينهم واحد، كلٌّ منهم يعتقد ما يعتقدُه الآخر، ويعبده بالدين الذي يعبده، ويسوّغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع ... وتلخيص الأمر في هذا المقام إنما هو تفضيل قول وعمل على قول وعمل، بالأقوال والأعمال المختلفة لا بد فيها من تفضيل بعضها على بعض عند جمهور الأمة^(١).

ونأتي بشهادة نصر بن يحيى «المهتدي للإسلام، وكان قسيساً» إذ تحقق بنفسه أن اختلاف المسلمين يقتصر على فروع الدين، بعد اتفاق جماعتهم على إلههم ومعبودهم، وأنه ﷺ واحد لا شريك له ولا ولد له، خالق الخلق كلهم، ثم اتفاهم على نبيهم محمد ﷺ وعلى القرآن المجيد، وأنه كتاب الله المنزّل على نبيه ﷺ، لا يختلفون في ذلك (فإذا صحّ اتفاقهم على هذه الأصول كان ما سواها سهلاً لا يقع معه كفر ولا يبطل به دين، وإنما البلاء العظيم الاختلاف في المعبود)^(٢).

خامساً: ازدهار العقيدة الإسلامية في ضوء الاكتشافات العلمية

أحدث المذهب المادي - بسبب سلطان النظام الماركسي - بعض اليلبلة الفكرية في نظرية المعرفة، إذ افترض أن المادة الظاهرة أمامنا هي الحقيقة النهائية أو الوحيدة ولكن

(١) دقائق التفسير ج ٢ ص ٣٢٦ جمع وتحقيق: د/ محمد الجليند، دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٢) النصيحة الإيانية، نصر بن يحيى، ص ٥٥، تقديم وتحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

سرعان ما أسفرت البحوث العلمية عن تهافت هذا الفرض أمام عدّة براهين، نكتفي منها باثنين:

١- تطور الوسائل العلمية في البحث، واستخدام المخترعات الحديثة التي ضاعفت قدرات الأسياع والأبصار - كاللاسلكي والتلسكوب والمجهر - فتضاعفت الموجودات ما كان يعرفها الإنسان بإدراكاته الحسّية الفطرية وحدها، وفي هذا المجال يقول د/ أحمد زويل: (يقسم علماء الكيمياء والفيزياء الكائنات إلى كائنات مرئية وكائنات غير مرئية؛ الكائنات المرئية هي التي يمكن رؤيتها رغم اعتراف العلم بوجود حياة في هذه الكائنات لوجود أثر تدل عليه، فهي تتحرك وتتناسل وتموت...) إلى أن يقول: (استطعت تصوير حركة «الجزيء» التي تثبت بها لا يدع مجالاً للشك أن الجزيء كائن حي يعيش ويتنفس ويتحرك)، أي: إنه أثبت وجود حياة الجزيء باعتباره أهم مكونات الحياة وأصل «المادة»^(١).

وبهذا البرهان القطعي تحوّلت المادية إلى «خرافة»!

كذلك أثبت العلماء المتخصصون بتجارهم: (أن الحقيقة في شكلها الأخير غير قابلة للمشاهدة، ويمكن أن تُستنبط مظاهرها فقط)^(٢)، ويقرب لنا أحد العلماء هذا التصور بما تنص عليه الحقيقة الخامسة في ميكانيكا الكم أن (العالم يخضع لنوع من التفسير المنطقي مغاير للتفسير البشري له)^(٣).

٢- الاتجاه الملاحظ في التاريخ العلمي، وخلاصته أن القضايا العلمية أخذت منذ بداية هذا القرن طابع العموميات، وأصبحت النظريات المعتمدة سابقاً على الفرضيات والإدراكات الحسّية حالات خاصة ضمن نظريات أعم وأكثر شمولية، ويقول

(١) مقال بعنوان «العالم المصري أحمد زويل يعيد أجماد حضارة العرب الزاهرة» اكتشف زمناً غير زماننا المعهود، حصل به على أكبر وسام علمي في العالم، بقلم محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني، ص ٣٠ مجلة التصوف الإسلامي محرم ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام، وحيد الدين خان ص ٢٤٦.

(٣) الحقيقة المطلقة، الله والدين والإنسان، ص ١٢٣ د/ مهندس محمد الحسيني إسماعيل، مطابع الأهرام

الدكتور/ محمد الحسيني بعد سرده للتاريخ العلمي للنظريات: (فهناك إيمان الآن يكاد يكون مشتركاً بين جميع علماء الفيزياء بأننا نتجه بُخطى واضحة نحو نظرية شمولية واحدة كافية لتفسير جميع الظواهر أو الحقائق الكونية بل أصبحت تأخذ طابعاً غيبياً بدرجة كبيرة)^(١).

وما دام العلم قد أثبت استحالة مشاهدة الحقيقة في شكلها الأخير فإن ذلك يقوّض دعائم المذهب المادي من أساسه، ويعضد عقيدة الإسلام بالإقرار بأن الإنسان لا يمكن أن يشاهد الله ﷻ أو عالم الآخرة في الحياة الدنيا.

ونأتي أخيراً بشهادة أحد علماء الفيزياء المرموقين، حيث يشرح فكرة الخلق من العدم بأسلوب علمي، فيقرر أن عدداً متزايداً من علماء الكونيات يعتقدون اليوم أن القيمة الأكثر احتمالاً لكثافة المادة والطاقة في الكون هو القول بأن كتلة الكون تنتهي في مجموعها إلى الصفر على وجه التحديد، ويضيف إلى ذلك أنه (إذا كانت كتلة الكون هي الصفر فعلاً وهي يمكن التحقق منها إمبيريقياً «تجريبياً» فإن الكون يشارك حالة الخواء؛ أي خاصية «انعدام الكتلة» وظهر منذ عشر سنوات استقرار جود الذي يعتبر أن الكون عبارة عن تقلبات كمية للخواء، وهي حالة من اللاشيئية في المكان والزمان خُلقت من العدم)^(٢).

وهكذا جاءت الكشوف العلمية كالبيانات تفتح أعيننا على هذه الحقائق، وتمد العقائد الإسلامية بما يؤهلها للنفوذ إلى عقل الإنسان وهو يستقبل القرن الواحد والعشرين لها.

سارحاً: حقيقة النبوة ودلائل صدق نبينا محمد ﷺ

وستوسع في شرح الاستدلال على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، لكن نشير فقط هنا إلى أمرين:

(١) نفسه.

(٢) المسلمون والعالم، د/ محمد عبد السلام «حائز على جائزة نوبل» ترجمة د/ ممدوح كامل الموصل،

كتاب الغد بالقاهرة ١٩٨٦م.

(أ) إحدى بشارات الكتاب المقدس

فقد ورد في إنجيل يوحنا أن المسيح ﷺ قال: (إن أركون العالم سيأتي، وليس لي شيء).

والأركون بلغتهم - كما يذكر ابن تيمية - عظيم القدر، فقول المسيح ﷺ: «أركون العالم» إنما ينطبق على عظيم العالم، وسيد العالم، وكبير العالم.

(ب) بدوره ﷺ في تخيير العالم

ومن المعلوم باتفاق أهل الأرض - كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية - أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم، باطنًا وظاهرًا، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع في السر والعلانية، في محياه وبعد مماته، في جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقًا وغربًا أحد غير محمد ﷺ، فإن الملوك يطاعون ظاهرًا لا باطنًا، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعةً يرجون بها ثواب الله في الدار الآخرة، ويخافون عقاب الله في الدار الآخرة، بخلاف الأنبياء، وربما يأتي معارضون ليقولوا: إن وصف ابن تيمية صحيح في عصره وما قبله حيث ساد المسلمون العالم عسكريًا وحضاريًا وثقافيًا ونفوذًا، فأين هم الآن؟

وقد أجاب ابن تيمية ضمناً على هذا التعليق في تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

ورأى شيخ الإسلام أن ظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان، إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه، وذلك إنما يتم بالعلم بما ينقل عن محمد ﷺ من آياته التي هي الأدلة، وشرائعها التي هي المدلول، والمقصود بالأدلة، فهذا قد أظهره الله علمًا وحجةً وبياناتًا على كل دين، كما أظهره قوةً ونصرًا وتأييدًا على كل دين^(١).

أما قوله: (لم يأت بعد المسيح من ساد العالم، باطنًا وظاهرًا وانقادت له القلوب والأجساد... إلخ). فقد تأيد بالمنهج الذي اتبعه الباحث الأمريكي مايكل هارت بكتابه «الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ» حيث أجاب بدوره على الدهشة التي سيديها البعض بوضعه للرسول ﷺ على رأس القائمة فقال: (وربما شيئًا غريبًا حقًا أن يكون الرسول ﷺ

(١) الجواب الصحيح ج ٤ ص ٢٤٣. ابن تيمية.

في رأس هذه القائمة، رغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد المسلمين، وربما غريباً أن يكون الرسول ﷺ هو رقم واحد في هذه القائمة، بينما عيسى عليه السلام هو رقم ٣ وموسى عليه السلام رقم ١٦).

ولكن لذلك أسباب؛ من بينها أن الرسول ﷺ كان دوره أخطر وأعظم في نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى عليه السلام في الديانة المسيحية، وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق وهو أيضاً المسئول عن كتابة الكثير مما جاء في كتب «العهد الجديد».

أما الرسول ﷺ فهو المسئول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصوله الشرعية والسلوك الاجتماعي والأخلاق وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية، كما أن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده، وفي القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم^(١).

والكلام عن النبوة متشعب المسالك والطرق يقتضي الحديث عن التعريف بأنبياء الله تعالى ورسله وأدلة صدقهم وطبيعة رسالتهم وشرائعهم والحكمة من بعثهم والتميز بينهم وبين الأنبياء الكذبة أو الكهنة وغير ذلك من قضايا أخذت مكائنتها في كتب علماء المسلمين كأحد المداخل الرئيسية لمنهج دراسة الأديان والعقائد.

ولعل المختصر الذي أورده نجم الدين البغدادي «٧١٦هـ» يغنينا عن الإسهاب حيث عالج فيه:

١- حقيقة النبوة، فإنها وحي صادق، نافع للناس، تكشف عن الغيب الذي يعجز الإنسان بقدرته وملكاته الذهنية عن معرفته.

٢- وجودها: فلا منازع فيه عند أهل الملل الثلاث حيث إن الله تعالى أنعم على عباده بالنعم الكثيرة، وكلها دالة على رحمته وحكمته وعنايته، كوضع الحواس الخمس وباقي الأعضاء في جسم الإنسان مثلاً، فإن إرسال من يهديهم إلى طريق السعادة الأبدية، ويكف شر بعض بني آدم عن بعض لينظم أمرهم -أولى.

(١) ص ١٧ من كتاب «الخالدون مائة» ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٤م.

وما دَلَّ عليه التواتر أن جماعة من الرجال أعلنتوا أنهم رسل الله تعالى وأيدوا ذلك بمعجزات ظهرت على أيديهم.

فإذا ثبت بهاتين الحجتين إثبات نبوة الأنبياء والرسل فيها بعينها تثبتان نبوة محمد

ﷺ

ويضيف إلى ذلك البغدادي قوله: (أما الأولى فلأنه بُعث على فترة من الرسل طويلة، وقد أكل العالم بعضه بعضًا - خصوصًا العرب في جاهليتها وغاراتها - وكانوا يعبدون الأوثان، والنصارى: الصليبان، والفرس: النيران، وغير ذلك من المنكرات، فأزال الله به ذلك وأبدل الناس به خير ما ينبغي ...

وأما الثانية: فلأنه ثبت بالتواتر الكامل الشروط أنه ﷺ ادعى للنبوة وظهرت على يديه معجزات خارقة ... ثم توفى ﷺ على أوضح سنن، وأظهر طريقة، وأزكاها وأزهدا في الدنيا، ودعا الناس إلى ذلك ...) (١).

وقد عرض ابن تيمية للمعاني المتعددة لكلمة «الفارقليط»، ليستخلص منها أنها كلها تنطبق على نبينا ﷺ.

فإن معنى «الفارقليط» إن كان هو الحامد أو الحَمَاد أو الحمد أو المُعز، فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ فإنه وأمه الحَمَادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته.

وأما من فسره بالمعز فلم يُعرف قطُّ نبي أعز أهل التوحيد لله والإيمان كما أعزهم محمد «الله» فهو أحق باسم المعز من كل إنسان.

وأما معنى المخلَّص، فهو أيضًا ظاهر فيه فإن المسيح هو المخلص الأول، كما ذكر في الإنجيل، وهو معروف عند النصارى أن المسيح - صلوات الله عليه - قد سُمي مُخَلَّصًا، فيكون المسيح هو الفارقليط الأول، وقد بشر بفارقليط آخر فإنه قال: (وأنا أطلب من

(١) الانتصارات الإسلامية - في علم مقارنة الأديان - نجم الدين البغدادي الطوفي، ص ٤٩، دراسة وتحقيق د/ أحمد حجازي السقا، دار البيان بمصر سنة ١٩٨٣ م.

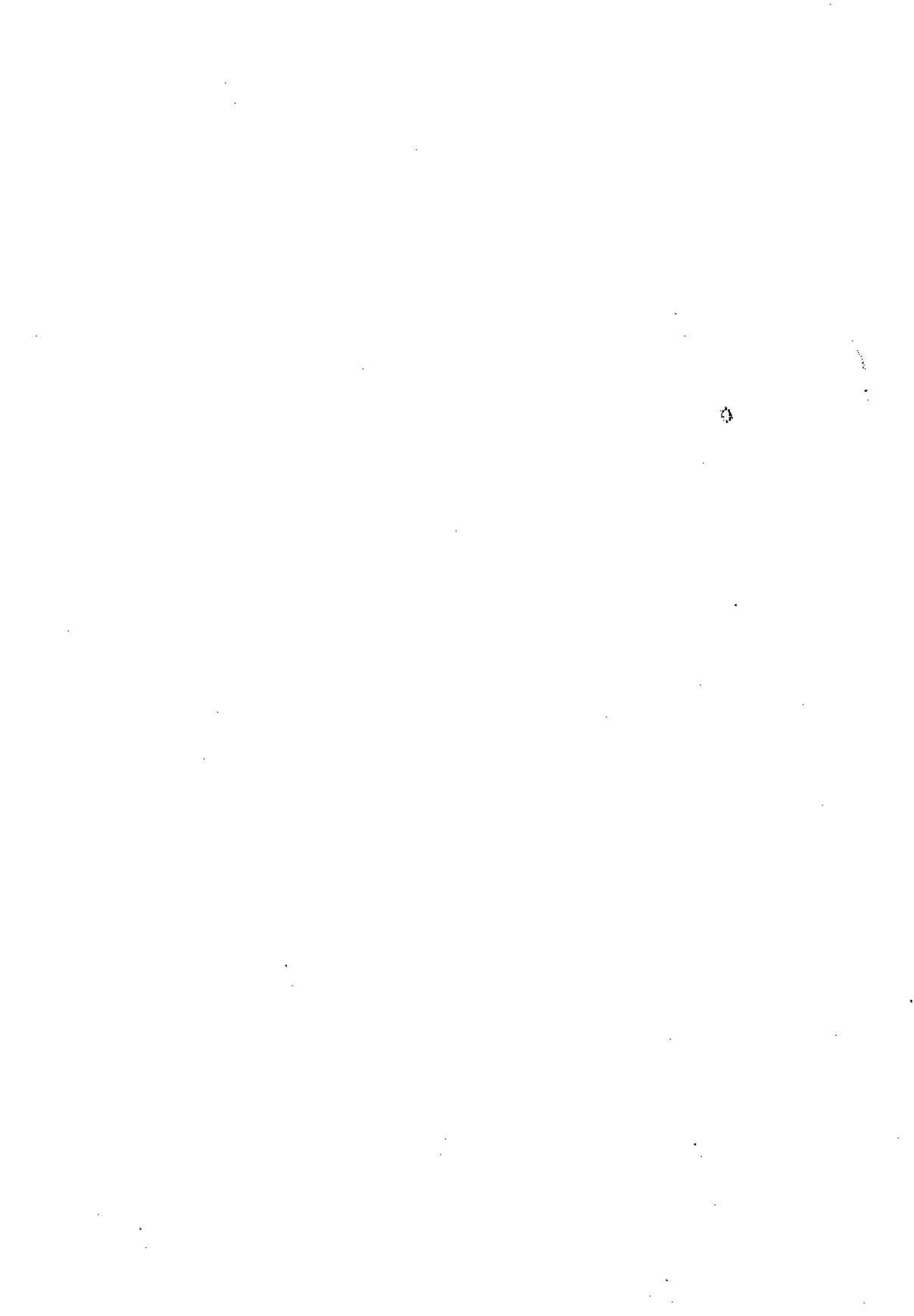
الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر، يثبت معكم إلى الأبد) فهذا بشارة بمخلص ثان يثبت معهم إلى الأبد، والمسيح هو المخلص الأول^(١).

سابقاً: إعادة الإنساق إلى وضعه الصحيح بعد انحرافات العقائد والفلسفات الأخرى فمع التأكيد على عظمته وكرامته، فإن الإسلام يقر بواقعيته وحقيقته، فلا يحاول أن يجعل منه ملاكاً، بل جعل الإنسان إنساناً (مع تحقيق التوازن في الغرائز، أو توفير نوع من التوازن بين الجسم والروح، بين الدوافع الحيوانية والدوافع الأخلاقية - هكذا من خلال الوضوء والصلاة والصيام وصلاة الجماعة والنشاط والملاحظة والنضال والتوسط - يواصل الإسلام عمل الفطرة في تشكيل الإنسان)^(٢).

تم الكتاب بحمد الله تعالى وتوفيقه

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح لابن تيمية ج٤ ص ١٦ ط. المدني بمصر.

(٢) ص ٣١٣ / ٣١٤ من كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب» الرئيس على عزت بيغوفيتش.



ثبت المراجع

(أ)

- ١- ابن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق د/ حامد ربيع، دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
- ٢- أبو المجد حرك، الفيلسوف المسلم، دار الفتح، مدينة نصر القاهرة ١٩٨٥م.
- ٣- د/ أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة ١٩٧٦م.
- _____ المسيحية _____ ١٩٦٥م.
- _____ اليهودية _____ ١٩٧٢م.
- _____ الحروب الصليبية _____ ١٩٨٦م.
- ٤- الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، سلسلة الثقافة الإسلامية ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م.
- ٥- الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، مراجعة وتقديم طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
- ٦- الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق/ محمد سيد كيلاي، طبعة الحلبي ١٣٨١هـ- ١٩٦١م.
- ٧- أنيس منصور، ديانات أخرى، دار الشروق ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- ٨- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، المختار الإسلامي سنة ١٩٧٤م.
- ٩- رسالة سيرة النبي الأمين ﷺ، إلى إنسان القرن العشرين، دار حراء، المحلة الكبرى ١٣٩٩هـ.
- ١٠- أحمد ديدات، العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق؟ ترجمة علي الجوهري، دار الفضيلة بمصر ودي ١٩٩٠م.

- ١١- أحمد عبد الغفار عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور.
- ١٢- أحمد ديدات، هل الكتاب المقدس كلام الله؟
- ١٣- ترجمة نورة أحمد النومان، مكتبة أبو القاسم، جدة.
- ١٤- المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان «بين الشيخ ديدات والقس سوجارت» جمع وترتيب د/ أحمد حجازي السقا، وتقديم الشيخ الغزالي، مكتبة زهران بالأزهر ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ١٥- أحمد إدريس، تاريخ الإنجيل والكنيسة، دار حراء بمكة المكرمة ١٩٨٧م.
- ١٦- المهندس أحمد عبد الوهاب، النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، مكتبة وهبة بمصر ١٤٠٠هـ-١٩٧٩م.
- ١٧- أنور الجندي، المخططات التلمودية اليهودية والصهيونية، دار الاعتصام ١٩٧٧م.
- ١٨- إبراهيم خليل أحمد، محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، مكتبة الوعي العربي بمصر.
- ١٩- إبراهيم خليل أحمد، إسرائيل فتنة الأجيال، مكتبة الوعي العربي سنة ١٩٧٠م.
- ٢٠- د/ إبراهيم فؤاد عباس، الماسونية تحت المجهر، دار الرشاد جدة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ٢١- ابن تيمية، الحسبة ومسئولية الحكومة الإسلامية، تحقيق/ صلاح عزام، دار الشعب بالقاهرة، فبراير ١٩٧٦م. النبوات، المطبعة السلفية بمصر.
- ٢٢- ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطبعة المدني بالقاهرة، بدون تاريخ.
- ٢٣- بُغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، تحقيق د/ موسى بن

- سليمان الدويني، مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٢٤- ابن مفلح، مصائب الإنسان من مكائد الشيطان، تحقيق/ علي رحمي، دار مرجانة للطباعة بمصر ١٩٨٠م.
- ٢٥- أبو الحسن الندوي، بين الدين والمدينة، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الأركان الأربعة، دار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧م.
- ٢٦- أسعد التميمي، زوال إسرائيل حتمية قرآنية، ط. المختار الإسلامي بمصر.
- ٢٧- اسينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم د/ حسن حنفي، ومراجعة د/ فؤاد زكريا المطبعة الثقافية ١٩٧١م.
- ٢٨- ابن حزم، الفصل الأول في الملل والنحل، مكتبة المثنى، بغداد.
- ٢٩- ابن الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق/ عبد القادر عطا، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٩م.
- ٣٠- العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق د/ أحمد عبد المجيد غراب، دار الكاتب العربي بمصر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- ٣١- السموءل بن يحيى المغربي، إفحام اليهود، تقديم وتحقيق د/ محمد عبد الله الشراوي، دار الهداية بمدينة نصر ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٣٢- القرافي، الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاخرة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(ب)

- ٣٣- برنارد لويس، الغرب والشرق الأوسط، ترجمة نبيل صبحي، كتاب المختار، بدون تاريخ، سلسلة نحو طلائع إسلامية واعية.
- ٣٤- بسام سلامة، الإيمان بالغيب، مكتبة المنار بالأردن ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(ت)

٣٥- د/ توفيق الطويل، أسس الفلسفة. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.

(ج)

٣٦- جامع الرسائل، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، نقض المنطق، تصحيح محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة، فتاوى ابن تيمية «الرياض» الرد على المنطقيين، تحقيق عبد الصمد شرف الدين «المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٣٧- جويستان لويون، سر تطور الأمم، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة المعارف بمصر ١٣٣١هـ-١٩١٣م.

٣٨- جويستان لويون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعير، ط. الحلبي بمصر ١٩٧٠م.

٣٩- د/ جمال حمدان، صفحات من أوراقه الخاصة، إعداد وتقديم، د/ عبد الحميد صالح حمدان، ط. دار الغد العربي سنة ١٩٩٦م.

(ح)

٤٠- د/ حامد ربيع، الإسلام والقوى الدولية، دار الموقف العربي، القاهرة ١٩٨١م.

٤١- د/ حسن ظاظا، الفكر الديني اليهودي، أطواره ومذاهبه، دار القلم بدمشق ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ودار العلوم بيروت.

(خ)

٤٢- خميس البكري، د/ رشدي فكار في حوار متواصل حول مشاكل العصر، مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

(ر)

٤٣- رحمة الله الهندي، إظهار الحق، تحقيق د/ محمد أحمد ملكاوي، الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية بالرياض ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٤٤- رجاء جارودي، الإسلام دين المستقبل، ترجمة عبد المجيد بارودي، دار الإبيان بيروت، دمشق سنة ١٩٨٣م.

٤٥- د/ رشدي فكار، الشباب وحرية الاختيار، كتاب المختار، بدون تاريخ، رقم «٤» سلسلة نحو طلائع إسلامية واعية.

٤٦- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي. ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة، الكويت «رقم ٩٦» ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م.

(ز)

٤٧- د/ زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، تقديم أحمد فرّاج، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٤٨- د/ زينب عبد العزيز، تنصير العالم «مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني»، دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(س)

٤٩- سعد بن منصور بن كمونة اليهودي، كتاب تنقيح الأبحاث للملل الثلاثة؛ اليهودية والمسيحية والإسلام، تقديم د/ عبد العظيم الطعني ط. دار الأنصار بالقاهرة.

٥٠- سعيد أيوب، المسيح الدجال، قراءة سياسية في أصول الديانات الكبرى، دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٨٩م.

٥١- سليمان الندوي، الرسالة المحمدية، المطبعة السلفية.

٥٢- سليمان مظهر، قصة الديانات، دار الوطن العربي، بدون تاريخ.

٥٣- سهيل ديب

أ- التوراة بين الوثنية والتوحيد، دار النفائس ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

ب- التوراة، تاريخها وغايتها، دار النفائس ١٤٠٦هـ.

(ع)

٥٤- عبد الأحد دواد، محمد ﷺ في الكتاب المقدس، ترجمة فهمي شما، مراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٥٥- د/ عبد الحليم محمود، أوروبا والإسلام، ط. دار الشعب بالقاهرة سنة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٥٦- د/ عبد الرحمن بدوي

١- الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة كمال جاد الله.

٢- الدفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقذين من قدره، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر بالقاهر، ١٩٩٩م.

٥٧- عبد الله الترجمان «القس أنسلم كورميديا»، تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تقديم وتحقيق وتعليق د/ محمود على حامية، دار المعارف بمصر ١٩٨٤م.

٥٨- د/ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدية، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة كتاب عالم المعرفة، الكويت «رقم ٢٣٢». ذو الحجة ١٤١٨هـ، إبريل ١٩٩٨م.

٥٩- د/ عبد الواحد وافي، الأستار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ط. مكتبة نهضة مصر ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

٦٠- د/ عبد الودود شلبي، رسالة إلى البابا بولس السادس، ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٨٧م.

٦١- عرفات كامل العش، رجال ونساء أسلموا، دار القلم، الكويت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٦٢- د/ عبد الستار فتح الله سعيد، معركة الوجود بين القرآن والتلمود.

٦٣- علي بن ربن الطبري، الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، تحقيق عادل نويض، دار الآفاق الجديدة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(ف)

٦٤- فؤاد بن عبد الرحمن الرفاعي، حقيقة اليهود، دار القسّم بالكويت، رجب ١٤٠٦هـ.

٦٥- د/ فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفيّة، ط. دار الكتاب العربي، بالقاهرة، بدون تاريخ.

٦٦- كارين آرمسترونج

١- معارك في سبيل الله «الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام» ترجمة د/ فاطمة مصر، و د/ محمد عناني، ط. سطور ٢٠٠٠م.

٢- محمد ﷺ، نفس المترجمين، سطور ١٩٩٨م.

(ك)

٦٧- كمال أحمد عون، اليهود من كتابهم المقدس، أعداء الحياة الإنسانية، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩م.

٦٨- كولن ولسن، ما بعد اللامنتهى، ترجمة يوسف شور، منشورات دار الآداب، بيروت، أبريل ١٩٨١م.

(ل)

٦٩- ليفي برييل، فلسفة أوجست كوين، ترجمة د/ محمود قاسم، و د/ السيد بدوي، مكتبة الأنجلو، بدون تاريخ.

(م)

- ٧٠- محمد أبو زهرة، الديانات القديمة، دار الفكر العربي ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- ٧١- محمد أسد، الإسلام على مقدمة الطرق، ترجمة د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت.
- ٧٢- د/ مهندس محمد الحسيني إسماعيل، الحقيقة المطلقة؛ الله والدين والإنسان، مطابع الأهرام ١٩٩٥م.
- ٧٣- محمد تقي العثماني، ماهي النصرانية؟
- ٧٤- د/ محمد جابر عبد العال، في العقائد والأديان، الأديان الكبرى المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١م.
- ٧٥- محمد جلال كشك، المواجهة الأبدية بين الإسلام والغرب، مجلة رسالة التوحيد، ربيع ثان ١٤٠٦هـ، القاهرة.
- ٧٦- د/ محمد جمال الفندي، السموات السبع، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م.
- ٧٧- محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، مكتبة دار التراث بمصر ١٩٧٧م، تقديم عباس محمد العقاد.
- ٧٨- محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، المطبعة السلفية.
- ٧٩- محمد عبد الله السّمان، مفتريات اليونسكو على الإسلام، المختار الإسلامي ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- ٨٠- مصطفى حلمي، ابن تيمية والتصوف، دار الدعوة بالإسكندرية.
- ٨١- محمد عبد الرحمن عوض، الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأنجيل الأربعة، دار البشير بالقاهرة ١٩٨٦م.
- ٨٢- د/ محمد علي البار، المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، دار السعودية، جدة

- ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- ٨٣- د/ محمد عبد الله دراز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم بالكويت ١٣٩٠هـ.
- ٨٤- محمد عزت الطهطاوي، محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن، مكتبة النور بمصر الجديدة ١٩٨٦م.
- ٨٥- د/ محمد علي أبو ريان، أسلمة المعرفة، العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ١٩٩٧م.
- ٨٦- محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- ٨٧- د/ محمد يحيى، في الرد على العلمانيين، ورقة ثقافية، الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- ٨٨- د/ محمود حمادة، ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان، دار المعارف بمصر ١٩٨٣م.
- ٨٩- د/ محمد قاسم، كتاب مبادئ علم الاجتماع لروحيه باستير ١٣٧٠هـ-١٩٥١م.
- ٩٠- محمود أبو الفيض المنوفي، الدين والفلسفة والعلم، دار الكتب الحديثة، بالقاهرة بدون تاريخ.
- ٩١- د/ مصطفى حلمي
- ١- الصحوة الإسلامية، عودة إلى الذات، ط. دار الدعوة بالإسكندرية.
- ٢- الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة، دار الدعوة الإسكندرية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- ٩٢- محمود عباس العقاد
- ١- ما يقال عن الإسلام، ط. دار الهلال بمصر ١٩٧٠م.

- ٢- الصهيونية العالمية، مكتبة غريب، القاهرة ١٩٦٨ م.
- ٣- الله، بحث في نشأة العقيدة الإلهية، دار المعارف بمصر ١٩٤٩ م.
- ٩٣- د/ محمود عبد الله، موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكري، كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة.
- ٩٤- د/ محمود حمدي الجريس، الإسلام يتحدى المذاهب والأديان، ط. دار التراث العربي ١٩٧٦ م.
- ٩٥- د/ مصطفى محمود، سقوط اليسار، دار المعارف بمصر ١٩٩١ م.
- ٩٦- موسى جار الله، الوثيقة في نقد عقائد الشيعة، ط. لاهور، باكستان ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.
- ٩٧- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة الشيخ حسن خالد، ط. المكتب الإسلامي ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م، ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٩ م.

(ن)

- ٩٨- نجم الدين البغدادي الطوفي «٧١٦هـ»، كتاب الانتصارات الإسلامية في علم مقارنة الأديان، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا، مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٣ م.
- ٩٩- نديم الجسر، القرآن في التربية الإسلامية، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ١٣٩١هـ - ١٩٧١ م.

(هـ)

- ١٠٠- هادفيلد، علم النفس والأخلاق، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم ومراجعة د/ عبد العزيز القوصي، مكتبة مصر ١٩٥٣ م.
- ١٠١- د/ هادي حسين جمود، منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، مطبعة عصام ببغداد ١٩٨٤ م، دار القادسية.

(و)

١٠٢- ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة أحمد الشيباني منشورات المكتبة الأهلية، بيروت.

١٠٣- واصف الراعي، كنت نصرانياً، مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١٠٤- وحيد الدين خان

١- الإسلام يتحدى، ترجمة د/ عبد الصبور شاهين.

٢- قضية البعث الإسلامي، المنهج والشروط، ترجمة محسن الندوي، ومراجعة د/ عبد الحليم عويس ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

١٠٥- وجيه أبو ذكري، الإرهابيون الأوائل، جيراننا الجدد، المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٧م.

(ي)

١٠٦- يواكيم برنز، بابوات من حي اليهود، ترجمة خالد عيسى دار حسان. بدمشق ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.



